



الباحث المصري الدكتور ناصر إبراهيم:

غياب مناخ الحريات والنقد البناء من أسباب أزمة الكتابة العربية للتاريخ

ملف العدد

من الاستشراق إلى الاستغراب

البحّاثة الدكتور عمار طالبي:

أمتنا بحاجة إلى مشروع حضاري

يحفظ وجودها ويقودها من التخلف إلى التقدّم





سيرة ومسيرة الداعية الشيخ

عبد اللطيف سلطاني



المسلمون في الصين:

هكذا يَحْيوْن في الجهة الأُخرى من العالم ..!

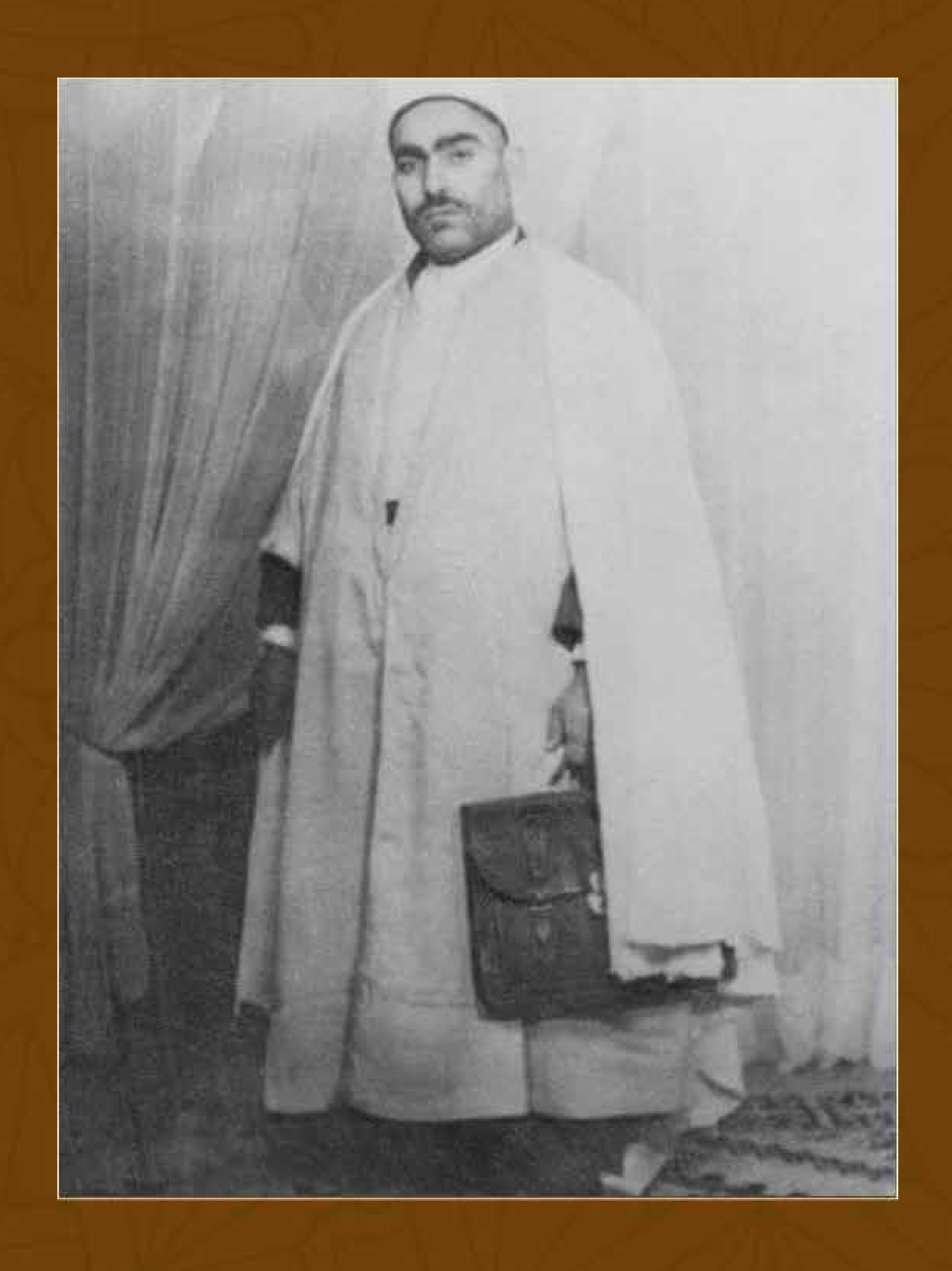


السعر 250 د.ج

ذو الحجة 1439 - أوت 2018

الشيخ نعيم النعيمي

1909 - 1973م







أ. د. **عبد الرزاق قسوم**(*)

عندما خفتَ صليل الأقلام، وهدأت خطى الأقدام، وخف ضجيج الطلاب والصبيان.

وعندما أغلقت أبواب المؤسسات المدرسية، بعد أن أعلنت نتائج المسابقات وكل أنواع الامتحان.

وعندما أخلد المثقفون والمتعلمون إلى الراحة فهرعوا إلى سفوح الجبال، وضفاف الوديان، وسواحل الشطآن.

عندها، هبت أقلام "التبيان"، هذه المجلة الثقافية الفكرية، لتنشر في جو الحرارة الطبيعية، نسيم الفكر، والإبداع، في شكل باقة من الثقافة متنوعة الألوان، عبقة بألوان العطر العقلي، والروح والريحان.

هاهي ذي –إذن– مجلة "التبيان"، التي اشتاق إليها الجميع، تخرج على الناس، كما عودتهم به، من فسيفسائية الأفكار والآراء، فتجمع على صعيدها، بين أجيال الزمن، وأبناء الوطن، وكل قرائح وملكات ومواهب العقل والجنان.

وكما يبلغ الطفل سنته السادسة، ليبحث له عن مكانة لإثبات الوجود، يأتي العدد السادس من مجلة التبيان الغراء، طافحاً بالعناوين الثقيلة، ومتحليا في مقالاته، بالمواضيع الدسمة الرصينة، فيقول للجميع هاأنذا، أملأ الجو الحار، بالندى والشذا.

إن من مميزات العدد السادس من مجلة "التبيان"، أنه يوحد على صعيد الأمة، بين عقول الوطن العربي الإسلامي، كما وحد ويوحد دوما بين إبداعات العقل الجزائري.

فإلى جانب الداعية الجزائري، الشيخ **عبد اللطيف سلطاني**، في ركن لحظة وعي نجد فضاء جديدا مفتوحا للقراء على الصين، لنطل بذلك على المسلمين هناك، ونتحسس من أخبارهم وأحوالهم بما يفرضه علينا واجب الأخوة الإيمانية كما جاء في الحديث: {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى}.

وإلى جانب المؤرخ المتميز، الأستاذ الدكتور **نصر الدين سعيدوني**، في بحثه عن نظرية الاستشراق، يعزز جانبه الأستاذ الدكتور **جمال الدين الكيلاني** في قراءته المغايرة للاستشراق.

كما يستوقفنا في العدد الجديد لمجلة "التبيان"، ضمن ملف عددها، عن جدلية الاستشراق والاستغراب، مقال للباحث الجامعي السعودي الأستاذ الدكتور **مازن مطبقاني**، معززا ببحث آخر للباحث المغربي **خالد برادة** عن أهمية قيام علم الاستغراب.

وقد زين العدد، شعرا وحكمة، بقصيدة للشاعر **رمضان بوبكانو** بعنوان: "حين تضحك الحظوظ"، كما زين العدد بحثا وعمقا، شخصية ذات وزن علمي مرموق هي شخصية الأستاذ الدكتور **عمار طالبي**.

وازدانت المجلة أيضاً بدراسات فكرية هامة ذات بعد علمي، كمقال الفكر المنهجي في التفكير، والبحث والسلوك، لمدير معهد الفكر الإسلامي العالمي، الأستاذ الدكتور **فتحي حسن ملكاوي**، ومقال هام آخر عن أسباب عدم انتشار فكر **مالك بن نبي** إلا بعد سنوات طويلة.

ولم يخل العدد من العبق الفكري النسوي، فحفلت المجلة بمقال قيّم عن البعد الواقعي للدرس الحديثي عند الإمام **عبد الحميد بن باديس**، للباحثة الأستاذة الدكتورة **نادية أوزناجي**. ومقال للباحث **عيسى عمراني** عن المربي الكبير **كامل الكيلاني** الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية، وكذلك مقال فكري آخر هام عن اللامذهبية وخطرها على المرجعية الفقهية للأمة للأستاذ **مختار بن عامر**.

هذا إلى جانب الأبواب القارة للمجلة، كالاستشارات الشرعية، واستراحة القارئ، ومسك الختام وغيرها، مما يمكن القارئ المثقف، من قضاء عطلته مدللا ومجللا بأطياف ثقافية وفكرية متنوعة.

إن مجلة "التبيان" في عددها السادس، وهي تسير بخطى ثابتة، نحو إثبات وجودها في عالم الفكر، وبين رفوف المكتبات، لتكشف عن سر العبقرية في وطننا، لدى جيل الشباب المثقف، وهي بذلك تعيد الأمل إلى النفوس، وتنشر الريّ، بدل القحط والعطش.

وبعد فقد وفّق القائمون على مجلة "التبيان" بواجبهم، وبقي على القارئ لها، أن يرتفع إلى مستوى المجلة، ليتحقق التوازن المنشود والمستوى الموعود.

(*) رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين



الفهرس

الافتتاحية
أ.د. عبد الرزاق قسوم

العدد 06 ذو الحجة 1439 / أوت 2018

الترخيص رقم 52 م و| و. | 52

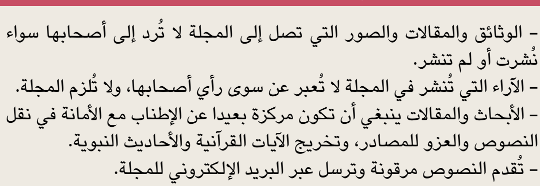
مجلة التبيان
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
17 شارع محمد مربوش
حسين داي - الجزائر

رقم الحساب الجاري:
64-2985920

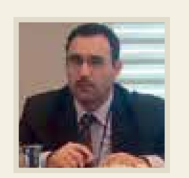
tibyane.majala2016@gmail.com
www.oulama-dz.org
www.facebook.com/oulamaalg
0660 36 07 18







تنبيهات للكتاب والباحثين
- الوثائق والمقالات والصور التي تصل إلى المجلة لا تُرد إلى أصحابها سواء نُشرت أو لم تنشر.
- الآراء التي تُنشر في المجلة لا تُعبر عن سوى رأي أصحابها، ولا تُلزم المجلة.
- الأبحاث والمقالات ينبغي أن تكون مركزة بعيدا عن الإطناب مع الأمانة في نقل النصوص والعزو للمصادر، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.
- تُقدم النصوص مرقونة وترسل عبر البريد الإلكتروني للمجلة.



أ. د. مولود عويمر (*)

المنهج أولاً

تستمر مجلة "التبيان" في نشر ملفات حول قضايا فكرية مصيرية، واهتمت في هذا العدد بموضوع الانتقال من الاستشراق إلى الاستغراب. وقد شارك مجموعة من الباحثين الأكاديميين (**جمال الدين الكيلاني**، و**ناصر الدين سعيدوني**، و**خالد برادة**، و**مازن مطبقاني**) في ضبط معالمه، وتحليل عناصره، ومرافقة الجهود المبذولة لبناء علم الاستغراب من منطلق ضرورة دراسة العالم الغربي بشكل عميق لفهمه بصورة دقيقة من أجل التعامل معه ضمن رؤية إستراتيجية واضحة.

لقد اهتم الكُتّاب العرب والمسلمون -المختصون وغير المختصين- بالدراسات الاستشراقية بصورة متزايدة، ولا يظهر كتاب في هذا المجال المعرفي إلا وقامت دراسات أو كتب أخرى تشرحها أو تعقّب عليها أو تكرّر ما تناولته الأقلام من دراسة وبحث. وكانت كثير من هذه الكتب والبحوث لا تركّز على دراسة مجهرية لإنتاج مستشرق واحد حتى تكون المقاربة عميقة ودقيقة. بل هي تدرس موضوعا أو موضوعات من خلال أعمال مجموعة من المستشرقين فتكون الحصيلة متواضعة. وإذا صار مستشرق محل دراسة للاعتبارات العلمية السابقة، رأيت العديد من الباحثين يتناولونه في آن واحد أو في فترات متقاربة حتى يظن القارئ أن هذا المستشرق هو الوحيد الذي كتب حول هذا الموضوع المدروس!

وهذا الكلام ينطبق أيضا على المؤتمرات التي تنعقد في العالم العربي والإسلامي حول الاستشراق، فتتكرر فيها الموضوعات المقترحة للدرس، وبالتالي قلما تتسم البحوث المقدمة بالإبداع والتجديد. وأذكر هنا على سبيل المثال مؤتمرا واحدا شاركت فيه، وكان عنوانه: (المستشرقون وتحقيق التراث العربي). وقد قُدمت خلاله 8 ورقات أي ثلث المحاضرات المبرمجة، خصصت كلها لدراسة مستشرق فرنسي واحد، والذي لم يساهم إلا قليلا في مجال التحقيق بينما أهمل المؤتمر عددا من المستشرقين الفرنسيين أو غيرهم الذين كانت لهم إسهامات كثيرة في هذا المجال.

ولا شك أن الجهود المبذولة في مجال الاستشراق من طرف الباحثين الجادين انتهت إلى قناعة ثاقبة، وهي ضرورة الانتقال من دراسة الاستشراق إلى الاهتمام بالاستغراب بمعنى اعتبار العالم الغربي موضوعا ومجالا للبحث. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة بعض المشروعات الفكرية التي قدرت أهمية الاستغراب، فنظمت ندوات عديدة للتأكيد على أهميته، وشرح أهدافه، وضبط مناهج دراسته، وتعبئة الإمكانات المادية والبشرية لتحقيق مقاصده. وفي هذا الإطار، صدرت دوريات متخصصة في هذا الحقل المعرفي الجديد، وكذلك قامت مبادرات رسمية وخاصة لإنجاز موسوعة حول الاستغراب في قطر، وتأسيس مركز للدراسات الغربية في مصر.

ولابد أن يدرس المستغربون الحضارة الغربية بنفس الهمة التي تحلى بها المستشرقون وهم يتعلمون لغتنا، ويدرسون تراثنا، ويسافرون إلى أوطاننا، ويتجوّلون في أريافنا وحواضرنا، ويمشون في أسواقنا ويعيشون بيننا، ويسجلون مشاهداتهم عن يومياتنا، ويدرسون عاداتنا وذهنياتنا، ويكتبون المقالات والمؤلفات حول تاريخنا، ويترجمون آدابنا وعلومنا، ويرسمون مسالك استغلالنا، ويستشرفون معالم مستقبلنا.

فإذا توفّرت هذه المواصفات في المستغرب فإننا سنحقق حينئذ إنجازات معتبرة في مجال علم الاستغراب، وسنتقدم باستمرار خطوات موفقة في مسيرة التعرف على الحضارة الغربية بعمق، وفهم مقوّمات نهضتها بشكل دقيق، والاستفادة المثمرة من مصادر قوتها، وتجاوز المخططات الاستدمارية المستهدفة لعالمنا الشرقي التي ترسمها مراكز القرار الغربية التي لا تستوعب دروس التاريخ، وسنن التغيير، وتصر دائما على تحقيق مصالح دولها بكل الوسائل بغض النظر عن الاعتبارات السياسية والقانونية والأخلاقية...الخ.

وحتى نملك رؤية ثاقبة لفقه التاريخ وسنن التغيير أجرينا حوارا مثمرا مع الباحث والمؤرخ المصري الدكتور **ناصر إبراهيم** ضمن تصور تجديدي يخرج فلسفة التاريخ العربي من القطرية أو الإيديولوجية الضيقة إلى البعد الإنساني المشترك فيه، من خلال الاستفادة من العلوم الحديثة باعتبارها أدوات معرفية مساعدة لبناء أفق للقضايا التي ندرسها دون الالتزام برؤيتها النظرية الانتقائية إذا تعارضت مع روح منظومتنا القيْميّة.

عندما صدرت هذه المجلة وضعنا في هيئة التحرير نصب أعيننا ضرورة تكريم عالم من علمائنا الأحياء في كل عدد. وهكذا وصلنا في هذا العدد -وفق البرنامج المسطر- إلى الدكتور **عمار الطالبي** نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والبحاثة المعروف في مجال الفلسفة الإسلامية التي درّسها في جامعة الجزائر وفي عدة جامعات أخرى، وكتب عنها مؤلفات ودراسات عديدة، وحقّق عدة مخطوطات نفيسة.

وقد امتد عطاؤه إلى خارج الجزائر فاختير رئيسا لقسم الفلسفة في جامعة الدوحة بقطر، وعضوا في مجمع اللغة العربية بمصر، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية بإيران، وغيرها من المؤسسات العلمية الدولية. وهو يسرد هنا في حوار خاص مع مجلة التبيان محطات من حياته العامرة، ويكشف مواقفه تجاه أحداث عاصرها، ويعبر أيضا عن آرائه حول قضايا فكرية وإصلاحية راهنة.

وتتقاطع تجربة الدكتور **الطالبي** مع تجارب شخصيات علمية وأدبية أخرى، وهي: الإمام **عبد الحميد ابن باديس**، والشيخ **عبد اللطيف سلطاني**، والمفكر **مالك بن نبي**، والأديب **كامل الكيلاني**. فقد اشتغل هؤلاء الأعلام أيضا بسؤال التغيير. وكانت إجاباتهم واضحة، فالحل عندهم يكون في إصلاح العقيدة، وتفعيل القيم الأخلاقية، وتحصيل العلم، ونشر الوعي، وبناء المجتمع الفاضل ضمن القيم الإسلامية السمحاء، بعيدا عن الغلو المذهبي والعقائدي والأيديولوجي وغيره من أشكال الغلو والتطرف، والسير نحو المستقبل بهمة عالية وبخطى ثابتة على ضوء هذه المعالم الهادية، ووفق منهج تفكير سليم ◇◆

والله ولي التوفيق.

(*) رئيس التحرير



أ. مهدي جيدال

ماستر في العلوم الإسلامية

سيرة ومسيرة الداعية الشيخ عبد اللطيف سلطاني رحمه اللّه

لا نزال نمتع أعيننا، ونشنف أسماعنا بما نقرأه أو نسمعه من سير أعلام الجزائر ودعاتها العاملين المصلحين، الذين أفنوا حشاشة أعمارهم في تبليغ دين اللّه تعالى والذّب عن حياضه، ومن أولئك الفحول رجل بذل الكثير، وقيل عنه القليل، وإن شئت فقل: غُمط حقه حيا وميّتا، عالم وقف بجانب إخوانه العلماء في وجه طغيان فرنسا الصليبية، ورفع في جزائر الاستقلال لواء التصدي لرواد الإلحاد وتياراتهم التغريبية، فحلٌ نافح وكافح بلسانه وقلمه نصرة للهُوية الجزائرية العربية الإسلامية الأصيلة، ووطنيٌّ تشرفت به الوطنية الصادقة الحقة، وازدانت به مساجد الجزائر بدروسه وخطبه الحية، وإمامٌ اتسم بالرجولة العلمية والغيرة الإسلامية، وداعية عُرف بأصالة ملبسه وأناقة مطلعه وحسن سمته، فأضفوا عليه هيبة ووقارا يشهد له بذلك كل من اكتحلت عيناه بطلعته، ذلكم هو الإمام الجليل، والداعية الإسلامي الكبير، الفقيه المالكي، والخطيب الألمعي، العالم الوقور، والكاتب الهصور، الإصلاحي المجاهد الشيخ: عبد اللطيف بن علي السلطاني القنطري ولادة ونشأة، نزيل بلدية القبة، أمين مال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رحمه اللّه وأعلى مقامه في عليّين.

مولده وأسرته:

أبصر الشيخ عبد اللطيف الدنيا في 01 ربيع الأول سنة 1320هـ/لـ8 جوان 1902م، بمدينة القنطرة، وهو من أسرة مشهورة بالعلم هناك، فوالده هو الشيخ علي السلطاني أحد أعيان وفقهاء القنطرة في زمانه[1].

ومن النابغين في آل السلطاني بالقنطرة **الشيخ الأمين سلطاني** الأخ الشقيق للشيخ عبد اللطيف، خرّيج الزيتونة ومن حملة شهادة التطويع، قضى حياته في القنطرة مربيا ومعلما لشِيبها[2].

طلبه للعلم ورحلته للزيتونة:

لكل شيء بداية، وأولى البدايات مع كتاب اللّه جلّ وعلا تلقيانا وحفظا، ليستفتح الشيخ حياته العلمية متنقلا بين الكتاتيب في بلدته، ليشد رحله بعدها تجاه مدينة سيدي عقبة حيث تولى تدريسه في هذه الزاوية الرجل الصالح الخيّر التقي **الشيخ الهاشمي بن المبارك** -رحمه اللّه- (راوية مذهب الإمام مالك كما وصفه بذلك الشيخ محمد العيد آل خليفة)، وبعد انصرام حولين في سيدي عقبة يمم أمره تجاه الزاوية العثمانية في طولقة خاتما رحلته في ضبط القرآن هنالك وفيها أجاد حفظ القرآن رسما وقراءة وتجويدا، ثم عكف على الدروس العلمية من نحو وصرف وفقه وعقائد على الشيخ **عمر بن الشيخ علي**[3].

آب بعدها إلى القنطرة وتولّى فيها تعليم القرآن للصبيان ليوافق رجوعه هذا عودة أخيه **الأمين سلطاني** من تونس حاملا شهادة التطويع، فخفق قلب هذا الشاب القنطري لطلب المزيد واللحاق بركب والده وأخيه في زيادة التحصيل العلمي، فكانت رحلته إلى منارة العلم والعلماء بجامع الزيتونة في تونس، وعلى نهج الأولين من أساطين علماء الجزائر درج الشيخ سلطاني، لينهل من معين علماء الزيتونة.

يذكر -رحمه اللّه- أنه لما عزم على السفر إلى تونس لم يخبر أحدا من أهله وفارق القنطرة في آخر ربيع الآخر (سنة 1341هـ/ نوفمبر 1922م) والتحق بجامع الزيتونة، واستمرت دراسته هناك سبع سنوات متتالية، ولما أتمها تقدم للمشاركة في الامتحان النهائي لنيل التطويع وكان هذا في عام 1348هـ[4].

مع جمعية العلماء معلما وداعيا وإداريا:

فقفل الشيخ عبد اللطيف راجعا إلى مراتع صباه مستفتحا عهدا جديدا من حياته، ليخط نضالا آخر ينضاف إلى نضال العشرات من الزيتونيين في بناء النهضة العلمية الجزائرية.

يقول **الشيخ عبد اللطيف**: "كاتبني أبو النهضة الجزائرية، المرحوم **الشيخ عبد الحميد ابن باديس** -رحمه اللّه- راجيا مني أن ألتحق بالتعليم، وأنخرط في سلك معلمي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فلبيت، إذ هي المُشرفة على التعليم الحر، والموجهة له في المدارس والمساجد الحرة في ذلك الوقت، وجمعيةُ العلماء في سنتها الأولى من تأسيسها، فلبيت الرجاء"[5] واتصال الشيخ عبد اللطيف بالشيخ ابن باديس يعود إلى عهد قبل هذا، فقد نشر الشيخ عبد اللطيف مقالا في مجلة الشهاب بتاريخ: 30 ربيع الثاني 1346هـ/ 27 أكتوبر 1927م، ثم لما زار الإمام ابن باديس عين مليلة اِلتقاه الشيخ عبد اللطيف وألقى كلمة بحضرته[6].

عاد الشيخ مرة أخرى إلى القنطرة، فاشتغل بالتعليم في (مدرسة الهدى). ويذكر عن هذه العودة فيقول: "عدت مرة أخرى إلى القنطرة بلدتي نهائيا ... فاشتغلت بالتعليم مرة ثانية في مدرسة الهدى، وأدخلت في التعليم تعليم البنات، مع الاشتغال بتوسيعها بإعانة شباب القنطرة الناشط، فتم ذلك في سنة 1945م، وفتحت رسميا في حفلة رائعة في يناير 1947م بحضور رئيس جمعية العلماء **الشيخ محمد البشير الإبراهيمي**، وعلماء تلك الناحية: بسكرة، باتنة، عين التوتة، ومنهم الشاعر الكبير المرحوم **الشيخ محمد العيد آل خليفة**، وحيّا القنطرة ومدرستها بقصيدة تحفة في بابها من شعره البليغ"[7].

يقول **الأستاذ محمد الحسن فضلاء**: "وهذه الطائفة المختارة من الأساتذة والمعلمين (أي في مدرسة الهدى بالقنطرة) قد قضوا على آثار الطرقية وطقوسها وأذكارها المنتشرة في القنطرة، وتطلعاتها إلى نشر ترّهاتهم الباطلة وبدعهم المنكرة، فأحدثوا ضجة وطنية كبرى في البلاد، وحركة علمية زاخرة، كان من نتائجها بعثات نفرت في سبيل العلم إلى الجامع الأخضر، والزيتونة، والمشرق العربي ضمن بعثات جمعية العلماء"[8].

وفي سنة (1366هـ/1946م) انتخب عضوا إداريا في المجلس الإداري لجمعية العلماء مع إسناد المراقبة له في عمالة قسنطينة، ثمّ مدرسا بمعهد الشيخ عبد الحميد ابن باديس في قسنطينة وهذا في أكتوبر1948م، حيث انتدبه الشيخ البشير الإبراهيمي ومشايخ آخرين[9]، ثم عُيّن في سنة (1370هـ/1950م) ناظرا للمعهد المذكور، وقد عرف الشيخ عبد اللطيف بحزمه في أموره منذ السنوات الأولى في جمعية العلماء المسلمين، ويُذكر عنه قصصا وطرائف في ذلك منها أنه كان يقف عند باب المعهد مراقبا للطلبة عند دخولهم، فإذا جاء أحدهم حاسر الرأس يُمنع من الدخول، وإذا كان وقت الصلاة جاء يلاحظ من يصلي ومن لا يصلي[10].

وفي سبتمبر 1951م انتخب أعضاء المجلس الإداري للجمعية الشيخ عبد اللطيف أمينا عاما لمالية جمعية العلماء (وبالمال يمتحن الرجال).

يقول **الشيخ أحمد حماني** -رحمه اللّه-: "وفي سنة 1951م انتخب أمينا عاما لمالية جمعية العلماء بمساعدة أخيه وزميله في الكفاح الشهيد أحمد بوشمال رحمهما اللّه،... فقام الرجلان بضبط المالية وتنظيم مشاريع الجمعية، وقد تمخضت ونمت وتنوعت، وقد مكن ذلك الجمعية أن تؤسس مطبعة لإخراج (**البصائر**) و(**الشاب المسلم** -بالفرنسية-، والاستغناء عن تحكم الأجانب •••

(1) انظر مذكرات الشيخ عبد اللطيف سلطاني رحمه اللّه (اعتناء: لحسن بن علجية):155.
(2) انظر نبذة عن حياة الشيخ الأمين سلطاني (مطبوعة نشرتها الجمعية التاريخية والثقافية لمتحف القنطرة).
(3) انظر مذكرات حياتي: 155-162، ومن أعلام الإصلاح في الجزائر لفضلاء (1/251).
(4) انظر مذكرات حياتي:172-162، وانظر خبر تحصيله لشهادة التطويع في الشهاب (5/395).
(5) مذكرات حياتي :172-171.
(6) آثار الإمام ابن باديس (4/229)، وكانت هذه الرحلة عام 1348هـ/لـ 1929م.
(7) مذكرات حياتي:174-173.
(8) المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر (القطاع القسنطيني) (104-1/103).
(9) انظر آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (3/214).
(10) من شهادة د.عبد الرزاق قسوم في ندوة المكتبة الوطنية حول الشيخ عبد اللطيف سلطاني.

في طبعهما، وقد كلف شراء المطبعة بسبعة ملايين فرنك، وهو مبلغ عظيم في ذلك الزمن، كما أن ميزانية معهد عبد الحميد ابن باديس تجاوزت العشرين مليونا. وقد اختار العلماء هذين الرجلين –عبد اللطيف وأحمد– لهذه المهمة–لما عرفا به من حزم ويقظة وضبط ودقة وصرامة وعزم، ومنحوهما التفويض الكامل في التصرف، فصدقا – بعلمهما وتصرفهما – ما تعشم فيهما"[11].

ثم اختير بعدها بالإجماع مديرا لمركز جمعية العلماء في العاصمة[12]. وبقي يشغل هاته المهام إلى أن أوقف عمل الجمعية سنة 1956م.

عندما نادى منادي الجهاد... في ركب الثورة المباركة:

لا يختلف منصفان في دور العلماء أثناء الثورة المباركة، من شحذ لهمم الشعب وتحريض لهم على الجهاد بالنفس والمال، وحضهم على الصبر والمصابرة من على المنابر في المساجد، وفي أفراح الناس وأتراحهم، وعند كل فرصة تتاح لهم للقاء العامة، ناهيك عن مشاركتهم النوعية والفعلية في التنظيم أو في الجبال تحت لواء جبهة التحرير آنذاك.

وكما تحدثنا عن عبد اللطيف المعلم والمربي والإداري في صفوف جمعية العلماء ينبغي التعريج على عبد اللطيف المجاهد والمناضل في ثورة التحرير المباركة منذ اندلاعها، إذ كانت البداية مع البدايات الأولى للثورة حيث كان التنسيق يتم بين جمعية العلماء والمجاهد **عبّان رمضان** –رحمه اللّه– المسؤول آنذاك في العاصمة، يقول **الرئيس بن يوسف بن خدة** –رحمه اللّه– (رئيس الحكومة المؤقتة): في معرض حديثه عن عبان رمضان: "... فلعبّان مهام أخرى متعددة، كانت له اتصالات كثيفة مع عدة شخصيات كفرحات عباس وأعضاء من جمعية العلماء، وقد صاحبته في اتصالاته الأخيرة بجمعية العلماء، فاتصلنا بالشيخ عبد اللطيف القنطري المعروف و**الشيخ خير الدين** و**عباس التركي**...أذكر بهذه المناسبة أنني كنت دائم الاتصال في ذلك الوقت بالشيخ عبد اللطيف سلطاني الذي كان يقيم في عمارة في ساحة أول ماي حاليا وكان غالب سكان الحي هم من الأوروبيين، [فــ]كنا نختار دائما الأحياء الأوروبية للإقامة فيها، حيث يقل التفتيش والحراسة على عكس الأحياء الشعبية"[13].

وكانت تعقد بعض الاجتماعات المهمة في منزل الشيخ، ولعل من أهمها تلك الاجتماعات التي حُضّر فيها لمؤتمر الصومام المنعقد في أوت 1956م.

وقد تولى إمامنا بعد مؤتمر الصومام مهمة جمع المال للثوار وهذا بطلب من (لجنة التنسيق والتنفيذ)، وأفسح المجال هنا للإمام الفقيه **الشيخ أحمد حماني** –رحمه اللّه– ليُدلي بشهادته عن رفيق دربه في الإصلاح والكفاح فيقول: "... وأثناء حرب التحرير أدى واجبه كإخوانه، وربما جهل الكثير من الناس هذا الجانب فظنوا الظنون، فالشيخ –رحمه اللّه– كان شديد الاحتياط، لا يثق إلا بمن هو من أهل للثقة، ولا يعطي أحدا سره، وأنا اليوم أدلي بهذه الشهادة أُسأل عنها أمام اللّه، فعلى يده كانت تصل إلى الجبهة تبرعات من بعض المجاهدين بأموالهم، وفي داره نظمت عدة اجتماعات على مستوى عال سنة (1956–1957م)، وحضرها الشهيد عبان رمضان، يشرف عليها بنفسه أو يحضرها نائبه (سي صالح)... وابتدأت هذه الاجتماعات بمجيء الأستاذ عبد الحميد بن أشنهو –رحمه اللّه– في مهمة من المغرب مندوبا عن قيادة الجبهة هنالك، فلما اتصلت بالقيادة في الجزائر وأعلمتهم بالمهمة اشترطوا علينا أن ندبر نحن مكان الاجتماع، على أن يكون في أحد الأحياء الآتية: نهج ديزلي (العربي بن مهيدي)، أو نهج ميشلي(ديدوش مراد)، أو في الأحياء السفلى من بلكور، أو في ساحة المناورات (شامنوفر)، أو نهج تيليملي، هذه مسؤولية ثقيلة لما فيها مغامرةً باجتماع القيادة، ولا يؤتمن عليها كل واحد، ولهذا ذهبت إلى الشيخ عبد اللطيف –وكان مسكنه في ساحة المناورات أول ماي–، وأعلنت له ما عهد به إلينا، فقبل ذلك، والتزمه، وتكرر منه أثناء تلك الفترة اللقاء مع بعض الولايات كالولاية الثانية... وسلم الشيخ عبد اللطيف –بفضل اللّه ثم بفضل احتياطه وحذره– أن يمسه سوء، فقد اعتقلت، واعتقل الأستاذ صالح نور، وكنا من أقرب الناس إليه، وأكثرهم اطلاعا على أعماله، فلم يجر له ذكر على ألسنتنا –مع العذاب الشديد–، ثم اعتقل –فيما بلغني– أيام محنة الشهيد الكريم الشيخ الربيع بوشامة أياما معدودات ثم أطلق سراحه، ولو تكلم عنه أو اعترف به لكان مصيره كمصير الربيع رحمهما اللّه، وأذكر أنه استطاع أن يصل إليّ في زيارة سرية لما كنت في مستشفى باتنة أواخر سنة 1961م، وأن يمدني بتشجيع وتثبيت وحث على الصبر وكنا على أبواب الاستقلال"[14].

لم يخرج الشيخ عبد اللطيف من الجزائر إبّان الثورة وقد أتيح له ذلك، بل بقي صابرا محتسبا، معتقدا أن الخروج من الجزائر –بقطع النظر عن الدافع إليه– هو من التولي يوم الزحف الذي نهانا اللّه عنه، مع ما تلقاه من تهديدات من عصابة اليد الحمراء ومنظمة الجيش السري، ولكن اللّه حفظه وسلمه ليدرك بزوغ فجر الاستقلال[15].

وبعد أن كسر الهلال الصليب...في جزائر الاستقلال:

بعد أن أعز اللّه الجزائر باستقلالها، ودحر الصائل النصراني بجهاد أبنائها، وطهّر هذه الأرض الطيبة من نجاسة التثليث والصلبان، وأعاد لها عبق التوحيد والإيمان، وأدبر النصارى الفرنسيس، واستوت ضاد يعرب على غين باريس. مضى العلماء والدعاة من جمعية العلماء في مسيرة البناء، ولسان حالهم:

وقمنا نشيد صرح البـــــلا
دِ، ونبني سيادتنا الطالــعه

حيث شغل مترجمنا –رحمه اللّه– عدة مهام رسمية وغير رسمية بعد الاستقلال إضافة إلى عمله الدعوي، فمن الإمامة والخطابة في مسجد (كتشاوة) ومسجد (ابن فارس) إلى التدريس في ثانويات العاصمة إلى غاية تقاعده في جانفي 1971م، إضافة إلى عضويته في لجنة الفتوى التي كان يرأسها الإمام الشيخ **محمد البشير الإبراهيمي** حيث وصف أعضاءها بالذكاء واستحضار

(11) مقال للشيخ حماني حول الشيخ عبد اللطيف (مصدر سابق).
(12) انظر آثار الإمام البشير الإبراهيمي رحمه اللّه (2/449).
(13) رجال صنعوا التاريخ (لقاء مع الرئيس بن يوسف بن خدة) للطاهر آيت حمو، ص: 81-75.
(14) مقال للشيخ حماني حول الشيخ عبد اللطيف (مصدر سابق).
(15) انظر المذكرات:195-186.

النوازل، وبالبراعة في تنزيل الأحكام الشرعية على النوازل الفقهية[16].

كما انتدبته وزارة الأوقاف عضوا ممثلا لها للمشاركة في مداولات التشريع في اللجنة الخاصة بدراسة الزواج وانحلاله لدى وزارة العدل[17]. وكانت له مشاركة في **جمعية القيم** (1963-1966م) ومجلتها (**التهذيب الإسلامي**)، إذ كان عضوا في المجلس التوجيهي واللجنة الأدبية فيها[18].

رحلاته وصلته بالعلماء والدعاة:

قام الشيخ سلطاني بعدة رحلات خارج الوطن، تجاه المشرق الإسلامي وكذلك تجاه الدول الغربية كانجلترا وفرنسا، ومن هذه الرحلات رحلته إلى تونس التي وقف فيها على الحال الأليمة التي صار فيها جامع الزيتونة المعمور، ولم يكن الشيخ في منأى عن حاضر العالم الإسلامي والحركة الإصلاحية العلمية فيه، فلقد كانت له أواصر أخوية وعلمية مع كثير من رموز العلم والدعوة آنذاك، كمشايخ الزيتونة وغيرهم، من ذلك الدعوة التي وجهها له الشيخ **ابن باز** -رحمه الله- للمشاركة في (**المؤتمرالعالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة**) المنعقد في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية في 1397هـ / 1977م [19].

مؤلفاته وآثاره:

1. المَزدكية هي أصل الاشتراكية.
2. سهام الإسلام.
3. في سبيل العقيدة الإسلامية.
4. مذكرات حياتي.
5. الغصن الطري شرح مختصر الشيخ عبد الرحمن الأخضري في الفقه ولايزال مخطوطا.
6. مقالاته المبثوثة في الجرائد الإصلاحية والمجلات، وكذا رسائله مع عدة شخصيات إصلاحية وسياسية[20].

ناهيك عما جادت به قريحته في دروسه وخطبه ومحاضراته المسجلة.

وعندها ترجل الفارس... محنته ووفاته:

مافتئ أحرار الجزائر يتنفسون الصعداء، بعد أن نفضوا أيديهم من المحتل الفرنسي وأذنابه، حتى رزئوا بأقوام هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، "جلبوا [إلى هذا البلد الطاهر] لباسا من الشرق وأفكارا من الغرب، وفرضوا لسان العدوّ، وبذروا -كالشياطين- مال الشعب، وأحيوا دعوى الجاهلية المنتنة، وأشاعوا باسم الثقافة الفواحش ما ظهر منها وما بطن"[21]، وبالموازاة مع ما ذكر طفت على السطح بعض الأقلام الصحفية البغيضة التي تطاولت على شعائر الإسلام الظاهرة وعقيدته بالاحتقار والازدراء، وزادوا على الكتابة في الصحف عرض المسرحيات والتمثيليات التي تُعرّض بهذا الدين، وأنه دخيل على هذه الأمة، وغيرها من السهام المسمومة التي رميت بها جزائر الاستقلال عن قوس واحدة.

كانت للشيخ سلطاني مع من ذكر حالهم جولات وصولات في ردّ زيفهم وإفكهم، مع إظهار لأصالة هذه الأمة واعتزازها بدينها الإسلامي ولغتها العربية، قائما بواجب التعليم والتربية، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، بخطبه ودروسه ومؤلفاته رحمة الله عليه، وقد لحقه من مواقفه هذه الأذى الكثير في نفسه ودينه وتاريخه، منها تلك الفرية الصلعاء من كونه يطعن في الشهداء وأنه لم يشارك في الثورة وأن مواقفه تلك وليدة حرمانه من الوزارة، يذكر **الشيخ أحمد حماني** -رحمه الله- حاكيا حال الشيخ سلطاني: "كان الفقيد مؤمنا، شديد التمسك بالدّين، صلب الإرادة، قوي العزيمة، متين الخلق، لا يتحرج أن يعلن ما يحسب أنه الحق، يدافع عن رأيه بقوة وحماسة، وربما هاجم من يعترض طريقه بعنف وشدة، ولو كان من أقرب الناس إليه وأمكنهم عنده: أخ أو صديق أو تلميذ أو قريب، لا يبالي، وربما سبب له هذا الخلق حرجا كبيرا في حياته وفي علاقته بالناس العمومية والخصوصية، ومن عرف ذلك في طبعه، وعلم صدقه وإخلاصه تحمله منه وغطى عنه"[22].

إلى أن جاءت محنته الأخيرة بعد أحداث الجامعة المركزية سنة 1982م، التي اعتقل فيها رفقة **الشيخ سحنون** وآخرين، حيث يذكر الشيخ عبد اللطيف أن دوره في تلك القضية كان مبتغاه الرئيس منه تهدئة الوضع المشحون بين الطلبة والشرطة وليس النية منه معاداة الدولة، ذلك لأن الطلبة الجامعيين لهم ثقة في علمائهم الذين قدموا عريضة للدولة كي تراجع أمر هؤلاء الطلبة، وذكر أن الزعم بأنه معاد للدولة تهمة باطلة ورخيصة الغرض منها الإساءة إلى سمعته[23].

ولكن أسيء فهمه كما قال **الأستاذ فضلاء**: "لكن أسيئ فهمه فحكم عليه بعدم مبارحة منزله بالقبة"[24]، يقول **الشيخ حماني**: "ولكن يجب أن نذكر ... أن هذا التشدد منه والصلابة والصراحة، ربما استغلها بعض الناس – عفا الله عنا وعنهم – في أغراض لا تخدم الدّين ولا الوطن، وما كان الشيخ -رحمه الله- ولا أحد من إخوانه العلماء العاملين يريد لهذه الأمة إلا ما أمرها به الله من وحدة الصف ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ وتجنب ما نهى عنه من فرقة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فقد كان الفقيد -رحمه الله- ممن ينشر الهداية الإسلامية بمبادئ كتاب الله وسنة رسوله"[25].

وقد أخذت السنون تعمل عملها في جسد الشيخ، مع ما لحقه فيها من أذى، فقد جاوز الثمانين ربيعا، ليخبو نور هذه المنارة التي كانت نبراسا يحتذى به سنين عددا، ابتداء من القرارم والقنطرة، وانتهاء في العاصمة، ليسلم روحه يوم الأربعاء 09 رجب 1404هـ/ لـ 11 أبريل 1984م.

ووري جسده الثرى في مقبرة (قاريدي) بالقبة، في جنازة مشهودة، وقد أم الناس في جنازته صاحبه في الدعوة والتعليم والإصلاح الشيخ الأستاذ **حمزة بوكوشة** -رحمه الله- ◆◇

---

(16) انظر آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (5/309).
(17) محطات في تاريخ الحركة الإسلامية ص: 80 و91.
(18) انظر مقال: جمعية القيم، الهاشمي التيجاني، مجلة التهذيب الإسلامي، ع:8.
(19) انظر المذكرات: 185.
(20) وقد تيسر لي جمع كم من مقالاته ومراسلاته الشخصية يسر الله طبعها وإخراجها.
(21) مقال بعنوان: انتقام الأفكار المخذولة للأستاذ المؤرخ محمد الهادي الحسني، الشروق اليومي، ع: 3933.
(22) مقال للشيخ حماني حول الشيخ عبد اللطيف (مصدر سابق).
(23) انظر المذكرات: 199-214.
(24) من أعلام الإصلاح في الجزائر لفضلاء (1/256).
(25) الشيخ أحمد حماني، أسبوعية العصر (مصدر سابق).



الباحث المصري **الدكتور ناصر إبراهيم** للتبيان:

غياب مناخ الحريات والنقد البناء من أسباب أزمة الكتابة العربية للتاريخ

حاوره أ.د. **مولود عويمر**

الدكتور ناصر إبراهيم، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصرة بجامعة القاهرة، له إسهامات عديدة في مجال البحث التاريخي والفكري، أصدر مجموعة من المؤلفات والبحوث منها:
"الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر"، "الفرنسيون في صعيد مصر (1798-1801)"، "فصول من التاريخ الاجتماعي"، "العدالة بين الشريعة والواقع في مصر العثمانية"، "مائتا عام على الحملة الفرنسية: رؤية مصرية"، "مراكز الأبحاث والدراسات فى العالم العربي..إطلالة على الواقع الراهن"، ...

وقد حاولنا في هذا الحوار أن نطرح عليه مجموعة من الأسئلة التي لها صلة بتاريخ العربي الحديث، وسبل مواجهة التحديات الفكرية القادمة، وتفعيل مقوّمات النهضة المنشودة.

• وليت اهتماما كبيرا لتجربة محمد علي باشا (1805 – 1848) الإصلاحية الرامية إلى تحديث المجتمع المصري، وتأسيس دولة عصرية قوية متأثرا في ذلك بالتطوّر الحاصل آنذاك في أوروبا. غير أن كل تلك الجهود لم تتمكن من تحقيق كل أهدافها، ولم تساهم بشكل كبير في نهضة مصر، بينما نجحت في ذلك التجربة اليابانية التي تزامنت معها. أين تكمن العلة؟

•• سؤالك يتعلق بتفسير مآل التجربة وحصادها الأخير مقاربة بغيرها كما في التجربة اليابانية، بداية يجب أن توضع تجربة الإصلاح عند **محمد علي باشا** في سياق عصره (1805 – 1848) ، لأن التجربة اليابانية جاءت في فترة متأخرة عنه بنحو نصف قرن، حيث بدأت مع عصر الإمبراطور ميجي (1867 – 1912)، وصحيح أن الرجلين حكما بلدين شرقيين، وكلاهما تصدى لتدشين أسس دولة عصرية، وكلاهما لعب الغرب دورا مهما في إثارة التحديات ومحاولة إجهاض التجربة، وكلاهما انخرط في مقاومة الهيمنة الامبريالية والمضي بقوة في التحديث الاجتماعي القسري وإدخال الصناعة الحديثة وبناء المؤسسات العلمية الحديثة...إلخ، إلا أن منظومة الفكر السياسي والاجتماعي في البلدين كانت مختلفة ، وتركت أثرها قويا في تباين طريق الإصلاح ونتائجه بين التجربتين.

ففي الحالة المصرية نجد محمد علي باشا دشن تجربته الإصلاحية على أساس اقتصادي عسكري، يكون فيه الحاكم قابضا بين يديه على مقاليد السلطة وهو في الوقت نفسه من يملك إدارة الاقتصاد وتخطيط مالية البلاد (نموذج رأسمالية الدولة الاحتكارية)، وخطورة هذا التوجه أنه لم يسمح للمجتمع أن يكون شريكا في التجربة، إنما المجتمع بكل طاقاته الإنتاجية المادية والبشرية مسخر في خدمة النظام، وهنا دلالة المفارقة النوعية، لأنه حين ضربت التجربة في مطلع الأربعينيات من حكمه كانت جميع طبقات المجتمع المصري وجميع أطيافه في مواقع المتفرجين: فلو كان للمجتمع مساحة من الشراكة الحقيقية في منظومة الإصلاح العامة، لهب المجتمع مدافعا عن مصالحه، لكن الذي حدث أن محمد علي باشا استبعد المجتمع من مزاحمة الدولة في امتلاك أصول الملكية لأدوات الإنتاج أو حتى شريكا في صناعة التنمية، فحين وجهت الضربة للنظام من قبل إنجلترا وحلفائها بدا الأمر وكأنه شيئا يخص السلطة لا المجتمع ككل.

> التاريخ لا يكتب في سياق إيديولوجي وإلا انحرف عن جدة الدراسة وفقد أهميته من الناحية العلمية.

بالمقاربة مع التجربة اليابانية رفضوا سياسة القروض والمحاكم المختلطة الأجنبية نتيجة حالة الانسجام بين الشعب الياباني (الساموراي، التجار البرجوازيون، الصناعيون والحرفيون، المزارعون، العمال) وحكومة الميجي، وهنا لعبت الثقافة الواحدة والوعي الوطني دورا حاسما في المفارقة لأن في الحالة المصرية ظل محمد علي باشا وأبناؤه من بعده في سياق الثقافة العثمانية، وهي ثقافة غريبة عن ثقافة المجتمع المصري الحاضن لهم: فلم يتعلم أحد من الحكام اللغة العربية وآدابها ولم يتولد لديهم الشعور بالاعتزاز بقيمة ما يمثله التاريخ المصري ومصر كوطن، بل إنهم حين اهتموا بعد الحرب العالمية الأولى بكتابة تاريخ مصر، راحوا يركزونه على الأسرة المالكة بدءا من محمد علي باشا الذي اكتسب صفة "مؤسس مصر الحديثة"، على مستوى تجربة محمد علي باشا سبب هذا حالة من نفور المجتمع من النخبة الهجينة التي لم تكن لها أصول مصرية، وازداد الأمر حدة مع اتجاه محمد علي وخلفائه إلى تميز العنصر التركي والوافد من الطوائف الأجنبية في الوظائف والمناصب التي تعاظم دورهم في استغلال الطبقات الشعبية، مما صنع فجوة مع النظام، بينما في الحالة اليابانية كانت اللحمة الوطنية (الناتجة عن حالة التجانس القومي واللغوي والإثني) والتمثيل الثقافي الواحد، والاندماج ما بين سلطة الميجي والمجتمع التي جسدها شعار "اليابان أولاً"، والإمبراطور رمز لجميع اليابانيين، وحمايته كرامة للأمة اليابانية. إلخ، شكلت في مجملها مقوما أساسيا وراء قوة التماسك الاجتماعي في مواجهة مختلف التحديات، وهو ما فشلت فيه مصر لتباعد السلطة فكريا وثقافيا وأثنياً عن نظيرتها الوطنية المصرية، فبدت اللحمة غير متماسكة.

ولذلك نجد **لشارل عيساوي** مثلا، وهو من أبرز المؤرخين العرب المتخصصين في التاريخ الاقتصادي العربي الحديث، عبارة مشهورة يقول فيها: "إنه لو كان قدر لمصر أن تحكم في ذلك الوقت على يد حكومة وطنية ومستنيرة لكانت قد بزغت في القرن العشرين كصورة مصغرة لليابان".

وبالنتيجة حصلت المفارقة دولة انطلقت في التنمية وهي اليابان فيما الدولة الأخرى وهي مصر تعثرت تجربتها ووقعت فريسة للاحتلال الذي انقض عليها يأكل ثمار التجربة التحديثية الوليدة ويتوغل فيها ثم يفتت إمبراطوريتها الإفريقية التي كانت تشمل تقريبا معظم دول حوض النيل، وما تلاه من فصل آخر جزء من التكوينة الجغرافية للدولة المصرية في العصر الملكي، فانفصلت السودان عقب ثورة يوليو العسكرية في 1953، وتقوقعت مصر في مساحة المليون متر مربع.



• أشرفتَ مؤخرا على إصدار كتاب جماعي حول "جدلية الموضوعية والذاتية في كتابة تاريخ مصر"، ولا شك أنكم تطرقتم إلى العلاقة القائمة بين التاريخ وحركة التحرر الوطني التي استحضرت الماضي في خطابها السياسي من أجل الفصل بين القومية المصرية (الوطنية) والقومية البريطانية (الاستعمارية). هل كان لهذه المقاربة النضالية أو الأيديولوجية للتاريخ آثار سلبية على البحث التاريخي ودراسته بموضوعية في الماضي والحاضر؟

•••

•• في البداية أحب أشير إلى أن كتاب "جدلية الموضوعية والذاتية في كتابة تاريخ مصر" قمت بتحريره في عام 2012، احتفالا وتكريما لأستاذة مصرية فاضلة هي الدكتورة **نللي حنا**، وهي من أكبر المتخصصين في دراسة تاريخ مصر في العصر العثماني، ولها مشروع فكري كبير أنجزته عبر دراسات عديدة وعبر رعايتها العلمية لجيل من الشباب، وذلك من خلال مؤسسة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ولذا قمت بإعداد هذا الكتاب تكريما لدورها الكبير والمتميز.

ولما كانت نللي حنا من أكثر الأساتذة الذين تصدوا لنقد ومراجعة نظرية المركزية الأوروبية ونظريات أخرى المركز والأطراف والتقليد والتحديث ...إلخ ، في الكتابات المتعلقة بتاريخ مصر خلال الحقبة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، فقد لامست كتابات المحتفين بها بعض أبعاد هذه المسألة الحيوية في نقد منهجيات الكتابة التاريخية حول تاريخ مصر في الحقبة الحديثة والمعاصرة.

لكن بشكل عام لم يكن للكتاب علاقة مباشرة بشأن المقاربات الأيديولوجية المتعلقة بالتاريخ القومي وتأثيرها على مسار الكتابة ومدى الالتزام والموضوعية. لكن دعني أقول لك إن الكتابة التاريخية لطالما عانت من الأفكار التي تؤسس لأيديولوجيات يجري استخدامها وتوظيفها في الكتابة التاريخية، من أجل الترويج لنظرية ما أو توظيفها في خدمة توجهات قوى معينة لها مصالح خاصة. وبداهة التاريخ لا يكتب في سياق إيديولوجي وإلا انحرف عن جدة الدراسة وفقد أهميته من الناحية العلمية. وحتى النظريات التي نستخدمها كأدوات معرفية في التحليل وبناء التفسيرات المختلفة هي مهمة لكن عند حدود استخدامها كأداة للتحليل المعرفي وليس لصب تاريخ المجتمع وقولبته في سياق نظرية بعينها.

> لابد من التفرقة بين الاستفادة من النظريات كأدوات مساعدة لبناء أفق لقضايا ندرسها، وبين اتباع الأسلوب الانتقائي المساير للإطار النظري واستبعاد ما يناقضها.

ومعروف أن المدارس الفكرية المختلفة في سائر العلوم الإنسانية تقدم أطروحات نظرية توسع أفق المؤرخ في التعامل مع القضايا التاريخية التي يدرسها لكن ليس على حساب ليّ عنق الحقائق والوقائع لكي تمضي مع المسار الذي ترسمه حدود النظرية، وهذه المسألة ننبه كثيرا طلابنا في الدراسات العليا إلى ضرورة الأخذ بالاعتبار التفرقة بين الاستفادة من النظريات كأدوات مساعدة لبناء أفق لقضايا ندرسها، وبين اتباع الأسلوب الانتقائي المساير للإطار النظري واستبعاد ما يناقضها.

الكتابة التاريخية ليست في خدمة النظرية، إنما العكس هو الصحيح، يجري اختبار الأطر النظرية واختيار الملائم منها مع كل حالة ندرسها في التاريخ، ويفضل أن يوظف المؤرخ مداخل نظرية متعددة في الدراسة الواحدة، طالما أن مسار التحليل التاريخي يتطلب هذه الممارسة.

في مسألة التاريخ القومي، لها خطورتها كذلك لأن كتابة التاريخ من أجل التمجيد للذات الوطنية يؤدي حتماً إلى حجب أضواء وإبراز أخرى بحسب توجهات ومصالح كل نظام سياسي قائم في السلطة، وحين ينزع عن السلطة بانقلاب أو ثورة أو في أعقاب حرب وهزيمة مدوية ..إلخ تتغير التوجهات ويعاد توزيع الأضواء من جديد: خذ مثلا النظام الملكي في مصر، على عهدي كل من **الملك فؤاد** و**الملك فاروق** اهتما بكتابة تاريخ مصر؛ بقصد تمجيد السلالة الملكية لأسرة محمد علي باشا وإظهار دوره في بناء الدولة الحديثة في مصر.

• وهل تغير مسار الدراسات التاريخية واهتمامات المؤرخين مع قيام الثورة المصرية وحكم الضباط الأحرار؟

•• لما جاءت الثورة في عام 1952 بقيادة الضباط الأحرار، ألغى النظام الملكي وأحل عوضا عنه النظام الجمهوري، وتبنت قيادة الثورة توجها معيناً اعتبر بمقتضاه الحكم الملكي نظاما إقطاعيا وفاسدا، وتمت إعادة كتابة تاريخ هذه الحقبة منزوع عنها الأضواء، وركز نظام ثورة يوليو عوضا عن ذلك على الفترات المجيدة في التاريخ المصري العام والتاريخ العربي ككل، وأعطى للشخصيات النضالية مساحة كبيرة من الذاكرة التاريخية **كصلاح الدين الأيوبي** و**الظاهر بيبرس** و**محمد كريم** و**عمر مكرم** و**أحمد عرابي** و**مصطفى كامل** و**سعد زغلول** ...إلخ.

كذلك الحال خلال ثورات الربيع العربي حين وصل الإخوان إلى سدة الحكم في 2013 حذفوا عصر **مبارك** من كتاب مقرر التاريخ الذي يدرس في الثانوية العامة، وأحلوا محله **ثورة 25 يناير** وقيادتهم لها وكيف أوقفوا حقبة حكم العسكر ...إلخ . هذه المتأرجحات التي تلون كتابة التاريخ القومي بحسب أيديولوجيا النظام السياسي القائم وبحسب ثقافة وزمان إنتاجيتها ومن يملك السلطة، وجميعها متغيرات مع الزمن، وما يعني غياب الرؤية واستمرارية التشويه والتزييف، وهو ما لا يزال يشكل جزءا من مناخ أزمة الكتابة التاريخية في عالمنا العربي، وهي أزمة ناجمة في جزء مهم من أسبابها عن غياب مناخ الحريات وكفالة حرية الرأي والتعبير والنقد البناء بما في ذلك في الجوانب المتعلقة بتاريخنا القومي.

• ألا توجد أسباب أخرى لهذه الأزمة بعيدا عن الأنظمة السياسية وتعاطيها مع التاريخ القومي؟

•• هناك أسباب أخرى للأزمة، نجمت عن ميراث الحقبة الاستعمارية في كتابتها لتاريخ المستعمرات (وهو ما يعرف بميراث التاريخ الكولونيالي) نجد القوى الاستعمارية القديمة قد أعادت صياغة الأحداث من منظور كولونيالي يخدم أو يبرر لقوى الاحتلال مسارات تجاربها الاستعمارية، فيجمل صورتها القبيحة، ويبرز لها كما هو معروف إنجازات مبالغ فيها، تجرى ما يعرف اصطلاحا "بالاستلاب الثقافي والفكري"، بحيث تجد العقل العربي يردد مقولات تاريخية من هذا الميراث الكولونيالي دون فحص لها.

ومع تكرارها تكتسب توهما بطابع الحقيقة لتتحول إلى ما يشبه المسلمات التاريخية: فلا تزال مثلا بدايات التاريخ الحديث في العالم العربي مرتبطة بوصول الغرب، في المشرق العربي يؤرخون بالحملة الفرنسية بقيادة **بونابرت** (1798 – 1801)، وفي دول الخليج يتخذون من وصول الغرب أيضا ممثلا في البرتغاليين نقطة بداية للتاريخ

> العقل العربي يردد مقولات تاريخية من الميراث الكولونيالي دون فحص لها.

الحديث. وهذا بالطبع نتيجة نجاح المدارس الفكرية الغربية في الترويج لمنهجيات مؤدلجة حول ما يعرف بالمركزية الأوروبية والتي تتخذ مسميات عديدة: عبء الرجل الأبيض / التحديث والتغريب / المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث / المجتمع الصناعي والمجتمعات الإقطاعية المتخلفة ...إلخ.

وبالرغم من وجود دراسات عديدة ناقشت هذه الأطروحات الفكرية وقدمت مناقشات علمية وموضوعية جادة أظهرت عدم صحة هذه التوجهات الغربية في تفسير تاريخنا القومي وتاريخنا العام، إلا أننا مع ذلك لا نزال نعاني من تراكمات الميراث الكولونيالي في الكتابة التاريخية العربية، وأظن ذلك سيحتاج إلى جهود مشتركة بين المؤرخين العرب عبر منتديات أو مؤتمرات متخصصة أو مشروعات علمية ترعاها مؤسسات أكاديمية لإنتاج دراسات جادة تناقش هذه القضية في كامل أبعادها كجزء من عملية تحرير تاريخنا العربي العام.

♦ كثيرا ما نبهتَ في كتاباتك إلى أهمية المنهجية في البحث التاريخي، وكان آخر ما قرأته لك في هذا المجال، هذه المقولة العميقة التي أرجو أن توضّحها أكثر للقارئ: "لا تنطلق كتابة التاريخ من تقصي أحداث مبهمة ومتنافرة وعرضية إنما من استعادة فكرية تحوّلها إلى عملية قابلة للفهم والتفسير".

♦♦ هذا السؤال يتعلق بتكوين المؤرخ ومدى وعيه بدوره في مرحلة الكتابة، وهنا يتعين الإشارة إلى أننا لدينا نوعين من المؤرخين بشكل عام: هناك "**المؤرخ الجمعي**" وهناك "**المؤرخ الإشكالي**"، الأول (المؤرخ الجمعي) تجده يولي اهتمامه الأكبر برصد وجمع وتقديم المادة الأولية فيما هو يتوارى خلفها، ولا يظهر له من أثر سوى في وضع ترتيب كورنولوجي للحوادث والوقائع وما يرتبط بذلك من توثيق للإحالات.. إلخ.

مثل هذه النمطية الوضعية التي كانوا يبررونها بالحرص على الموضوعية والتزام الحيادية، وجعل التاريخ يعبر عن نفسه بنفسه دونما تدخل من المؤرخ، فتكون النتيجة أننا أمام نوعية من الكتابة تخلو من أي أفق، ويغيب عنها رؤية الكاتب وتساؤلاته، ويصبح رهان الكتابة في هذه الحال على رصد الكم من التفاصيل.

ومن شأن هذا أن يجعلنا أمام معالجة عقيمة لا تنتج فكرا ولا تفسيرا ولا تطرح مناقشات، جراء حالة التخمة المعلوماتية التي تفتقد إلى البناء المترابط. وبالمحصلة تتحول المعالجة إلى رص معلوماتي مليء بالمتناقضات والثغرات والمقولات المبهمة والمتنافرة نتيجة عجزه عن ربطها بسياق يسمح بفهمها وتحليلها.

في حين "**المؤرخ الإشكالي**"، تشغله قضية التفسير في الأساس، والتي لا يمكن إنتاجها من دون مساءلة الماضي والتعامل مع مخلفاته الوثائقية بصورة عقلانية تقبل طرح سيل من التساؤلات عليها، فنحن لسنا حراساً للنصوص ولا مقدسين لها، فقراءة تأملية في ضوء سؤال جديد مبتكر بإمكانها أن تفجر مخزون النص الوثائقي وتعيد اكتشافه وتفسيره بطريقة مغايرة.

وفى النهاية المؤرخ الإشكالي معني بتقديم قراءة حفرية لبنية النصوص وكشف دلالتها الرمزية ومعانيها وربطها بسياقها التاريخي، كما أنه معني بمتابعة الأفكار والنظريات التي تنتجها الحقول المعرفية المتداخلة مع التاريخ كالأنثروبولوجيا والاجتماع والفلسفة واللغة والأدب، إنها أدواته المعرفية الضرورية التي يمكن لها أن تساعده في بناء عمله وفي تعميق رؤيته وصولا إلى إنتاج تفسير جديد للظاهرة التي يدرسها، وهذه مسألة لم تعد ترفيه وإنما باتت تشكل عدة المؤرخ الأساسية، والكتابة التاريخية في كلمة مركزة مجال للفكر والتأمل قبل أن تكون مادة صماء يتم رصدها من الأرشيفات المتخصصة، والمؤرخ المبدع هو أساس إنتاج المعرفة التاريخية.

♦ لقد طرحتَ إشكالية في غاية الأهمية، وهي تتمثل في "استيراد المفاهيم والمصطلحات وتمثلها كأطر دون اختبار مدى ملاءمتها لتجاربنا"، وأكدتَ بأن هذه المقاربة "تشويه في المعالجة وإفلاس في محصلة النتائج". لماذا لا يزال الفكر العربي عالة على العقل الغربي، ويبقى المفكر العربي عاجزا عن الإبداع في مجال العلوم الاجتماعية بالقدر الذي يحرره من الفكر الغربي؟

♦♦ بداية أنا لا أميل إلى استخدام مقولة "الفكر العربي عالة على الفكر الغربي" ففي هذا تعميم صارخ فضلا عن أنه محبط لنا ولشبابنا، صحيح أن الأكاديميات الغربية متفوقة ومبرزة علينا في مجالي المنهجيات والفكر الفلسفي، لكنني أفضل مع ذلك وصف ما نحن فيه بأنه "**أزمة**" يمكن وصفها إن شئت "**بأزمة فكرية ومنهجية**" كبيرة، تعبر عن وضعية مؤقتة لابد لها من أن تعالج يوما ما، إنها حالة ماثلة لكن يتوقع أن تكون لها مدى معين مهما طالت.

هذه الأزمة لها مسببات وظروف معقدة، متى حددنا هذه المسببات وحللنا الظروف المعقدة ونشرنا الوعي بخطورتها ودربنا شبابنا عليها عبر مختبرات متخصصة، وقتها سنتمكن من إحراز تغيير في حالتنا الراهنة، ولن يظل العقل العربي يقتات على أفكار ومخرجات العقل الغربي أو حتى غير الغربي.

ولا أريد الخوض في تشريح مسببات تلك الأزمة لأنها تحتاج إلى نقاشات موسعة، قد يضيق الحوار عن تناولها الآن، لكن سأكتفي بالقول إن من بين أخطر مسبباتها الفهم الخاطئ لوظيفة التاريخ، وضعف الاهتمام عندنا بتكوين المؤرخ وتنمية خبرته عبر تسليحه بالأدوات اللازمة للتعامل مع المادة الأولية باحترافية ومهارة فكرية، لا تجعله مجرد ناقل لمحتوى النص التاريخي وإنما مناقشاً ومستكشفاً لعالم ما وراء النصوص، ومتحرراً في الوقت نفسه من موجهات النص الوثائقي.

كذلك غياب التعاون الأكاديمي بيننا وبين الدوائر الأجنبية خارج مجالنا العربي، بل حتى على مستوى التعاون العربي العربي، التعاون الفكري وتبادل الخبرات بين المدارس الفكرية العربية تتم في نطاق محدود للغاية، وليس خافيا أن كثيرا من تعارفنا وتواصلنا في أحسن حالاته يتم عبر العلاقات الفردية لا المؤسسية! ◇♦



إعداد: هـ . ت

المسلمون في الصين:

هكذا يَحْيوْن في الجهة الأخرى من العالم..!

تنحصر إحداثيات الصين في خط الاستواء بين خطي عرض 18 درجة و54 درجة باتجاه الشمال، وبين خطي طول 73 درجة و135 درجة باتجاه الشرق، ولها حدود مع 14 دولة؛ حيث تحدها من الركن الجنوبي الشرقي دول فيتنام، ولاوس، وميانمار "**بورما**"، ومن الركن الجنوبي دول (الهند، ونيبال، وباكستان)، ومن الجزء الأوسط أفغانستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان، وكازاخستان، ومن الركنين الشمالي والشرقي روسيا، ومنغوليا، وكوريا الشمالية، ولها حدود بحرية مع كل من كوريا الجنوبية، واليابان، وفيتنام، والفلبين...

لقد وصل الإسلام إلى الصين عن طريق محور الغرب، وتمثل في فتح تركستان الشرقية في العصر الأموي، في منطقة "**كاشغر**"، فقبل أن ينتهي القرن الهجري الأول وصلت غزوات **قتيبة بن مسلم الباهلي** الحدود الغربية للصين، وعلى الرغم من أن الفتوحات الإسلامية لم تتوغل في أرض الصين، إلا أن طريق القوافل بين غرب آسيا والصين كان له أثره في انتشار الإسلام عن طريق التجار في غربي الصين...

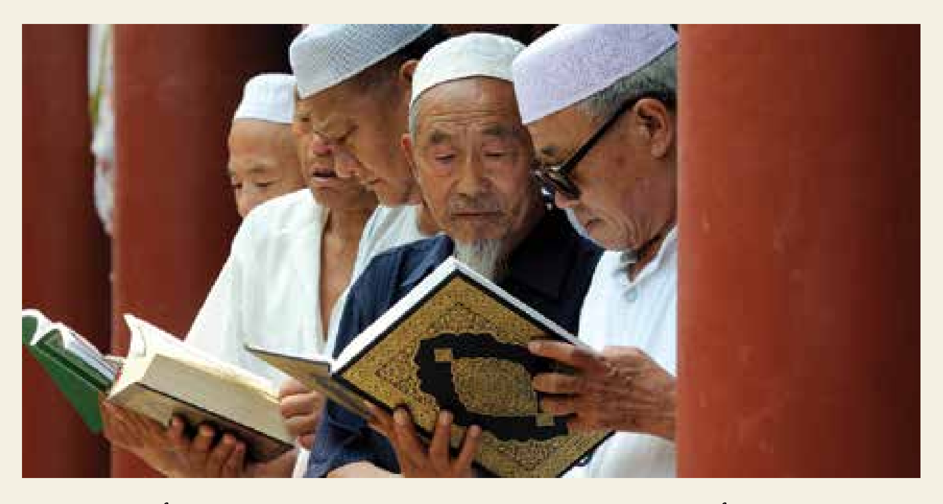
ويمكن القول إن بدايات دخول الإسلام إلى الصين كانت في نهاية عصر الخلفاء الراشدين، في عهد **عثمان بن عفان** –رضي اللّه عنه– ، ثم تواصل انتشاره عبر البعثات الإسلامية الدبلوماسية والتجارية إليها. لقد اندمج المسلمون في المجتمع الصيني منذ عهد المغول، ولكنهم حافظوا على تقاليدهم الإسلامية، واكتسب الإسلام أتباعا جددا بالمصاهرة بين الأسر من أصل عربي أو فارسي وبين الأسر الصينية، وقد حافظ العرب على نسبهم وتميزوا عن غيرهم باسم "**ما**" وهو يعني الخيل أو الحصان باللغة الصينية وذلك لشهرتهم بركوب الخيل وتوريد الفصائل العربية النادرة للصين...

يتراوح عدد المسلمين في كل من الصين وتركستان الشرقية معا ما بين **(24 مليون نسمة)** وهي الإحصائية الرسمية للحكومة الصينية، وإن كانت إحصائيات أخرى غير رسمية تشير إلى أن عدد المسلمين قد يصل إلى **100 مليون نسمة**...

أكبر قومية من قوميات المسلمين في الصين هي قومية "**الأويغور**"، وتوجد تسع قوميات أخرى تدين بالإسلام وهي:

- **القازاق**: ويتمركزون في منطقة شينج يانغ. تقول السلطات إنهم أكثر من مليون وربع المليون نسمة منهم أكثر من مليون في تركستان الشرقية.
- **الأوزبك والطاجيك**: من ذوي الأصول البدوية واللغة الأزبكية.
- **التتار**: وهم من اجتازوا حدود تتارستان الحالية والقبائل التركية في السابق.
- **هوي**: والممثلة في العرب والفرس القدماء الوافدين مع الفتح الإسلامي للصين، وهم منتشرون في شينج يانغ ومقاطعات خبى وخنان وشاندونج وإقليم منغوليا ذي الحكم الذاتي.
- **قومية سالار**: وتستوطن محافظة شيونهوا ذاتية الحكم ولهم لغتهم الخاصة وهي السالار المنطوقة.
- **دونج شيانغ**: وتقطن مقاطعة قانسو، وهم من أصول منغولية ويعتبرون أول من اعتنق الإسلام من المنغول.
- **باوآن**: ويقطنون أيضا مقاطعة قانصو، وهم فرع من المنغول ولغتهم تنتمي إلى أرومة اللغة المغولية.
- **القيرغيز**: من أصول تركية جاؤوا من قرقيزستان. وللقرقيز في الصين ولاية ذات حكم ذاتي في إطار منطقة كيسنجيانغ.

أما فيما يخص سياسة الصين تجاه الأديان فتشير القوانين إلى أن جميع أعضاء الحزب الشيوعي الصيني الحاكم يعتقنون المذهب الماركسي-اللينيني ويعملون على نشره، ولجميع المواطنين الحق في الاعتقاد أو عدم الاعتقاد في أي دين، جميع الأديان يجب أن تكون متساوية وتعمل على تحقيق الوحدة للمجتمع الصيني، وجميع النشاطات الدينية تخضع لقوانين الدولة، كما يجب إبقاء الدين بعيدا عن السياسة والتعليم، رغم اعتماد هذه القوانين إلا أن تطبيقها يعرف تمييزا كبيرا خاصة حين يتعلق الأمر بالمسلمين.



وبعد إعلان الحكم الجمهوري (1329هـ-1911م) تحدد أن الأمة الصينية تتكون من خمسة عناصر يشكل المسلمون إحداها، وكان علم الجمهورية يتكون من خمسة ألوان، للمسلمين اللون الأبيض، وحين استولى الشيوعيون على حكم الصين في سنة (1369هـ-1949م) فقد هادنوا المسلمين في الصين أول الأمر، وذلك كجزاء لمساعدتهم ومعاناتهم أثناء الحرب الأهلية، وقد وزعت نشرات عن منح الحكم الذاتي للمسلمين في الصين ضمن 34 مقاطعة، ثم انقلبت الأوضاع فابتدأ الشيوعيون حكمهم بارتكاب مجازر ضد مسلمي الصين راح ضحيتها آلاف المسلمين.

ولقد فُرض على المسلمين في الصين نظام الزواج المختلط، ونظام الكميونات، ونظام المعيشة المشتركة وصودرت أملاك الأوقاف الإسلامية، وقضي على مرتبات الوعاظ والمدرسين، فاضطروا للعمل داخل الكميونات، وقاوم المسلمون في ولايات جانصو، وتسنغاي، والتركستان الشرقية، والتبت، فقبض الشيوعيون على زعماء المسلمين وأودعوهم السجن وأحرقت الكتب الإسلامية وأغلقت المساجد، وهدم الكثير منها، كما أغلقت المدارس، وشُرد علماء الدين وفر العديد منهم إلى الخارج. وألغى الشيوعيون الكتابة بالعربية التي كان المسلمون يستخدمونها لمدة ألف عام، وأتلفوا 730 ألف كتاب بالعربية، بما في ذلك نسخ تاريخية من القرآن الكريم.

ومن بين جميع العرقيات في الصين تتعرض عرقية **"الأويغور"** لقوانين قاسية من الحكومة الصينية، وتشمل هذه المضايقات معتقداتهم وحتى حياتهم اليومية. وترجع قسوة الحكومة على هذه الأقلية بسبب حركات التحرر المطالبة بالإستقلال، حيث لجأت الحكومة الصينية إلى تضييق الخناق على سكان هذا الإقليم ووضعهم تحت رقابة دائمة ومنع أي نشاطات أو مظاهر دينية.

إن مسلمي **"الأويغور"** يعانون من اضطهاد منظم ضدهم. ففي عام 1949 ضمّ ماو تركستان الشرقية – التي كانت مستقلة فيما قبل- إلى حكمه، مثلما فعل مع إقليم التيبت. ومنذ 1955 أصبح الإقليم – الذي يعادل أوروبا الغربية في مساحته – يعرف باسم **سينكيانج**. هذا الإقليم يتمتع -مثله مثل التيبت- بالاستقلالية، إلا أن ذلك ليس إلا حبرا على ورق، وواقع **"الأويغور"** المقيمين هناك والبالغ عددهم ثمانية ملايين يختلف عن ذلك.

وتقوم الصين بالتمييز دينيًّا على أساس عِرقي في تعاملها مع المسلمين، لاسيما مع أقلية **"الأويغور"**، وترى ضرورة تقديم الهوية الصينية على الهوية الدينية الخاصة بالأقليات، بينما يعتبر **"الأويغور"** أنفسهم في حالة دفاع عن حقوقهم الإنسانية والسياسية... يقول السيد/ **أولرش دليوس**، أحد أعضاء (**الجمعية العالمية للدفاع عن الشعوب المهددة**) بمدينة جوتنجن، كما جاء في بعض مواقع الإعلام: "لا توجد في جمهورية الصين الشعبية مجموعة عرقية مضطهدة ومحرومة لهذا الحد مثل الأويغور"...

ويتم توطين الصينيين من قومية **"الهان"** في منطقة سينكيانج بطريقة منظمة، حيث يُقال: إن ألفا منهم يصلون يوميا إلى هناك. وبينما كان الأويغور يمثلون في السابق 93 في المائة من تعداد السكان أصبحوا اليوم 47 في المائة فقط. وبحسب جمعية (**اتحاد تركستان الشرقية في أوروبا**) تجرى عمليات قسرية لمنع النساء الأويغوريات من الحمل. و**منظمة العفو الدولية** تقول: "إن المساجد تُغلق بطريقة تعسفية ويُمنع الاحتفال بالأعياد الدينية وممارسة اللغة المحلية في المدارس".



هناك الكثير من الممارسات المؤلمة ضد مسلمي الصين تتم بشكل يومي لكن صعوبة الحصول على معلومات عن هذه الأحداث يشكل تحديا كبيرا ويرجع ذلك إلى المتابعات والقرارات الصارمة التي تفرضها السلطات الصينية على وسائل الإعلام العالمية ◇◆



من الاستشراق إلى الاستغراب

لقد ظهرت أصوات مبكرة من داخل الفكر العربي الإسلامي تدعو إلى الانتقال من الاستشراق إلى الاستغراب، والرد على مطاعن المستشرقين في القرآن والسنة والتراث بتوظيف أدواتهم البحثية في دراسة الحضارة الغربية، وتطبيق منهجهم العلمي على الفكر الغربي. ونذكر هنا على سبيل المثال الدكتور مصطفى السباعي الذي كان واضحا في ذلك إذ كتب في عام 1960: "سيأتي يوم ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين وننقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة، وسيأتي اليوم الذي يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغربيون في نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة وعلوم، فإذا هي أشد تهافتا، وأكثر ضعفا، مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا... كثيرا ما أتمنى أن يتفرغ منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة وتاريخ علمائها بنفس الأسلوب الذي يكتب به المستشرقون".

ولقد جاء من بعده من يدعو إلى تأسيس علم الاستغراب لهدف آخر وهو التعمق في دراسة الغرب ليس من أجل الانتقام منه على ما ألحق بالقرآن والسنّة والتراث من شبهات ومطاعن، وإنما للاستفادة من إنجازاته المختلفة التي لا تتعارض مع خصوصياتنا الحضارية، ونحن نسير قدما في طريق التقدم. ولقد وردت هذه الأفكار في أعمال السيد محمد الشاهد، وحسن حنفي، ومازن مطبقاني، وعلي إبراهيم النملة، وغيرهم. وسار الدكتور مولود عويمر في هذا المسلك في كتابه "مقاربات في الاستشراق والاستغراب".

ولا شك أن مسيرة الانتقال من الاستشراق إلى الاستغراب تحتاج إلى مضاعفة الجهود المختلفة، وتشجيع الطاقات البشرية من العلماء والباحثين المختصين، وتوفير الدعم المالي لتأسيس مراكز البحث، ووسائل الطبع، والنشر والتبليغ.

هيئة التحرير



أ.د. جمال الدين الكيلاني
باحث أكاديمي/ العراق

مفهوم الاستشراق قراءة ثانية

لقد تباين مفهوم الاستشراق واختلف بين المستشرقين الذين لهم باع طويل في هذا الحقل المعرفي، وبين المفكرين العرب الذين أبدوا اهتماماً واسعاً بالاستشراق خاصة بعد صدور كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" بطبعته العربية عام 1981، وإن كان اهتمام الباحثين العرب بالاستشراق لا يعود في بداياته إلى كتاب إدوارد سعيد وإنما سبق ذلك مقالة أنور عبد الملك "الاستشراق في أزمة"، والتي نشرت في مجلة ديوجين عام 1963، ومن ثم في "الجدلية الاجتماعية" في باريس عام 1971 ثم في مجلة "الفكر العربي" عام 1983.

ودائماً قُدِّمَ الاستشراق، وهنا لم يتم الحديث إلا عن الاستشراق الأوروبي الغربي، على أنه إنتاج النظرة الأوروبية العنصرية تجاه الشرق، هذه النظرة التي تفترض حق الهيمنة والسيطرة على الشرق بداعي التفوق الأوروبي في الوقت الذي كان يعاني فيه من العجز نتيجة الاستعمار الأوروبي الغربي له، فقام المستعمِر بتوصيف المستعمَر وإنشائه حسب ما يحلو له ويخدم مصالحه، وكرس هذا الوصف في وعي الإنسان الأوروبي الغربي لأجيال عديدة.

يرى **إدوارد سعيد** الاستشراق أنه "أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق (وفي معظم الأحيان) و(الغرب) وبإيجاز، الاستشراق، كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه".

ويعزو **أنور عبد الملك** ازدهار الدراسات الشرقية إلى ارتباطها بالاستعمار الأوروبي وسيطرته على بلدان الشرق الأقصى والعالم العربي فيقول: "إن الازدهار الحقيقي للدراسات الشرقية في القطاعين الرئيسيين اللذين هما الشرق الأقصى والعالم العربي يعود تاريخه بالدرجة الأولى إلى عصر التمركز الاستعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبية على "القارات المنسية" في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير".

أما المستشرقون أنفسهم، فيرون أن الاستشراق تم بدافع الفضول المعرفي للشعوب الأخرى، فيرى **مكسيم رودنسون** أن الاستشراق كان يعبر عن الرغبة "في توسيع الفلسفة الإنسية (هيومانيزم) لعصر النهضة، ففي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أرادوا أن يضيفوا إلى الحضارات النموذجية الكلاسيكية التي تستلهمها أوروبا حضارات أخرى".

وهكذا أضافوا نماذج من الحضارات الشرقية، ولما أرادوا التوصل إلى معرفة تلك الحضارات معرفة علمية، نما الاستشراق وازدهر، ولكن إرادة المعرفة العلمية هذه بالحضارات الشرقية تمت عندما استطاع الغرب أن يغدو أقوى من الشرق، وبالتالي أصبح هذا الأخير موضوعاً مدروساً والغرب ذاتاً دارسة بعد أن أدرك الغرب تفوقه واختلفت العلاقات بين الشرق والغرب عما كانت عليه عندما كان الشرق مزدهراً والغرب يعاني من الضعف والانحطاط. وبالتالي فإن الاستشراق الغربي، ارتبط بالمشروع الاستعماري الفرنسي البريطاني، والذي أصبح الاستشراق وجهه الثقافي.

وعادة يؤرخ لهذا الاستشراق منذ القرن التاسع عشر، وعلى أبعد حد نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، لذلك نرى أن مصطلح (استشراق) ظهر لأول مرة في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1938، وظهرت كلمة مستشرق باللغة الإنكليزية حوالي عام 1779م.

ومن منطلق الهيمنة والوصاية التي نشأ في ظلها الاستشراق، من حيث هو الوجه الثقافي للمشروع الأوروبي الغربي الاستعماري فإن مهمة المستشرق الأوروبي كانت تكمن في «حجب الخطابات الشرقية ذاتها وإحلال خطاباتهم محلها، فهي وحدها المكلفة بتقديم صورة عن الشرق».

وبعد أن أدى الاستشراق الأوروبي الغربي مهامه، فإن **مكسيم رودونسون** يقترح التخلي عن استخدام مصطلحي (**استشراق**) و(**مستشرقين**) بعد أن أصبحا أسطوريين، "ولذلك فسوف ندعوهما بالدراسات العالمة أو العلمية المتركزة حول تاريخ مجتمعات الشعوب المتموضعة شرقي أوروبا".

أما المستعرب الروسي **أغناطيوس كراتشكوفسكي** (1883 - 1951م)، مؤسس الاستعراب الروسي الجديد فيتخلى عن مصطلح الاستشراق منذ البداية، ويسمى (**الاستشراق الروسي**)، بـ (**الاستعراب الروسي**) فيقول: "العصر الجديد في تاريخ الاستعراب الروسي، يبدأ من المرسوم الجامعي سنة 1804 لأن هذا المرسوم أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات، وأما اللغات الشرقية في أوروبا الغربية في ذلك الزمان، فقد كانت المكانة الأولى بين اللغات السامية اللغة العبرية، أما عندنا في روسيا، فاللغات الشرقية في مفهوم الروس، كانت لغات الشرق الإسلامي، وشغلت اللغة العربية المكانة الأولى وقد أنشأ قسم اللغة العربية في جامعة خاركوف بعد صدور المرسوم في عام 1804 م مباشرة". هذا في حين أن **هاملتون جب**، العالم بالدراسات العربية الإسلامية المعروف،كان يفضّل أن يسميّ نفسه "**مستشرقاً**" على أن يسميّ نفسه "**مستعرباً**".

وجغرافياً كان الشرق يمتد ليشمل، الهند، وجزر الهند الشرقية، والصين واليابان، وكل ما يقع شرق الخط الذي يقسم العالم جغرافياً إلى قسمين شرق وغرب، ولكن في النهاية، كان يتم الحديث دائماً في الاستشراق عن الشرق العربي المسلم الذي كان موضوع دراسة المستشرقين.

وهذا هو الشرق الذي يعنينا في هذه الدراسة، وبالتالي، فإنه يصح لدينا استخدام مصطلح (**الاستعراب**)، لهذا الحقل من الدراسات التي تناولت الشرق العربي الإسلامي وتصح تسمية (**المستعربين**) الذين درسوا الشرق العربي الإسلامي من النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية، لأن (**المستشرقين**) كافة في نهاية المطاف، قد اختزلوا الشرق بالعرب المسلمين الذين شكلت حضارتهم تحدياً وتهديداً للغرب الأوروبي الذي يُؤرخ لبدء الاستعراب الرسمي فيه بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م، والقاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية للغات (العربية واليونانية والعبرية والسريانية) في جامعات (باريس وأكسفورد وبولونيا وأفنيون وسلامنكا) أي أن الاستعراب كان رسمياً بقرار كنسي، ومن أعلى سلطة دينية مسيحية في الغرب، وقد كان ذلك بعد الحروب الصليبية.

كما نرى أن اللغات التي تقرر تدريسها، هي لغات الكتب السماوية الثلاث، إضافة إلى لغة الحضارة اليونانية التي تعتبر أوروبا نفسها الوارث الشرعي لها. ولكن تنفيذ هذا القرار عملياً، لم يتم إلا بعد قرن من الزمان تقريباً "إذ لم تتوفر العناصر البشرية المنفذة، كما لم يتوفر المال اللازم لتحقيق الحلم".

فحتى عام 1453م لم يكن هناك مسيحي أوروبي واحد يعرف اللغة العربية. إنّ دراسة الشرق العربي المسلم، جاءت بقرار كنسي، ونتيجة من نتائج الحروب الصليبية، التي كانت أيضاً بقرار ديني ولئن كانت دوافع الدراسات العربية الإسلامية، في حقيقتها دوافع استعمارية، فإن هذه الدوافع انبثقت من رحم الحروب الصليبية، التي كانت أول تجربة استعمارية خاضتها أوروبا خارج حدودها، حيث أسقط الغرب الأوروبي ضعفه على الشرق العربي الإسلامي، وحاول إيجاد حل لمشاكله المتفاقمة دينياً واجتماعياً واقتصادياً في هذه الحروب التي اجتاحت جيوشها الشرق العربي المسلم، فبعد أن تفشى الفساد في الكنيسة والمجتمع، رأى **البابا أربان الثاني** (1088 - 1099م)، أن من الضروري القيام بمغامرة مثيرة تضع العالم المسيحي بأجمعه أمام عمل وهدف مشترك.

وكان خطابه في المجمع الكنسي في كليرمونت والذي دعاه لجلسة استثنائية في تشرين الثاني 1095م، تعبيراً صريحاً عن الواقع المتصدع الذي يعيشه الغرب المسيحي، والرغبة الواضحة في وضع هذا الغرب أمام هدف عام واحد، فقد قال في خطابه أمام المجمع المذكور: "انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد إخوانكم، ووجهوها ضد أعدائكم، أعداء المسيحية، إنكم تظلمون اليتامى والأرامل، وأنتم تتورطون في القتل والاغتصاب، وتنهبون الشعب في الطرق العامة، وتقبلون الرشاوى لقتل إخوانكم المسيحيين، وتريقون دماءهم، دونما خوف أو وجل أو خجل، فأنتم كالطيور الجوارح آكلة الجيف، التي تنجذب لرائحة الجيف الإنسانية النتنة، ضحايا جشعكم، انهضوا إذن، ولا تقاتلوا إخوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس، حاربوا تحت راية المسيح، قائدكم الوحيد، افتدوا أنفسكم، أنتم المذنبون المقترفون أحط أنواع الآثام وهذه مشيئة اللّه".

و**أربان الثاني** هو خليفة **البابا غريغوريوس السابع** اليهودي الأصل، والذي هو صاحب فكرة الحملة الصليبية لتحرير القدس، والتي حدد فيما بعد البابا أربان الثاني موعدها يوم(15 آب 1096)، والنص السابق يعكس لنا مدى التفسخ الذي أصاب المجتمع الأوروبي والذي جعل من المسيح محارباً.

لقد كانت الحروب الصليبية حلاً للمشاكل التي عانت منها الكنيسة الغربية، في صراع البابا غريغوريوس السادس، والبابا غريغوريوس السابع مع الإمبراطورين **هنري الثالث** و**هنري الرابع** في ألمانيا وما تبع ذلك من نزاع وقتال عانت منهما الكنيسة والمجتمع معاً إضافة للدافع الأساسي الآخر لهذه الحروب وهو "رغبة البابوية في إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها".

وذلك بعد الانشقاق الديني سنة 1054م، بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية، واستحكام النزاع بين الأباطرة البيزنطيين والبابوية في روما، يقول **أرنست باركر**:

"وكان من الطبيعي أن يضحى الاستيلاء على بيت المقدس هدفاً لتحقيق أطماع المسيحية الغربية، ومن الطبيعي أن تتعلق به الكنيسة وتحاول أن تسير به قدماً، وذلك لحرصها على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها".

إذن، تسيير الحملات الصليبية باتجاه الشرق العربي الإسلامي، تحت ستار ديني، كانت غايته عمليّاً، البحث عن حل لمشاكل المجتمع الغربي المسيحي، وكذلك، إقامة كنيسة عالمية، بإخضاع الكنيسة الشرقية لسلطة روما، من خلال إيجاد هدف عام مشترك هو قتال المسلمين وتحرير بيت المقدس، وبالتالي فإن الحروب الصليبية في دوافعها وكذلك في أدواتها كانت أوروبية غربية، إذ تشكلت معظم جيوش تلك الحروب من فرنسا وإيطاليا واسكتلندا وألمانيا، بينما نرى أن أوروبا الشرقية قد عانت من هذه الحملات وهي تجتاح أراضيها متجهة إلى الشرق الإسلامي، فعندما زحفت فرقها خلال سهول هنغاريا، كانت تعمل السلب والنهب والاغتصاب، غير مبالية بديانة أصحاب البلاد، لقد كانت هذه الحروب هي التجربة الاستعمارية الأولى، التي خاضها الغرب لتحقيق المكاسب الآنفة الذكر.

ومن هذه التجربة وهذه الحروب الاستعمارية انبثق الاستشراق الأوروبي الغربي، في الوقت الذي كانت فيه روسيا بعيدة عن هذه الحروب، وعن هذا السعي الاستعماري في الشرق العربي الإسلامي. لقد فوجئت الكنيسة الشرقية نفسها بهذا الزحف الغربي، إذ أن إمبراطور القسطنطينية (**الكسي كومينين**)، كان قد طلب إمدادات لمواجهة السلاجقة، ولكنه فوجئ بهذه الجيوش الجرارة، إذ أنه في الأساس لم تكن هناك مشكلة بين الكنيسة الشرقية والإسلام وكان الإسلام راعياً وحامياً للمسيحيين في دولة الإسلام، ولكن النزعة الأوروبية المركزية في السيطرة على الشرق العربي الإسلامي قد بدأت بالتشكل منذ ذلك الحين.

إن المركزية الأوروبية التي نما في حضنها الاستشراق الأوروبي الغربي بنيت على الفكرة الأساسية الصليبية، إذ سعت المسيحية الغربية إلى جعل نفسها مركز العالم، بإخضاع المسيحية الشرقية، وتوحيد الكنيستين ولو بالقوة، وبالتالي تحقيق عالمية الكنيسة، بإخضاع العالم كله لسلطة روما، يقول **ريتشارد سوذرن**: "نحن في الواقع جزء صغير من المسيحية في العالم، لكننا نزعم أن العالم كله مرغم على اتباع آرائنا، ونزعم أيضاً، أن هذا العالم يرتعد تحت وطأة توجيهاتنا".



لم تكن هناك مشكلة بين المسيحيين والمسلمين في دولة الإسلام، إذ كان "المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطة وكنيستها".

ولم تكن هناك مشكلة بين المسلمين والكنيسة الشرقية (**البيزنطيين**) في نفس الوقت، ولكن بعد الحروب الصليبية الأولى ميّز العرب المسلمون بين المسيحية الشرقية التي كانوا يتعاملون معها، ولم تكن لهم معها مشكلة، وبين المسيحية الغربية التي جاءت غازية بجيوش جرارة، وبعد أن أدركوا غاياتها، وأن المسيحية الشرقية ليست سوى تبرير للحملات الصليبية الغربية أصبحوا يطلقون اسم (**الفرنج**) على المسيحية الغربية، تمييزاً لها عن (**الروم**)، هذه التسمية التي كانت تطلق على المسيحية الشرقية المجاورة جغرافياً، لتعم جميع المسيحية.

غير أن الوضع اختلف بعد الحملات الصليبية، وأدرك العرب المسلمون، أن المشكلة ليست مع (**الروم**) المسيحية الشرقية، وإنما مع (**الإفرنج**) المسيحية الغربية، وسوف نرى أن المستعرب **كراتشكوفسكي** فيما بعد، قد استخدم هذه المصطلح (**الإفرنج**) في حديثه عن أوروبا الغربية.

إن معرفة الغرب للشرق العربي الإسلامي تمت بأوسع صورها من خلال الحملات الصليبية، وبالتالي فإن الاستعراب الأوروبي الغربي، كان نتيجة من نتائج هذه الحروب، ولذلك نرى أنه من الضروري التميز بين استعراب نشأ هذه النشأة الاستعمارية وبين استعراب لم يكن كذلك بالنسبة لروسيا وغيرها، حيث تختلف الدوافع والغايات، ولأن هذا التمييز هو الذي يحدد موقفنا من الاستعراب بجانبيه الشرقي والغربي خاصة وأن بعض المؤرخين يعتقدون بأن النزاع الذي كان موجوداً بين القوتين الأعظم الكتلة الشرقية والكتلة الغربية له جذوره العميقة في النزاع بين الكنيستين في القرن الحادي عشر.

وفي هذا القرن بدأ نشوء العالمين الشرقي والغربي "فلو نجحت الكنيسة اللاتينية في الإبقاء على كنيسة موحدة كاثوليكية حقيقية ومقبولة لدى الجميع، لكانت بلدان البلقان وروسيا الآن جزءاً من العالم الغربي فإن الانفصال بين روما والقسطنطينية لم يكن حدثاً محلياً، أو مجرد تاريخ من تواريخ الكنيسة، ولكنه كان حدثاً عالمياً هزَّ أركان العالم".

ونستطيع القول إن هدف الكنيسة الغربية، كان تحقيق عالمية العالم، ولو بالقوة من خلال الحروب الصليبية، ولعل العولمة الآن هي وجه آخر من وجوه هذا المشروع الموغل في القدم.

إن إنشاء الشرق في ذهن الغرب، كان من خلال النتاج الفكري الأدبي والتاريخي الذي أعقب هذه الحروب، والذي امتزج فيه الواقعي بالوصف التاريخي الأسطوري لهذه الحروب، وبالتالي من الطبيعي، أن الاستشراق الأوروبي الغربي الذي ضربت جذوره في هذا النتاج الفكري، أن يكون محشواً بالمغالطات التي كرست فكرة التمايز بين الشرق والغرب فيما بعد ◆◇

المراجع

- إدوارد سعيد. الإستشراق. بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981، ترجمة كمال أبو ديب.
- أرنست باركر. الحروب الصليبية. دار النهضة العربية، بيروت، 1997، ترجمة الباز العريني.
- أنور عبد الملك. الاستشراق في أزمة. مجلة الفكر العربي، العدد 31، 1983.
- ريتشارد سوذرن. صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى. المدار الإسلامي، بيروت، 2006، ترجمة رضوان السيد.
- سعيد عبد الفتاح عاشور. تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. دار النهضة العربية، بيروت، 2003.
- ول ديورانت. قصة الحضارة. دار الجيل، بيروت، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران.
- هاشم صالح. الاستشراق بين دعاته ومعارضيه. دار الساقي، لندن، 1998.



أ.د. **ناصر الدين سعيدوني**

باحث أكاديمي/ الجزائر

نظرة في قضية الاستشراق

لقد تناولت في مقالي موضوع الاستشراق من حيث خلفيته التاريخية التي ميزته والخصائص التي اتصف بها، قبل التعرض لموقفنا منه وتعاملنا مع إنتاجه، وهذا ما أحاول إجماله في النقاط التالية:

أ. الخلفية التاريخية للاستشراق:

إن الاستشراق في نظرنا ظاهرة ثقافية نتجت أساساً عن توسع آفاق المعرفة الأوروبية ومحاولة العقل الغربي فهم الآخر والتعامل معه أملاً في احتوائه وتوجيهه ثم الهيمنة عليه، وتعود منطلقات الاستشراق إلى اتصال الغرب بالمعرفة الإسلامية ومحاولة مثقفيه الاستفادة من هذه المعرفة عن طريق ترجمة الجانب العلمي التجريبي والنظري الفلسفي منها، منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقد توجت عملية الاقتباس هذه باكتساب الأوروبيين المناعة الحضارية التي كانت **الحركة الرشدية اللاتينية** (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) إحدى دلالاتها، فانفتح بذلك المجال أمام الذهنية الأوروبية لتحقق نهضة مبدعة في شتى شؤون الحياة مع نهاية العصر الوسيط (القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر الميلادي).

كان نتيجة هذا التيقظ تزايد اهتمام الأوروبيين بالعالم الإسلامي، هذا الاهتمام الذي تحول مع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، إلى مشروع استكشافي للبلاد العربية والإسلامية، وسائله علمية، وطابعه رومانسي، ومراميه استعمارية، وتعبيراته ثقافية. وهذا ما عبرت عنه أفكار بعض المستشرقين مثل **أرنست رينان** وتجاوبت معه نتائج بحوث العديد منهم مثل **واط**، الأمر الذي أثر سلباً على التجربة الاستشراقية في حد ذاتها، بل تسبب في رد فعل سلبي من بعض المثقفين المسلمين، وهذا ما جعل قضية الاستشراق تؤثر عليها

المفاهيم الإيديولوجية والميول العقائدية والقناعات الدينية والحضارية، وبذلك انفتح الباب لنقاش واسع أصبح فيه كل واحد يدلي بدلوه ليحكم ويقيم ولو بدون قراءة للمساهمة الاستشراقية أو معرفة نتائجها.

إن تطور البحث العلمي للجيل الثاني من المستشرقين (كتاب دائرة المعارف الإسلامية)، وتراكم التجربة الاستشراقية، وازدياد معرفة أوروبا بالعالم الإسلامي، كل ذلك غير نوعاً ما طبيعة الاستشراق وعدل من نظرة الكثير من المستشرقين لماضي الإسلام ولقضاياه الحضارية، بل أدى إلى تحول جذري في الحركة الاستشراقية، فأصبحت بمثابة المؤسسة الثقافية ذات الإطار العام والمواضيع الخاصة، وإن كانت من حيث ثقافة المستشرقين وجنسياتهم تصنف إلى عدة عائلات متميزة أهمها الفرنسية والإنكليزية والجرمانية والسلافية والأمريكية والإسبانية والإيطالية. وكل واحدة منها تضم مجموعة من الباحثين في تاريخ الإسلام وقضاياه الحضارية يغلب على جزء كبير منها الاعتدال في النظرة والنزاهة في الحكم، وإن كان لا يخلو بعضها من ضيق في الرؤية وذاتية في التقييم. والكل له تأثير على الواقع الثقافي بالبلاد الإسلامية وله امتداد في الحياة العلمية عن طريق مجموعتين من الباحثين أولاهما جماعة ما نطلق عليهم مصطلح (المستعربين) الذين ينتسبون إلى العالم الإسلامي بأصولهم ويرتبطون بالغرب بأفكارهم أمثال **ألبرت حوراني**، و**محمد خدوري**، و**محمد أركون**، و**رئيف خوري**، و**أنور عبد المالك**، و**إدوارد سعيد**، وغيرهم ممن كان له إسهاما في التعريف بالعالم الإسلامي، وثانيهما مجموعة من الخريجين العرب والمسلمين من الجامعات الغربية الذين هم أكثر تأهيلاً من غيرهم لفهم الإسهامات الاستشراقية والتفاعل معها إيجابياً بحكم تكوينهم وارتباطهم بالوسط الثقافي لبلدانهم ونظراً لدورهم المؤثر في المؤسسات العلمية بالبلاد العربية والإسلامية ولاحتكاكهم بالجيل الجديد الذي كونته هذه المؤسسات.

ب. مواصفات الإسهامات الاستشراقية:

إن إنتاج المستشرقين رغم ما يؤخذ على بعضه، وبغض النظر عما يحمله من تعدد الرؤى واختلاف وجهات النظر، فإنه يظل


ألبرت حوراني


أنور عبد المالك


محمد أركون

في نظرنا يتميز في مجمله بمواصفات من الضروري الإشارة إليها لأهميتها بالنسبة لكل متعامل مع هذا الإنتاج.

أولاهما: أن الإسهامات الاستشراقية **تنطلق من نظرة موسوعية للثقافة الإسلامية**، فهي تجمع بين مختلف العلوم الإنسانية، وترتبط بالعديد من المعارف الأدبية والدينية والفكرية، وتستند إلى زاد غني من اللغات والمهارات المساعدة على البحث، فهي تعيد إلى الذاكرة تقاليد السلف من العلماء المسلمين ذوي الإلمام الشامل والمعرفة الواسعة والاختصاص المتنوع، هذه التقاليد التي افتقدناها اليوم بفعل نوعية التعلم الجامعي عندنا الذي لم يعد يهتم بالثقافة المتعددة الجوانب بحجة عامل الوقت وطبيعة الاختصاص.

وثاني مواصفات الإسهامات الاستشراقية أيضاً هو **التزامها بالشروط الأكاديمية في البحث** التي تقوم على التعمق في تناول المواضيع. فالوجوه البارزة من المستشرقين لا تقنع عادة بمعالجة القضايا ظاهرياً وإنما تعمد إلى البحث عن دقائق المسائل مما يوصلهم إلى استنتاجات علمية تتعدى التعبير الأدبي إلى حصر الحقائق والتعرف على المعطيات والخروج منها بنتائج محددة وواضحة، وهذا ما فقدناه اليوم أيضاً في حياتنا العلمية وخاصة ما يتصل منها بمجال البحث المعمق وهو الرسائل الجامعية، بسبب التوسع في التعليم العالي وضعف التقاليد العلمية والضوابط المنهجية.

أما ثالث المواصفات التي يتصف بها الاستشراق فهي **توفر المبادرة الفردية وضمان حرية البحث** لا تعوقها الذاتية الثقافية أو الاعتبارات الأدبية أو إمكانيات العمل المادية، فالإسهامات الاستشراقية لا تخضع لقيود مجتمعاتها وعوائق ثقافتها، وهي تبحث في الآخر وهو العالم الإسلامي، وتريد أن تتعرف على واقعه وموقفه وتراثه ومكانته لدى المجتمعات العربية، بعيداً عن الاعتبارات الثقافية والسياسية. مما كرس الوسائل المادية، ووفر المحفزات الأدبية وضمن الارتباط بالمؤسسات العلمية وفي مقدمتها الجامعات الغربية التي ربطت مكانتها بمنزلة الباحث وقيمته في مجتمعه. وهذا عكس ظروف العمل السائدة في أغلب أقطار العالم الإسلامي حيث يضيق المجال الفكري إلى حد المجاملة، وتكاد تنحصر المبادرة العلمية إلى مستوى تلبية المتطلبات الآنية، فتحول بذلك المثقف إلى موظف خاضع للظروف المترتبة عن تلك الوظيفة، وهذا ما عمق أزمة الثقافة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم، والتي ترجع في أساسها إلى نوعية المعرفة والطرق المتبعة في تحصيلها ومستوى القائمين بتلقينها.

كل هذه المواصفات الإيجابية للإسهامات الاستشراقية تحد من فعاليتها وتنقص من قيمتها انعكاسات العلاقة التاريخية بين العالمين الإسلامي والأوربي، المتسمة في بعض جوانبها بالعداء والنفور مما أثر سلباً على إنتاج المستشرقين، بل جعل جزءاً كبيراً

من الأدبيات الاستشراقية في القرن الماضي لا يتجاوز كتابات السائح الغريب وكتابات المستكشف الجاهل بحقائق الأشياء، فهي لا تعدو أن تكون جهداً موجهاً بهدف تكوين صورة للعالم الإسلامي كما تتقبلها وتقيمها الذهنية الغربية، ولعل هذا ما جعل إنتاج بعض المستشرقين وكأنه انعكاس للصورة وترديد للصوت ونظرة من الخارج، الأمر الذي أدى إلى استنتاجات لا تتماشى مع المعطيات التاريخية للعالم الإسلامي ولا تعبر عن المناخ الحضاري الإسلامي فهي تنطلق من قيم ومفاهيم أوروبية وليس من خصوصيات الحضارة الإسلامية، فالأمة الإسلامية والوحدة الثقافية للعرب والترابط القومي بينهم وجدلية الأحداث من خلال هذا الواقع غالباً ما تختفي في الفكر الاستشراقي التقليدي، لتترك مكانها لخصوصية الشعوب وهوية الجماعات الثقافية والأدبية ولمزاج الأفراد، وحتى التَّفاعلات الداخلية وهي محور حركية التاريخ الإسلامي قد تترك مكانها في المعالجة الاستشراقية لتأثير العوامل الخارجية...ومع ذلك فإن مثل هذه المواقف في الإسهامات الاستشراقية نراها منطقية لأنها ناتجة أساساً عن محاولة فهم الآخر لكينونتنا من خلال ثقافته ومنهجه، لكن الشيء المحير بل الخطير هو أن هذه النظرة الخارجية لتراث الإسلام وتاريخه قد وجدت طريقها إلى بعض الباحثين العرب والمسلمين وغالبيتهم من الصنف الذي يمكن أن نطلق عليه طائفة المستعربين التي تعيش غربة مضاعفة، فلا هي اندمجت في جو الاستشراق الحقيقي ولا هي ارتبطت بواقع العالم الإسلامي، بل جعلها موقفها هذا محل نقمة ممن درس تراث الإسلام بعمق مثل **أبي اليقظان** الذي آخذهم على موقفهم بقوله: "إن الألسنة الأوروبية في الأفواه الإسلامية أشد خطراً على المسلمين من الأوروبيين أنفسهم"

جـ تحديد موقفنا من الإسهامات الاستشراقية:

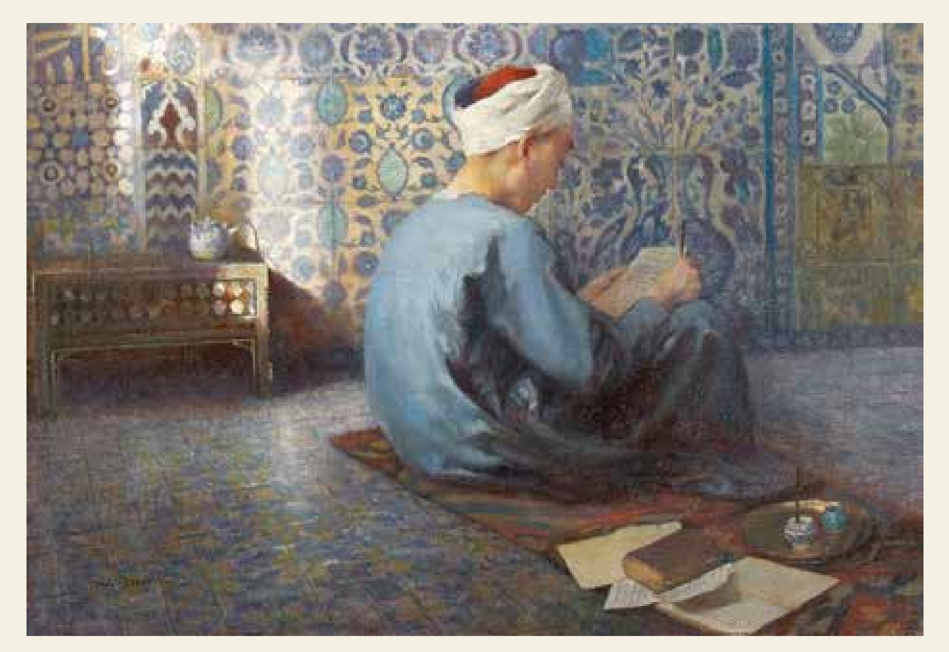
من خلال واقع الخلفية التاريخية لظاهرة الاستشراق، وانطلاقاً من ايجابياتها وسلبياتها، يظل الاستشراق في نظرنا يمثل هاجساً يؤرق الذاكرة العربية الإسلامية التي يثقلها إرث الماضي وتستبد بها محبطات الحاضر ويطحنها العجز عن تقديم البديل... فإنتاج المستشرقين قبل كل شيء هو التحدي الذي يشعرنا بالتقصير في حقنا ويعمق فينا الإحساس بالإذلال الثقافي إذا قارنا ما أنتجه هؤلاء وما قمنا به نحن، وهذا ما يطرح اليوم في الساحة الثقافية الإسلامية وخاصة في المجال العلمي العربي إشكالية التعامل مع الحصيلة الاستشراقية، هذه الإشكالية التي تعبر في الواقع عن أزمة ثقافية متعددة الأبعاد مختلفة الجوانب، يمكن صياغتها في هذه التساؤلات المحرجة التي لا نرى لها الآن جواباً مقنعاً:

- هل أمكن للمثقفين من العرب والمسلمين التعرف حقاً على الإسهامات الاستشراقية وفهمها فهماً معمقاً يتجاوز النظرة السطحية إلى الغوص في الأعماق.
- هل للنخبة العربية الإسلامية الاستعداد النفسي والحافز الأدبي للتعامل مع هذه الإسهامات.
- هل لدى الدوائر العلمية العربية وخاصة المؤسسات التعليمية الجامعية في البلاد الإسلامية خطة بعيدة المدى لدراسة التراث الاستشراقي بعيداً عن الاعتبارات والأحكام والأفكار المسبقة...
- هل في إمكان الجامعيين العرب والمسلمين تقديم البديل القادر على استيعاب الإسهامات الاستشراقية وتمثلها وتوجيهها وتجاوزها في المدى البعيد بالمزيد من الإبداع الفكري والعطاء العلمي الذي انقطع عنه المسلمون فترة طويلة تناهز عشرة قرون.

إن هذه التساؤلات وغيرها تشكل في نظرنا أبعاد المسألة الحضارية في تعاملنا مع الحصيلة الاستشراقية، وإن ظلت في ضوء واقعنا الثقافي وإسهامنا العلمي بعيدة عن التحقيق، فهي أماني يحبذها الخيال وقد يبررها الطموح، ولكن يجد منها إن لم يلغها انعدام الفاعلية الحضارية، ولعل هذا ما جعل الكثيرين منا في تعاملهم مع الإسهامات الاستشراقية يتخذ أحد الموقفين، فهو إما معجب ومبهور بمناهج المتسشرقين وإنجازهم العلمي، وإمّا ناقم ومخاصم ولو كان جاهلاً بما أنتجوه وغير مطلع على أساليبهم وطرقهم في البحث، وكلا الموقفين المحبذ والرافض لإسهام المستشرقين يعبر في واقع الأمر عن شيوع ظاهرة مرضية ثقافية تتمثل في ازدواجية السلوك الثقافي، الذي يحب بدون سبب ويرفض بدون دليل ويقبل بدون داع، فهو كما قال الشاعر العربي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

ومع ذلك تظل الظاهرة الاستشراقية واقعاً ثقافياً ونتيجة علمية لجهد مجموعة من ذوي المعرفة والاختصاص تثير فينا روح التحدي الحضاري، وتشعرنا بضرورة التيقظ الثقافي والتطور الفكري والإسهام العلمي حتى نتغلب على كسلنا العقلي، ونتجاوز واقع المثقف الموظف إلى موقف المفكر الباحث ◇◆





أ. خالد برادة

باحث أكاديمي / المغرب

أهمية قيام علم الاستغراب

لقد بذل العالم الغربي جهودا معتبرة لاكتشاف العالم الإسلامي، فقد قام كثير من المستشرقين برحلات استخباراتية، كان هدفها تقديم أبحاث علمية عن العالم الإسلامي، ليستفيد منها المستعمرون، وكانت هذه الأبحاث تتسم بالعلمية الدقيقة، لأنها تهدف إلى تمهيد التوسع الأوروبي الاستعماري؛ وقد عملت على الغض من قدر التراث العربي الإسلامي، لتزييف الوعي الحضاري، والإعلاء من الحضارة الغربية، مما أتاح لهم المساهمة في توسع السياسات الاستعمارية.

لقد أفاض المستشرقون في الكتابة عن تاريخ الشرق الإسلامي، وما حفل به من حضارة ومدنية، وتراث معرفي؛ ولكن تمَّ تكريس الاستشراق الغربي لخدمة المشروعات التوسعية الاستعمارية؛ فاهتمام الغرب بالإسلام والمسلمين كان لحاجة في أنفسهم، غابت عنه براءة البحث النزيه؛ وقد عمل على تكريس التخلف والتبعية، وتولى تلك المهمة مستشرقون كان هدفهم أن يشيعوا أن حضارتنا الإسلامية لم تكن أصيلة، وأنها نتاج ما نقلته وأخذته من الأمم الأخرى فقط؛ وعمدوا إلى تصوير الإسلام على أنه مجرد نحلة من نحل المسيحية الشرقية؛ وغير ذلك من تُرّهاتهم وأراجيفهم؛ وبالجملة فقد حادت دراسات المستشرقين للإسلام عن الموضوعية، وأفصحت عن الحقد الدفين والكراهية للمسلمين.

وأولى بالباحثين المسلمين أن يقوموا بدراسات علمية عميقة ودقيقة عن العالم الغربي، ليكشفوا عن خلفيته الفكرية، وينقبوا عن ثقافته السائدة، ويظهروا حضارته التي يوهم أصحابها من خلال الدعاوى الإعلامية أنها حضارة متقدمة، وهذا ما نسعى إليه للمساهمة في إقامة علم الاستغراب، الذي يهدف إلى دراسة الغرب من شتى المناحي، سواء اللغوية، أو العقدية، أو الفكرية، وكل ما يتعلق بعلوم الغرب؛ ومما يساعد على ذلك أن تتولى المختبرات والمراكز العلمية تجنيد باحثين للكشف عن الفكر الغربي[1]، بعد أن يحذقوا لغته، ويدرسوا علومه وفلسفته ليظهروا الحقيقة التي لا تشوبها شائبة، متجردة عن الأهواء، بخلاف الاستشراق الذي لم يقم على الموضوعية.

(1) كان الأستاذ الدكتور السيد محمد الشاهد سباقا إلى وضع مشروع علمي لدراسة الغرب، دراسة علمية جادة، -كان ذلك قبل أن يصدر الدكتور حسن حنفي كتابه: (مقدمة في علم الاستغراب) بسنوات- وذلك عن طريق إنشاء قسم علمي لدراسة العلوم الغربية، وقد نشرت الخطوط العريضة لهذا المشروع في صحيفة (مرآة الجامعة) في عددها 20 جمادى الأولى 1410ه. انظر: مازن مطبقاني. الاستغراب بين السيد الشاهد وحسن حنفي. موقع: من آفاق الكلمة.

إن السعي لإقامة علم الاستغراب، ضرورة حضارية، تحمي المسلمين من أخطار التبعية الغربية، للتحرر من سيطرة الاستتباع الثقافي، الذي هو من المفاسد الثقافية التي مُنيَ بها العقل المسلم، وأضرّت بالأمة، ولحماية الوعي من التزييف المفاهيمي؛ للقيام بالتأصيل الشرعي للثقافة الإسلامية، وهذا كفيل بتحرير العقل المسلم من سوءات المفاسد الثقافية؛ وليس من شك أن علم الاستغراب يضمن لنا عودة إلى المنابع الصافية للثقافة الإسلامية؛ "فالاستغراب يتيح لنا أن ننطلق من الذات المسلمة، وإعادة الاعتبار لها، لتنفض عن نفسها النظرة الدونية التي تكرست لديها، نظرا لعوامل متعددة، أبرزها الاستلاب الحضاري، والاستتباع الثقافي؛ ولعل علم الاستغراب هو الآلة الناجعة للتحرر من امتداد السيطرة الغربية، التي تطوّقت بها الأعناق العربية ردحا من الزمن؛ فالاستغراب هو مفتاح التحرر من الانبهار بالغرب، لإعادة الثقة بالذات المسلمة، التي عانت من نير الجمود الفكري، والاستلاب الثقافي الذي مُنيت به؛ فلقد آن الأوان ليصير الغرب مدروسا، بدل أن يبقى دارسا ومسيطرا على العرب والمسلمين"[2]، مما سيتيح لنا المساهمة في تفكيك عقدة شعور الكثير من المسلمين بالدونية التي عمل التغريب على ترسيخها في النفوس؛ والتحرر من التهوين من قدر الذات المسلمة، والسعي إلى تفكيك الخطاب الغربي المسيء للإسلام، ولا يفوتنا أن نحسن التعامل مع الإنسان الغربي، من منطلق المنهج القرآني في التعامل مع الآخر المخالف، يقول اللّه تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (سورة المائدة: الآية 8).

إن التعامل مع الآخر المخالف يحتّم علينا أن نقف مليّاً عند مستوياته، وهذا من حسن التعامل معه؛ فضلا عن أن العالم الغربي ليس على درجة واحدة، فهو ليس غربا واحدا، فهناك "الغرب الأدنى، وهو المتعارف عليه لدى الغرب بالشرق الأدنى... والغرب الأوسط ويشمل أوروبا الغربية... والغرب الأقصى ويشمل الأمريكيات الثلاث: الشمالية والوسطى والجنوبية"[3]، وهذه حقيقة ينبغي أن تكون مسلّمة لدى الباحثين في الفكر الغربي، لحسن التعامل مع الغرب -من بين



تلك المغارب- موضوع الدراسة، لفهمه فهما عميقا؛ وإتاحة فرص التعارف معه، وهذه سنة كونية بين الأمم، يقول اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.(سورة الحجرات: الآية 13)، والتعارف يفضي إلى التواصل، فرغم الاختلاف القائم بين الشرق والغرب[4]، إلا أن المشترك الإنساني بينهم بمثابة رحم يجمعهم، فلتدبير الاختلاف القائم ينبغي الانطلاق من قاعدة موحَّدة، أشار إليها القرآن الكريم لتكون منطلقا للحوار، وهي توحيد المرجعية، نقرأ ذلك في قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.(سورة آل عمران: الآية 63)

هذه المرجعية الموحدة -كما تقرها الآية الكريمة- هي الانطلاق من التوحيد، ليكون ذلك خليقا بترشيد الحوار، وتحقيق أهدافه المبتغاة منه.

إن قيام علم الاستغراب واجب في هذه الآونة، لأنه يمكننا من الإحاطة بالفكر الغربي، بدراسته دراسة عميقة، من شتى النواحي؛ فهو يتيح لنا الوقوف على بنية تفكير العقل الغربي، وأنموذجه المعرفي، لتقديم حقيقته إلى المسلمين وتدريسه بعيدا عما عمد إليه التغريبيون الذين تربوا في مدارس المستشرقين، وكانوا معاول هدم لصرح الحضارة والثقافة الإسلاميتين، وهم الذين عناهم الدكتور **محسن عبد الحميد** بأنهم أصحاب الأزمة الفكرية[5].

كما أن علم الاستغراب يبصرنا بما حفلت به الثقافات الأخرى من مصطلحات مشابهة لما عندنا، وهذا يجعلنا ندرك الفروقات بينها، -بعد التأمل في مفاهيمها- فكثيرا ما نجد مصطلحات تحمل بريقا خادعا، كالتسامح، والحرية، والمساواة...ومن هنا تكمن أهمية علم الاستغراب، الذي يسعى إلى دراسة المفاهيم الموجودة في الثقافة الغربية، ومقابلتها بما هو شبيه لها في الثقافة الإسلامية[6]؛ وهذه خطوة هامة للقيام بتفكيك المفاهيم الغربية، التي لها أبواق تنادي بها في حظيرة المجتمعات ذات المرجعية الإسلامية؛ ويضطلع بهذه المهمة الشريفة، وهذا المطمح النبيل، مطمح كل باحث غيور على دينه، يقوم بتفكيك المفاهيم الغربية، بيدَ أنه ينبغي أن يتزود -كما أسلفنا- بزاد معرفي كبير، ويحذق لغة القوم، فضلا عن التحلي بالخلق العالي؛ مما سيحدث نقلة نوعية في علاقتنا بالغرب، مع تمكيننا من التأصيل الثقافي، ويجدد لنا الانبعاث الحضاري ◆◇

(2) خالد برادة. الاستغراب مفتاح التحرر من الانبهار بالعالم الغربي. مجلة الوعي الإسلامي، العدد (627)، ذو القعدة 1438هـ/ يوليو- أغسطس 2017م، ص 51.

(3) علي إبراهيم النملة. الاستغراب: المنهج في فهمنا الغرب. كتاب المجلة العربية، العدد (223)، رجب 1436هـ/ مايو 2015م، ص 34- 37.

(4) يعدّ هذا النوع من الاختلاف اختلافا أمميا، وهو أعلى درجات الاختلاف، ولا غروَ أن الاختلاف الأممي هو الذي يدبّر التعارف بين الشرق والغرب، ويتيح فرص التواصل بين العالَمين.

(5) غاب عن أصحاب الأزمة الفكرية تحكيم المنهج القرآني، وكان أقصى ما وصلت إليه عقولهم أن الوحي الإلهي والتراث شيء واحد. انظر: محسن عبد الحميد. أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث. دار الصحوة، القاهرة، ط 1، 1405هـ/ 1984م، ص 95.

(6) علي إبراهيم النملة، إشكالية المصطلح في الفكر العربي. مكتبة بيسان، بيروت، 1431هـ/ 2010م، ص 248. (بتصرف يسير).



أ. د. مازن مطبقاني
باحث أكاديمي/ المملكة العربية السعودية

قواعد عملية لتأسيس علم الاستغراب

بعد أن أمضيت زمناً طويلاً في دراسة الاستشراق وزيارة معاقله وحضور الكثير من المؤتمرات ولقاء عدد من المسؤولين توصلت إلى أننا يجب أن نتخذ خطوات عملية لإنشاء دراسة الاستغراب، وفيما يأتي هذه القواعد.

القاعدة الأولى:
القرار السياسي

لقد نجح الفكر الاستشراقي في تفحّص العقلية العربية من خلال التعاون الكبير بين المستشرق والسياسي، فدراسات الاستشراق لم تنشأ إلا بدعم حكومي سياسي.

فقبل أن نفكر بإنشاء علم الاستغراب لا بد أن نعرف أن الغرب حين بدأ بدراسة العالم الإسلامي الذي طغى عليه اسم الشرق الأوسط قد احتاج قروناً لتطور هذه الدراسات التي نشأت في بريطانيا منذ منتصف القرن السابع عشر بإنشاء كرسي اللغة العربية في جامعتي كمبريدج وأكسفورد عامي 1632 و1636م، فقد شهد القرن العشرين استمرار هذا الاهتمام حينما أقر البرلمان ضرورة وجود مركز كبير لدراسة الشعوب والأمم الأخرى في لندن وفي جامعة لندن بخاصة فكان إنشاء مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتصبح من أكبر مراكز دراسات الشرق الأوسط في العالم.

وحتى بعد انحسار الإمبراطورية البريطانية، استمر الاهتمام البريطاني بمعرفة الشعوب الأخرى مما دعا الحكومة البريطانية إلى تكوين لجنة لدراسة احتياجات البلاد من المتخصصين في الدراسات الشرقية والأفريقية والأوروبية الشرقية والسلافية عام 1947م برئاسة **الإيرل سكاربورو**.

ووجدت الحكومة البريطانية أن الأوضاع العالمية قد تغيرت ويجب أن تعيد النظر في احتياجاتها لهذه الدراسات فكوّنت لجنة حكومية أخرى عام 1961م برئاسة السير وليام هايتر لدراسة وضع الدراسات الشرقية والأوروبية الشرقية والسلافية والشمال أفريقية، فزارت اللجنة الجامعات البريطانية التي تحتضن هذه الدراسات، كما دعمت بمنحة من مؤسسة **روكفللر** لزيارة عدد من الجامعات الأمريكية وجامعة (**ماقيل**) بكندا.

وكان مما أوصت به اللجنة الإفادة من التجربة الأمريكية في مجال دراسة المناطق أو دراسات الأقاليم حيث يقول التقرير ما نصّه: "تقدم الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق نوعاً جديداً من التنظيم الذي تدعمه المؤسسات والحكومة والتي يعود لها الفضل في إنشاء هذا الفرع المعرفي"[1].

كما أشار التقرير في موضع آخر إلى أن هذه المراكز أو الأقسام لديها تمويل كبير للقيام بالبحوث والرحلات العلمية ونشر الكتب وتستطيع بما لديها من نفوذ أن تجذب الشخصيات القادرة على البحث العطاء.

واستمرت الحكومة البريطانية تهتم بدراسات المناطق حيث كونت لجنة برئاسة **سير بيتر باركر** قدمت تقريرها في فبراير 1986م والذي جاء فيه أنه بالرغم من تراجع النفوذ السياسي البريطاني فإن الحكومات البريطانية المتعاقبة رأت أهمية المحافظة على سياسة خارجية عالمية، والأمر الثاني أن بريطانيا أصبحت أكثر اعتماداً من أي وقت مضى على التجارة العالمية فإن بريطانيا تصدر (حين صدور التقرير) 33% من نتاجها المحلي بينما كانت الصادرات لا تزيد على عشرين بالمائة قبل عشرين سنة. والمحافظة على مكانة بريطانيا التجارية يتطلب الاستمرار بالاهتمام بدراسة اللغات وكذلك دراسة المناطق.[2]

(1) Sir Peter Parker. Speaking for the future; A review of the requirements of Diplomacy and Commerce for Asian and African Languages and Area Studies. (London: 1986) p.85

(2) ibid. p 3.

وقد ذكر البروفيسور **جرجن نيلسون** مدير مركز العلاقات النصرانية الإسلامية بجامعة بيرمنجهام أنه يعمل حالياً ضمن لجنة لدراسة وضع الدراسات الشرقية والشمال أفريقية في الجامعات البريطانية. وكأن بريطانيا تراجع وضع هذه الدراسات كل عشرين سنة.[3]

أما في أمريكا فبدأ الاهتمام الأمريكي بدراسة العالم الإسلامي وتوجيه البعثات التنصيرية إليه منذ أكثر من مائة عام حيث أنشئت الجمعية الاستشراقية الأمريكية عام 1842م، بينما بدأت بعثاتهم التنصيرية تصل إلى العالم العربي قبل ذلك بعشرين سنة على الأقل.

أما الاهتمام الأمريكي المعاصر بالشعوب والأمم الأخرى وبخاصة منطقة الشرق الأوسط فقد انطلق من قرار حكومي عام 1958م لدعم عدد كبير من مراكز دراسات الشرق الأوسط والأقسام العلمية المتخصصة في دراسة الشعوب والأمم الأخرى، وقد انضمت جامعات كبيرة ومشهورة لهذا البرنامج منها جامعة برنستون وجامعة نيويورك (بينهما تعاون خاص)، وجامعة شيكاغو وجامعة إنديانا، وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس.[4]

ويستمر هذا الاهتمام والدعم، ففي ديسمبر من عام 1991م وقع الرئيس الأمريكي **جورج بوش** (الأب) على مرسوم تعليمي يرصد بموجبه ميزانية خاصة للقيام بالمهمات الآتية:

أ. فهم الثقافات الأجنبية.

ب. تقوية القدرة التنافسية الاقتصادية للولايات المتحدة ودعم التعاون والأمن الدوليين.

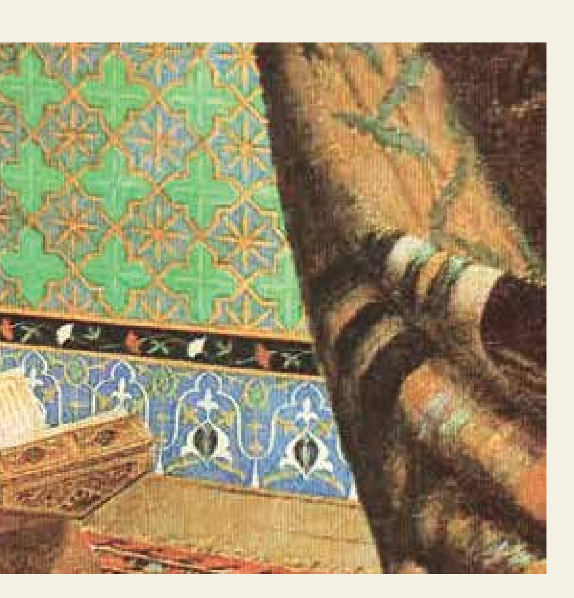
ويتم ترشيح المؤسسات للحصول على الدعم في شهر فبراير من كل عام حيث يتقدم العديد من المؤسسات الجامعية للحصول على هذا الدعم وفق معايير تضعها الإدارة الأمريكية وأبرزها قدرة هذه المؤسسات على تثقيف المواطنين الأمريكيين وتعليمهم اللغات الحساسة والثقافات، والمناطق والمجالات الدولية وبالتالي تقوية قدرات الأمة في العمل بفعالية في المجال الدولي.[5]

ومن الأمثلة التي حصلت على دعم الحكومة الأمريكية عام 1991م جامعة سان دياغو الحكومية ومركز مصادر اكتساب اللغات، ويرأس البرنامج الدكتور **ماري آن لايمان-هاجر** والمبلغ المخصص للبرنامج هو 323357 دولار وعنوان المشروع هو إنشاء مركز القدرات اللغوية المتميزة، وهدف المركز هو أن الأمن القومي يحتاج إلى خبراء متخصصين في اللغات وليس الذين يفهمون المعاني العامة للغة الأجنبية ولكن أولئك الذين يكونون قريبين من أهل تلك اللغات في فهمهم واستيعابهم ويستطيعون التواصل بين الثقافات ويظهرون فهماً اجتماعياً عميقا في التعليم الدولي والحكومي. ولتطوير مثل هذه القدرات فإن جامعة سان دياغو تقترح إنشاء مركز لتحقيق ذلك ولم يسبق لأي جامعة أن قدمت مثل هذا البرنامج.[6]

وقبل أحداث سبتمبر 2001م وجدت أمريكا نفسها بحاجة إلى متخصصين وخبراء في عدد كبير من لغات العالم، فقدمت دراسات توضح هذه الحاجة وفقاً للبيان المنشور في موقع الحكومة الأمريكية على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت). ويضم أكثر من أربعين لغة، وأكثر من ثمانين دولة من جميع أنحاء العالم[7] كما أشار التقرير إلى حاجتهم لتخصصات مختلفة بالإضافة إلى اللغات مثل التخصصات الآتية: الزراعة وعلوم الغذاء، العلوم التطبيقية والهندسة: الأحياء والكيمياء وعلوم البيئة والرياضيات الفيزياء، إدارة الأعمال والاقتصاد، علوم الحاسب وعلوم المعلومات، الصحة وعلوم الأحياء الطبية، التاريخ، العلاقات الدولية، القانون، العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم الإنسان وعلم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية ودراسات السياسات.[8]

القاعدة الثانية:

البحث عن ذوي العقليات المبدعة والمبتكرة وأصحاب الرسالة.



ليس من السهل دراسة مجتمعات أخرى وبخاصة الغرب دون أن يكون الشخص المعد لهذه الدراسة يملك القدرات العقلية والذكاء والطموح والنفس الوثابة والجرأة وقبول التحدي، وقد قرأت في **موسوعة العقيقي** (المستشرقون) فوجدت عجباً من متخصصين في الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وشتى العلوم ثم يختارون دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية، كما اطلعت على سير عدد منهم فوجدت عجباً من المثابرة والإصرار والصبر والاجتهاد وحتى التضحية. فليس كل المستشرقين يعملون ويدرسون في بحبوبة ورعاية من الحكومات فبعضهم أنفق حياته في دراسة قضية ما حول الإسلام والمسلمين.

وقد سألت البروفيسور **ياماؤوتشي** من جامعة طوكيو في كلية الدراسات الإقليمية عن معايير قبول الطلاب لدراسة الأمم والشعوب الأخرى فأجابني أنه لا بد أن يكون الطالب متميزاً في مستواه العلمي ولديه الميول لتعلم اللغات والسفر والعيش في دول أخرى وعلمت أن الحكومة اليابانية توفر وظائف في سفاراتها لطلاب الدراسات

(3) ذكر هذا لي في أثناء زيارته إلى المملكة عام 1424هـ في أثناء لقاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

(4) Robert Devereaux. "A note on Middle Eastern Studies in the United States." In Islamic Quarterly. (London) Vol. 10, No.3-4, July-December 1966.pp. 95-102.

(5) www.ndu.edu/awards.htm

(6) المرجع نفسه

(7) Congressional Record: March 22, 2001 - Senate - Page S2723-S2725 found in the internet http://fas.org/irp/congress/2001_cr/s032201.html

(8) المرجع نفسه.



الإقليمية فنحن إن أردنا أن نختار للدراسات الغربية فلا بد أن تكون الشروط قاسية فلا يقبل إلّا من كان يمكن قبوله في الطب والهندسة والعلوم كما ينبغي أن يكون لديه القابلية والميل لتعلم لغات أجنبية وليس لغة واحدة فقط وينبغي أن يخضع لاختبارات قاسية في هذا المجال. وأود أن أضيف أن دارس الاستغراب يجب أن يكون على معرفة قوية بالإسلام قرآناً وسنة وتفسيراً وتاريخ الإسلام والمسلمين. وحبذا أن يبدأ هذه الدراسات وهو صاحب رسالة لنقل الإسلام للأمم والشعوب الأوروبية.

القاعدة الثالثة:

توفر مكتبة تضم الكثير ما كُتب عن الغرب

زرت مكتبة كلية الدراسات الأمريكية بجامعة طوكيو فوجدت مكتبة ضخمة تضم التراث الغربي من أقدم العصور المرحلة اليونانية والرومانية وعصورهم الوسطى والعصر الحديث، وتضم كتباً في عدة لغات، فإن أردنا حقاً أن نعرف الغرب فعلينا توفير ما كتب في الغرب قديماً وحديثاً، وأن نحرص على الكتابات الناقدة للحضارة الغربية بالإضافة إلى الكتب التي نتعلم منها عن الغرب في شتى المجالات.

القاعدة الرابعة:

الدراسة الميدانية

لا يكفي أن تدرس الغرب وأنت بعيد عنه ولا بد للباحث من اقتحام ميدان الدراسة والدخول في حياة أصحابه، فليس من رأى كمن سمع. وليتنا نتعلم من اليابان بأن نوفر منحاً دراسية للدراسة في الجامعات الغربية بالإضافة إلى توفير وظائف في سفاراتنا في الدول التي يدرس فيها هؤلاء الطلاب أو بعد تخرجهم ليزدادوا علماً بالدولة التي يدرسونها.

والدراسات الميدانية يجب أن تشمل جميع المجالات من سياسة واقتصاد واجتماع وأدب ولغة وإعلام وغيره. ويمكننا أن نستعين ببعض أبناء المسلمين المولودين في تلك الديار لأنهم أعرف ببلادهم ويخلصون لرسالة الإسلام.

القاعدة الخامسة:

الاستعانة بالكفاءات الإسلامية التي تعيش في الغرب

يعمل في الجامعات الغربية عدد كبير من الباحثين المسلمين الذين استقدموا للتدريس والبحث في تلك الجامعات أو من أبناء البلاد الأصليين وهؤلاء يمكن أن يكونوا رافداً قوياً لدراسات الغرب ولأن بعضهم لن يجد عراقيل أو مضايقات حين يدرس بعض القضايا.

وأقترح أن تتم دراسة بعض الأمور من مسلمين يُخفون إسلامهم حتى نصل إلى أعماق المجتمعات الغربية في جميع المجالات.

القاعدة السادسة:

الاستعانة بالمفكرين الغربيين الذين كانت لهم رؤى متميزة في نقد الحضارة الغربية

وأقدم فيما يأتي أسطراً عن المستشرقة **آنا ماري شميل** التي بدأت بدراسة اللغة العربية في سن الخامسة عشرة، وقد استطاعت أن تتقن العديد من لغات المسلمين وهي: التركية والفارسية والأوردو.

تولت المستشرقة **أنا ماري شميل** العديد من مناصب التدريس في العديد من الجامعات في ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، حيث عملت أستاذة للعلوم الإسلامية واللغة العربية في جامعة بون، وأستاذة للحضارة الإسلامية في الهند وأستاذة زائرة في جامعات هارفارد ونيويورك وأيوا وجامعة لندن في بريطانيا. وحصلت على العضوية الفخرية من أكاديميات أمريكية وهولندية وألمانية، بالإضافة إلى ميدالية العلوم والآداب بمصر (عكاظ 2/4/1417). اهتمت بدراسة الإسلام وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي لبني قومها حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

وقد أدرك مكانة هذه المستشرقة العلاّمة والداعية المسلم في أوروبا الدكتور **زكي علي** منذ أكثر من أربعين سنة حين كتب يقول: "وعلى رأس المحررين لمجلة "فكر وفن" الأستاذة الألمعية الدكتورة آن ماري شميل المتخصصة في دراسة محمد إقبال حكيم وشاعر باكستان.. وترجمت إلى الألمانية له ديوان (**جاويد نامة**) وكتاب (**رسالة المشرق**) عن الفارسية، وهي أستاذة بجامعة بون وغيرها ومن أكابر علماء ألمانيا.. وتنصف الإسلام والمسلمين كثيراً جزاها اللّه خيراً". وقال عنها أيضاً أنها أصدرت العديد من الكتب منها كتاب (**محمد رسول اللّه**)، بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم.

القاعدة السابعة:

معرفة الإسلام معرفةً تأصيلية واعية

إن الوعي بتراث الذات يمكّن الباحث من التمايز عن الآخر، وتجنب حالة الاستلاب له، والتماهي معه. ومن المعروف أنه في جميع الحضارات يظهر في مراحلها المختلفة مفكرون مبدعون يحاولون أن يدرسوا عيوب ...

مجتمعاتهم وإيجابياتها وسلبياتها كما حدث من القديم من أيام اليونان والرومان وقد ظهر مفكرون مبدعون مخلصون في الحضارة الغربية المعاصرة يمكننا أن ندرس ما كتبوا بحيث تزداد معرفتنا بالغرب.

القاعدة الثامنة:

التعرف على برامج ومناهج الدراسات الأوروبية والأمريكية

لا تكاد تخلو دولة في العالم من وجود دراسات أمريكية حتى كندا الجارة لأمريكا هناك أربعة عشر معهداً أو كلية تقدم الدراسات الأمريكية كما تأسست في كندا عام 1964 رابطة الدراسات الكندية كما تأسست دراسات أمريكية في بريطانيا فقد طلعت على إعلان لمعهد الدراسات الأمريكية التابع لجامعة لندن أسرعت بإرسال رسالة هاتفية (فاكس) إلى مدير المعهد البروفسور **جاري ماكداول** أطلب منه بعض المعلومات عن برنامج الدراسة في معهدهم. وقد تفضل بإرسال الكتيب الخاص ببرنامج الماجستير لعام 1996/1997م.

يقدم معهد دراسات الولايات المتحدة الأمريكية برنامج الماجستير الذي يمكن أن ينظر إليه على أنه إعداد لمزيد من الدراسات للحصول على الدكتوراه أو البحث في هذا المجال، وقد تخرج العديد من الطلبة في هذا البرنامج وهم يعملون الآن في العديد من المجالات ومنها التعليم أو السياسة أو الأعمال والتجارة. ومدة الدراسة سنة واحدة إذا كان الباحث متفرغاً كلياً للدراسة أو سنتان للتفرغ الجزئي ويشير كتيب المعهد إلى أن معظم مواد البرنامج تدرّس بعد الساعة الخامسة مساء.

أما المواد التي يدرسها الطلاب في هذا البرنامج فهي: الجغرافيا الاقتصادية والتاريخ الاقتصادي والتاريخ والعلاقات الدولية والآداب والموسيقى. وقد تضمن الكتيب تفصيلاً لدراسة هذه المواد فدراسة التاريخ تتضمن مثلاً المواد الآتية: الهجرة والعرقية في الولايات المتحدة منذ عام 1820-1880م. ومنها أيضاً مادة التاريخ الدستوري حتى منتصف القرن التاسع عشر، ومن هذه المواد أيضاً هوليوود وتاريخ الفيلم الأمريكي الشعبي.

وتهتم دراسة الولايات المتحدة بموضوع العلاقات الدولية فمن المواد التي تدرس تحت هذا التصنيف: الولايات المتحدة بصفتها قوة عظمى في سياسات العالم في القرن العشرين، وكذلك الولايات المتحدة والعالم: السياسة الأمريكية الخارجية بعد نهاية الحرب الباردة. وهناك في أوروبا شبكة الدراسات الأمريكية.

القاعدة التاسعة:

الاهتمام بالترجمة؛ لما تمثله من قنطرة مهمة في نقل تراث الآخر

وقبل الحديث عن الترجمة لا بد أن أؤكد على أهمية إتقان اللغة للبلد موضع الدراسة فإن كان المقصود دراسة ألمانيا تاريخياً وجغرافياً وسياسيا واقتصاديا واجتماعياً وعقديا فلا بد من إتقان اللغة الألمانية كأهلها (وقد علمت أن بعض البرامج التي نالت الدعم من الحكومة الأمريكية إتقان اللغات كأهلها، جانب منه تجسسي).

ومما ينبغي التخطيط لترجمته والإسراع في ذلك هو ما كتبه الحكماء الذين ظهروا في حضارة الغرب سواء في بداية تلك الحضارة أو في الوقت الحاضر كما هو في حال الغرب الآن (**بيوكانن: موت الغرب**) (مثلاً) أو **إيريك فروم** (عالم اجتماع وعالم نفس أمريكي من أصل ألماني) و**فوكوياما** في عدة كتب.

وتتلخص هذه الخطة في تحديد عدد من العلماء يتم اختيار عدد من كتبهم لترجمتها والتعليق عليها ودراستها ولا يقصد من الترجمة مجرد النقل وإن كان النقل في حد ذاته خطوة كبرى يجب الاهتمام بها والإسراع في تنفيذها وهؤلاء العلماء في مختلف التخصصات وفقاً للخطة الموضوعة وأن تكون في المجالات الآتية:

- علم التاريخ حيث يتم اختيار عدد من كتب التاريخ سواء القديم أو الحديث لتتم ترجمتها والتعليق عليها وربما اختصارها أو وضع ملخصات لها.
- علم الاجتماع فثمة عدد من العلماء في أنحاء العالم الغربي تخصصوا في دراسة مجتمعاتهم وتميزت كتابة بعضهم بالجرأة والرؤية المستقلة والحكمة تنظر إلى عيوب تلك المجتمعات وتحاول أن تقدم النصيحة فلا زلت أذكر اجتماع رابطة العلوم السياسية الأمريكية حين تناول رئيس الرابطة في خطاب الافتتاح للمؤتمر مسألة تمزق نسيج المجتمع الأمريكي وضياع أخلاق كانت موجودة مثل الشهامة والنبل والنجدة وإغاثة الملهوف ورفع الظلم عن المظلومين وغيرها.

وأذكر في هذا المجال عالم الاجتماع والنفس **إيريك فروم** الذي أصدر العديد من الكتب حول المجتمع الأمريكي وبخاصة كتابه (**المجتمع العاقل**) و(**الإنسان لنفسه الأنانية**). ويمكننا إضافة **وليام دمهوف** صاحب كتاب (**من يحكم أمريكا: الأيكة البوهيمية**)، وهو كتاب في علم اجتماع المجموعات وعلم نفس المجموعات. وفي علم الاجتماع ندرس تأثير الإعلام والإعلام الإلكتروني في المجتمع وبخاصة في الأطفال ومن أبرز من انتقد الإعلام وهوليود بخاصة الناقد السينمائي **مايكال ميدفيد** في كتابه (**أمريكا وهوليوود**) وكتبه الأخرى.

وهناك قائمة طويلة لا يمكن حصرها في هذه القواعد العملية ولكن لا بد أن أختم بعالم الاجتماع الأمريكي الذي درّس في جامعة هارفارد وله كتاب مهم هو الأسرة والحضارة تتبع وضع الأسرة من عهد اليونان إلى الوقت الحاضر وتوقع كثيراً من الأمور التي تحدث اليوم من العنف الأسري وعنف الشباب والشذوذ الجنسي والقتل والجريمة وقد صدر كتابه عام 1947م فكان ثورة في علم الاجتماع.

وقد كتب أحد الباحثين عن **نظرية زيمرمان** قائلاً: "وقد انتهى زيمرمان من تحليله لتطور نماذج الأسرة خلال تاريخ المجتمع الغربي منذ عام 1500ق.م حتى الآن، إلى أن التغيير الاجتماعي عامة وتغيير النسق الأسري يتفاعلان بصورة حتمية حيث يتبادلان موقع السبب والنتيجة، أما التغير الاجتماعي في الوقت الحاضر فإنه يسير في طريق غير واضح، ويتنبأ كما يتنبأ الكثيرون بأن الحضارة الحديثة سوف تنهار كما انهارت الحضارات القديمة"[9]

(9) د مهدي محمد القصاص. المداخل النظرية في دراسة العائلة: كتاب علم الاجتماع العائلي. http://www.socialar.com/vb/showthread.php?t=10337

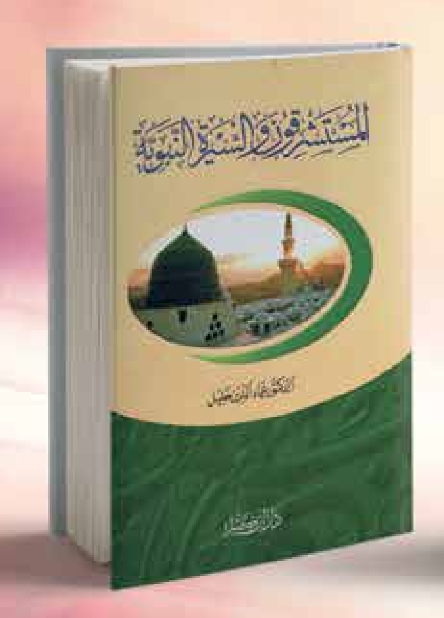
ملف العدد

الاستشراق والاستغراب:

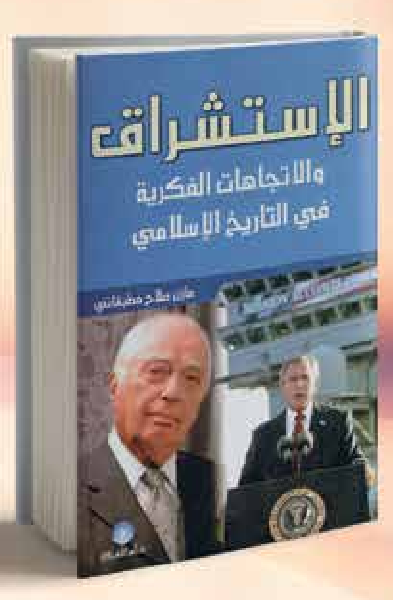
- بيبليوغرافية مختارة -

إعداد: أبو فيصل

- إلهامي (محمد). **نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب**. دار التقوى، القاهرة، 2015.
- بدوي (عبدالرحمان). **موسوعة المستشرقين**. دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ط 3.
- برادة (خالد). **الاستغراب مفتاح التحرر من الانبهار بالعالم الغربي**. مجلة الوعي الإسلامي، العدد (627)، ذو القعدة 1438هـ/ يوليو- أغسطس 2017م.
- بزيان (سعدي). **الاستشراق والمستشرقون**. دار نسيبان، الجزائر، 2016.
- بسناسي (محمد). **الدراسة الاستشراقية بين الأمس واليوم**. دراسات استشراقية (بغداد)، العدد 9، خريف 2016.
- بن ابراهيم (الطيب). **الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه (خاصة في الجزائر)**. منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2007.
- تنسين (شتاين). **الاستشراق والاستغراب ومعرفة الآخر**. الآداب العالمية (دمشق)، العددان 156-1555، يوليو 2013، ترجمة حسام الدين خضور.
- الجبر (محمد). **مفهوم الاستغراب عند صادق جلال العظم**. المعرفة (دمشق)، العدد 525، أكتوبر 2007.
- حيدر (محمود). **لماذا "الاستغراب"؟** مجلة الاستغراب (بيروت)، العدد 1، خريف 2015.
- حنفي (حسن). **مقدمة في علم الاستغراب**. بيروت، المؤسسة الجامعية، 1992.
- **علم الاستغراب. ما هو؟** الكرمل، العدد 45، يوليو 1992.
- الحياني (محمود). **الاستشراق والاستغراب: السلطة، المعرفة، السرد، التأويل**، المرجعيات. دار غيداء، عمان، 2013.
- خضير (محمد صالح). **الاستشراق والمستشرقون في الدوريات العربية**. عالم الكتب (الرياض)، المجلد 5، العدد 1، أبريل 1984.
- خليل (عماد الدين). **المستشرقون والسيرة النبوية**. دار ابن كثير، بيروت، 2005.
- زكاري (لكمان). **تاريخ الاستشراق وسياساته**. دار الشروق، القاهرة، 2007، ترجمة شريف يونس.
- الدعمي (محمد). **الاستشراق. الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي**. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- سالم الحاج (ساسي). **نقد الخطاب الاستشراقي**. دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002،
- السامرائي (قاسم). **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**. دار الرفاعي، الرياض، 1983.
- الساموك (سعدون). **الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية**. دار المناهج، عمان، 2010.
- سمايلوفتش (أحمد). **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**. دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
- سعيد (إدوارد). **الاستشراق. المعرفة، السلطة، الإنشاء**. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984، طبعة 2، ترجمة كمال أبو الديب.
- سهر (عبد اللّه يوسف محمد). **مؤسسة الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين**. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، 2015.
- السيد (رضوان). **المستشرقون الألمان**. المدار الإسلامي، بيروت، 2007.
- الشاهد (السيد محمد). **الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين**. مجلة الاجتهاد (بيروت)، العدد 22، شتاء 1994.
- الشيخ (أحمد). **من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب**. حوار الاستشراق. المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، 1999.
- **من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب. المثقفون العرب والغرب**. المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، 2000.
- شيمل (آنا ماري). **الشرق والغرب. حياتي الغرب-شرقية**. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ترجمة عبد السلام حيدر.
- صالح (هاشم). **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**. دار الساقي، لندن، 1998.
- الطيباوي (عبد اللطيف). **المستشرقون الناطقون بالإنجليزية**. دراسة نقدية، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991، ترجمة قاسم السامرائي.
- العاني (عبد القهار). **الاستشراق والدراسات الإسلامية**. دار الفرقان، عمان، 2001.
- عبد الملك (أنور). **الاستشراق في أزمة**. الفكر العربي (بيروت)، العدد 31، 1983.
- العشري (جلال). **الاستغراب في مواجهة الاستشراق**. مجلة القاهرة، العدد 60، يونيو 1986.
- العظمة (عزيز). **نقد تهافت الاستغراب**. الناقد، العدد 98، أوت 1991.
- العفيفي (نجيب). **المستشرقون**. دار المعارف، القاهرة، 2006، ط 3.
- عوضين (إبراهيم). **حول اعتقال الغرب في علم الاستغراب**. الهلال (القاهرة)، أوت 1992.
- عويمر (مولود). **مقاربات في الاستشراق والاستغراب**. دار فضاءات، عمان، 2017، ط 2.
- مطبقاني (مازن). **الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام**. دار اشبيليا، الرياض، 2000، ط 1.
- **الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي**. عالم الأفكار، الجزائر، 2011.
- **بين الاستشراق والاستغراب، أيهما أولى؟** الفيصل (الرياض)، العدد 321، ماي 2003.
- المنجد (صلاح الدين). **المستشرقون الألمان**. دار الكتاب الجديد، بيروت، 1997.
- فوك (يوهان). **تاريخ حركة الاستشراق**. بيروت، دار المدار الإسلامي، 2001، تر: عمر لطفي العالم.
- مجموعة من الباحثين. **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985.
- فوزي (فاروق عمر). **الاستشراق والتاريخ الإسلامي**، دار الأهلية، عمان، 1998.
- الويسي (ياسين حسين). **مالك بن نبي وموقفه من الاستشراق والمستشرقين**. دراسات استشراقية (بغداد)، العدد 9، خريف 2016.
- النعيم (عبد اللّه محمد الأمين). **الاستشراق في السيرة النبوية**. إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، 1997.
- النملة (علي بن إبراهيم). **الاستشراق والدراسات الإسلامية**. مكتبة التوبة، الرياض، 1998.
- **الاستغراب المنهج في فهمنا للغرب**. كتاب المجلة العربية، العدد 223، الرياض، 2018.

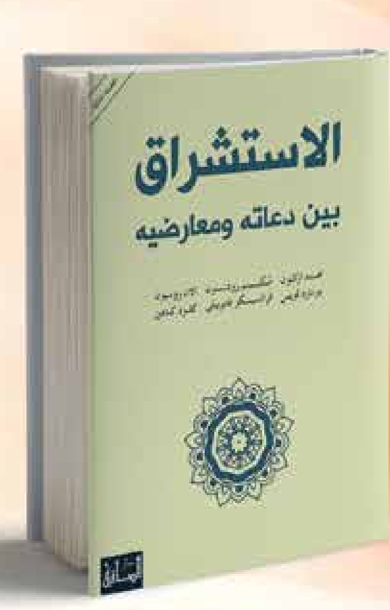

المستشرقون والسيرة النبوية

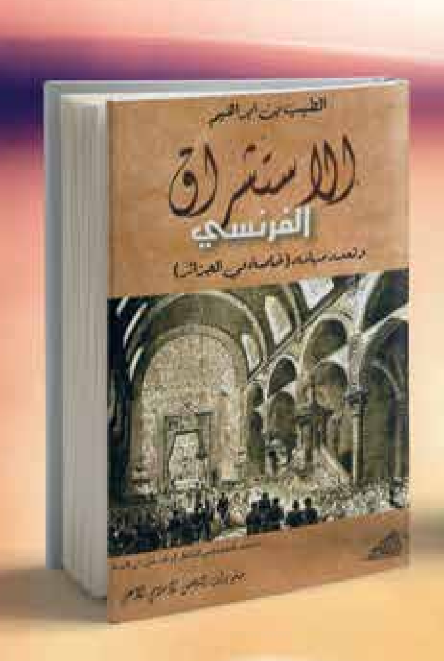

مولود عويمر
مقاربات في
الاستشراق والاستغراب

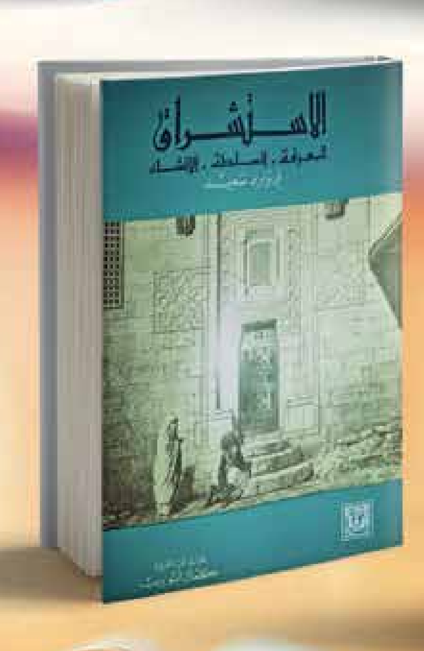

الإستشراق
والاتجاهات الفكرية
في التاريخ الإسلامي


نحو تأصيل إسلامي
لعلم الاستغراب


الاستغراب
المنهج في فهمنا الغرب
العربية
223


الاستشراق
بين دعاته ومعارضيه


الطيب بن إبراهيم
الاستشراق
الفرنسي


الاستشراق
المعرفة . السلطة . الإنشاء
إدوارد سعيد


10
الاستغراب
AL-ISTIGHRAB



الشاعر : الشيخ رمضان بونكانو

حين تضحك الحظوظ للمحبين

وأُحرم أنا

ما ضَـرَّ أهل الـرَّكْب لو أخذوني — معهم إلى المُختارِ واصطحبوني

لما امتطَـوا سَحَراً ظهورَ رحالهِمْ — فاضتْ بدمع العاشقينَ عيُـوني

وتمايلتْ طَـرَباً على ألحـانـهِمْ — نفْسِي وهاجتْ في الفؤادِ ظنوني

وتراقصتْ جذلى على شهقَـاتِهمْ — يوم الوداع من الحنينِ مُـتُـونـي

يا قاصدينَ ديارَ (طيبةَ) ضحـوةً — لا تذهبـوا نحو المديـنةِ دونـي

عندي بهاتيكَ الديـارِ أحِـبَّـةٌ — شوقي إليهمْ دائـماً يحـدونـي

نفسي الفداءُ لقبرِ صَاحِب "طابةٍ" — تهـفو إليـهِ جوانحي وشجوني

أمحمّدٌ يا خيرَ من لُثِمَ الـثَّـرى — في أرضِـهِ من بائـسٍ محزونِ

ما سَـارَ وفْدٌ نحو أرضكَ زائـرا — إلا وذكراكم -هُـنا- تعـرونـي

سار الذينَ حظوظهم ضحكتْ لهُمْ — وبقيتُ أرصفُ في قيودِ سُـجوني





البحَّاثة الدكتور **عمار طالبي** للتبيان:

أمتنا بحاجة إلى مشروع حضاري
يحفظ وجودها ويقودها من التخلف إلى التقدّم

حاوره **هيئة التحرير**

الأستاذ الدكتور عمار طالبي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شخصية علمائية أكاديمية موسوعية في الدين والثقافة والعلوم، وهو من الأسماء الفكرية البارزة في العالم الإسلامي له بصمته المتميزة في الملتقيات الوطنية والدولية والجامعات والجوامع والمجامع التي حصل على عضويتها في الخارج.



هو من مواليد سنة 1934م، بمنطقة الأوراس، في الجزائر، كانت دراسته في البداية بمسقط رأسه بالكتاب ثم بالمدرسة القرآنية، وفي سنة 1951 ذهب لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة بتونس حيث تحصل على شهادة الأهلية ثم على شهادة التحصيل. وبعد اندلاع ثورة نوفمبر تحصل على منحة للدراسة بالقاهرة، حيث سجل بكلية الآداب قسم الفلسفة وتخرج بشهادة الليسانس في الفلسفة على يد الدكتور زكي نجيب محمود ويوسف مراد عثمان أمين. وحين عاد إلى الجزائر كُلّف مع مجموعة من المتخرجين بمركز بوزريعة لتكوين وتدريب المعلمين، ثم عُيّن بين سنة 1963 و1964 مدرسا بجامعة الجزائر، وبعدها طلب منحة لتحصيل شهادة الماجستير بالإسكندرية وقبل ذلك وبعد نكسة 1967 تحصل على منحة دراسية لمدة سنتين فسجل بجامعة الإسكندرية قسم الفلسفة لتحضير شهادة الماجستير في الفلسفة وكان موضوع الشهادة حول " آراء الخوارج الكلامية" وبإشراف الدكتور علي سامي النشار وترأس لجنة المناقشة شيخ الأزهر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود ناقش رسالته في الدكتوراه سنة 1971 بجامعة الجزائر، وموضوع الرسالة كان حول " آراء أبي بكر بن عربي الكلامية ونقده للفلسفة اليونانية"، مع تحقيق "العواصم من القواصم"، وعُيّن رئيسا لقسم الفلسفة ثم كُلّف سنة 1982 بإنشاء معهد لكلية الشريعة الإسلامية ثم كُلّف بالتحضير لبرنامج جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ولما تقرر افتتاحها سنة 1984 عُيّن مديرا لها، وفي سنة 1990 اتصل بجامعة قطر للتدريس فتنقل إليها ومكث بها إلى غاية سنة 1999 حيث عاد إلى الجزائر وواصل التدريس بجامعة بوزريعة إلى أن تقاعد وما يزال يعمل متعاقدا للتدريس بجامعة بوزريعة كما يُلقي إلى جانب ذلك محاضرات بكلية العلوم الإسلامية بالخروبة وغيرها، ويشرف على رسالات التخرج للطلبة، ومن مؤلفاته وتحقيقاته:

"آثار عبد الحميد ابن باديس"، و"مدخل إلى عالم الفلسفة" و"مصطلحات الفلاسفة والمتكلمين"، وتحقيق "أرجوزة ابن سينا في الطب" و"الكليات في الطب لابن رشد" بالتعاون مع الدكتور سعيد شيبان، و"أعز ما يطلب" لابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، و"ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" للأمير عبد القادر الجزائري، و"الجواهر الحسان في تفسير القرآن" للعلامة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، وغيرها من الكتب والتحقيقات، وقد طلبت منه منظمة اليونسكو بحثا حول الفارابي المربي ترجم بعد إعداده لعدة لغات في إطار مشروع حول "كبار المربين في العالم".

وتتشرف "التبيان" أن يكون شخصية هذا العدد الدكتور البحاثة عمار طالبي فكانت معه هذه الدردشة المفيدة:

♦ **في البداية نريد أن نعرف ما هي الأحداث والشخصيات التي أثرت فيك أكثر من غيرها في طفولتك وفي محيطك العائلي؟**

♦♦ نشأت في قرية من قرى الأوراس تسمى "**جلّال**" تابعة اليوم لدائرة ششار، وهي قرية اشتهرت بقراءة القرآن، وبالفقهاء، والأعيان الذين يعنون بسكان هذه القرية وما يجاورها، برعاية الحياة الاجتماعية، والأخلاقية، وكتبوا في ذلك ميثاقا، موقعا يضبط السلوك، والمخالفات، وجزاءها.

وعندما ضُرب حاكم خنشلة عند زيارته للقرية، ببندقية صيد، ولكنه نجا منها، وأرسل فريقا من الشرطة السرية، وقبضوا على بعض الأفراد، فكانوا يعذبونهم وهم معلقون بحبال، رؤوسهم إلى أسفل، وكنت في بستان لنا بعيد، ومع ذلك كنت أسمع صياح هؤلاء المعذبين، وكان صياحا غريبا فكنت أسمعه في فزع هزّ كياني وروّعني أيما ترويع لم أفزع وأروع بمثله في حياتي وأنا طفل يانع.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وضاقت بنا سبل العيش، فلا نجد غذاء نطعمه، فكان الأب يدبر لنا شيئا من التمر وبعض الحساء، لا يغني من جوع لأنه ماء به شيء قليل من الدقيق، فاضطررنا للرحيل من القرية إلى ضواحي خنشلة.

> البحث العلمي لم يأخذ طريقه المبدع في الجامعات ومراكز البحوث وهو بحاجة إلى تمويل كبير.

والذي أثّر في حياتي الدراسية أيما تأثير إنما هو جدي لأبي **محمد** -رحمه اللّه- رحمة واسعة، وأذكر أنه أول ما تلقيت عنه سورة الناس، شعرت بهزّة شديدة في نفسي كالذي يتلقى قولا ثقيلا أحدث انقلابا في نفسه، وهو الذي حرص على دخولي المدرسة القرآنية أشد الحرص ومتابعة دراستي.

♦ **واصلت دراساتك في جامع الزيتونة بتونس وجامعة القاهرة بمصر. كيف كان أثر الجو الثقافي السائد آنذاك في تونس ومصر؟ ومن هي الشخصيات العلمية التي كانت لها تأثير بارز في حياتك العلمية؟**

♦♦ بعد الحرب العالمية الثانية انتقلت إلى تونس مشيا على الأقدام سرّا ليلا من سوق أهراس فوصلت فجرا إلى الكاف بتونس، ولا أملك أية وثيقة رسمية، فانتقلت إلى عاصمة تونس على متن قطار، وكتب لي أن أشارك في امتحان الدخول إلى الزيتونة، فنجحت والحمد لله في الكتابي والشفوي وحفظ القرآن. وأكثر من أثّر في حياتي العلمية الشيخ **الفاضل بن عاشور** -رحمه اللّه- وكان شخصية لامعة، تشد إليه شدا إذا أخذ في إلقاء محاضرة أو درس، وحضرت مرة إلى الخلدونية وهو يلقي محاضرة عن الجزائر من جملة محاضرات عن حواضر العالم الإسلامي وأذكر أنه قال: "إني دخلت الجزائر شرقا وغربا، وأنت إذا زرت عاصمتها حسبت أنها مدينة فرنسية، ولكن إذا توغلت في أرجائها الأخرى وجدت شعبا ذا أصالة في إسلامه وعروبته وأدركت حقيقته التي لم تتغير أصولها ومقوماتها"، وكان شيوخ الزيتونة يحترموننا نحن الطلبة الجزائريين ويهتمون بنا، وفي عهد العلامة **محمد الطاهر بن عاشور** في توليه مشيخة الجامع الأعظم وفروعه أي جامع الزيتونة عرفت الزيتونة تطورها وتوسعها وإدخال العلوم العصرية في برامجها.

وفي القاهرة كتب لي أن أسجل في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم الدراسات الفلسفية والنفسية، وحضرت أواخر محاضرات **طه حسين**، ومن الأساتذة الذين تأثرت بهم الدكتور **عثمان أمين** والدكتور **أحمد فؤاد الأهواني**، والدكتور **زكي نجيب محمود** وكان في أشدّ خوضه في الفلسفة الوضعية ♦♦♦

إذ ذاك، والدكتور **يوسف مراد** في علم النفس، وتأثرت كذلك بالشيخ **أبو زهرة** وكان بقسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

وكان الأستاذ **مالك بن نبي** في القاهرة منذ 1956 فعرّفني به الأخ **معمّري** من الجزائر وهو الآن بمدينة البليدة وكان مديرا للشؤون الدينية حفظه اللّه، وتعلمت منه ما لم أتعلمه بجامعة القاهرة فكرا، وتحليلا منهجيا، في ندوته الأسبوعية بمنزله.

• حين اندلعت الثورة وكنت يومها طالبا كيف تفاعل الطلبة الجزائريون مع أحداثها؟ وحين عدت بعد الاستقلال إلى أرض الوطن واشتغلت بالتدريس في جامعة الجزائر، وأشرفت على تكوين جيل من العلماء والباحثين. حدثني عن هذه المرحلة بشيء من الاختصار.

•• عندما اندلعت الثورة الجزائرية العظمى كنت في تونس عضوا في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين فرع تونس مسؤولا عن الشؤون الثقافية، وقبلها كنت في خلية من خلايا حزب الشعب منذ 1953، وفي سنة 1954 دخلنا في خلية أخرى من خلايا جبهة التحرير، وكان الطلبة يتشوقون إلى المشاركة في الثورة والدخول إلى الجزائر وإلى جبالها، وسجلت الجماعة الأولى أسماءها، وانخرطوا في جيش التحرير، وكانت أحداث وأحداث يطول الحديث عنها، وكنا نتدرب على الأعمال الفدائية لدى أحد الإخوة التونسيين الأستاذ **الطاهر قيقة** -رحمه اللّه-.

وعندما تم الاستفتاء واستقل وطننا العزيز أمرتنا الحكومة المؤقتة بالدخول إلى العاصمة، وكلفنا بتدريب المعلمين الذين يفتحون أول سنة دراسية في عهد الاستقلال في مدرسة المعلمين ببوزريعة، في عدة دورات يأتيها المعلمون المتدربون من كل أنحاء الجزائر، وتكونت لجنة إعداد الكتب الدراسية في اللغة العربية وأعضاؤها هم **عبد الرحمن الجيلالي** و**عبد اللّه شريط** و**الهادي السنوسي**، و**عمار الطالبي**، و**حنفي بن عيسى**.

وفي نوفمبر 1963، عينت مدرسا بجامعة الجزائر في عهد عميد كلية الآداب "**جون لاسيس**" وهو فرنسي ثم عُيّن **سعد الدين ابن شنب**، وكنت ممن أنشأ قسم الفلسفة باللغة العربية، وتوليت رئيس قسم الفلسفة، وأشرفت على عدة رسائل في الماجستير والدكتوراه، وممن تولى مدير التعليم العالي في ذلك الوقت أستاذنا **مالك بن نبي** -رحمه اللّه- وكان يقوم بمحاضراته في الحضارة، والثقافة والإيديولوجية مقاوما للمدّ الماركسي والتروتسكي الذي سيطر على الساحة السياسية.

• أنت عضو في عدة هيئات علمية في الجزائر وفي الخارج. كيف تقيّم واقع البحث العلمي في العالم العربي والإسلامي؟

•• عينت في عدة منظمات منها مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ 1982، ومؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي بالأردن، والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين عضوا مؤسسا، وعضو مجلس أمناء المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، وعضوية أكاديمية المملكة المغربية، وعضو لجنة التعريب في الجزائر، وعضو اللجنة الوطنية لمعادلة الشهادات الجامعية، وعضو لجنة محو الأمية منذ 1963.

أما البحث العلمي في العالم العربي فلم يأخذ طريقه المبدع في الجامعات ومراكز البحوث، ولا يخصص له من التمويل بما يكفي بالنسبة لما يخصص في الدول الأخرى من ميزانيات ضخمة، والوضع في هذه البلدان المتفجر، المتدهور لا يسمح ببعث البحث المثمر الذي ينهض بالأمة من التخلف الفظيع الذي ما يزال يجثم على العقول والنفوس.

> يحسن بالمثقف أن لا يحصر نفسه في نطاق ضيق لايتعداه بل يحسن به أن يكون مطلعا على أهم المعارف.

• أستاذنا أنت من المهتمين بتحقيق التراث الجزائري والعربي الإسلامي، كيف بدأت أولى خطواتك في مجال تحقيق المخطوطات، وهل أنت راض عن الواقع الثقافي في الجزائر؟

•• يرجع اهتمامي بالتراث العلمي وتحقيقه إلى الأستاذ الدكتور **أحمد فؤاد الأهواني** -رحمه اللّه- أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة فقد كلفني بنسخ بعض النصوص من كتاب في الرياضيات بدار الكتب المصرية وهو مخطوط ودفعني إلى ذلك أيضا ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه اللّه- من نشره لكتاب "العواصم من القواصم" اعتمادا على نسخة واحدة نقلها من مخطوط بجامعة الزيتونة نبهه إليها شيخه محمد النخلي. وأول ما ألّفت في حياتي العلمية، تراث ابن باديس، اهتممت به منذ 1964 وطبع أول طبعة في سنة 1968 بمقدمة كتبها أستاذنا مالك بن نبي -رحمه اللّه-، وواصلت العمل في هذا الميدان وأنجزت عدة أعمال لا يتسع هذا اللقاء لسردها.

أما الثقافة في الجزائر فهي غالبا في جدب وقحط إذا استثنينا ما نشرته وزارة الثقافة من مؤلفات جزائرية قديمة وحديثة، والعناية بالثقافة تأتي في آخر سلم مجالات الحياة في بلادنا.



أد. طالبي أثناء مناقشة رسالة الماجستير سنة 1969



> لا يوجد إلى اليوم أي مشروع حضاري واضح بل المشروع الذي نراه في الواقع هو مشروع التقسيم، والتبعية الفظيعة للآخرين.

◆ متى تفضل الكتابة وكيف تكتب؟ وهل تؤمن بالكاتب الموسوعي في عصر التخصص؟

◆◆ أفضل الكتابة صباحا بعد الإفطار، وإعداد الأفكار الرئيسية ثم تحريرها وغالبا أكتب المسودات ولا يكون لي وقت لتبييضها. وعصرنا يصعب فيه أن يكون الكاتب موسوعيا لاتساع المعارف وضخامتها، ووقت الإنسان محدود، ومجال المعرفة غير محدود، ومع ذلك يحسن بالمثقف أن لا يحصر نفسه في نطاق ضيق لايتعداه بل يحسن به أن يكون مطلعا على أهم ما يستجد من المعارف، والوسائل اليوم تسمح بذلك بيسر إذا توفرت الهمة.

◆ هل يوجد اليوم مشروعا حضاريا لنهضة العالم العربي؟ وكيف تقيم مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومنهجها في الإصلاح والنهوض الحضاري؟

◆◆ لا يوجد إلى اليوم أي مشروع حضاري واضح بل المشروع الذي نراه في الواقع هو مشروع التقسيم، والتبعية الفظيعة للآخرين، وغابت مسؤولية أهل الثقافة، وانحازوا إلى أنفسهم أو إلى خدمة من يرونه في مصلحتهم من أهل السياسة، وأصبح أغلبهم في عزلة عما يجري في الواقع، فلا تأثير لهم في مجراه وصيرورته.

وجمعية العلماء كان لها مشروع ثقافي يحفظ للأمة وجودها المهدد بالسيطرة الاستعمارية في ظروف في غاية الصعوبة ولكن يمكن القول بأن الظروف الحالية تغيرت، واستجدت أحوال وأهوال تتطلب التفكير في تجديد منهجها ووسائل تحقيق غاياتها، في ظروف تتحدّانا في الداخل والخارج تقتضي يقظة ودرسا لوضع استراتيجية قريبة المدى وبعيدة المدى، تأخذ في الاعتبار معطيات الواقع لتغيير مساره بنظرة علمية شاملة لجوانب هذه المعطيات المختلفة.

أد. طالبي رفقة الشيخ الغزالي

◆ أنت شخصية علمية ووطنية بارزة في الجزائر والعالم الإسلامي ومن حق الأجيال عليك أن تعرف مسارات تاريخية عايشتها وكنت شاهدا عليها فمتى تكتب مذكراتك؟

◆◆ إن أطال اللّه في عمري مدة بعد الفراغ من "مختصر تفسير التحرير والتنوير" أنوي أن أحرر مذكرات تذكر الناس ببعض ما عشته وعاصرته من أحداث ومشكلات عصرنا هذا وفي بلدنا هذا العزيز.

◆ كلمة ختامية دكتور تقولها للقراء من أبناء جمعية العلماء خاصة وللجزائريين عامة؟

◆◆ أوصي أبنائي وإخواني من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اليوم أن يزدادوا علما واطلاعا يوميا فإن ذلك غذاء العقول الفعالة التي تؤهل للقيام بالأعمال عن علم في زماننا هذا.

وأتوجه إلى إخواننا من المواطنين الجزائريين أن يفكروا في مصير أمتهم، وفي سبيل خلاصها من التخلف ولا يكون ذلك إلا بالعلم الذي هو اليوم القيمة الأولى في تقدم الأمم وقوتها الاقتصادية والسياسية والدفاعية، والتأثير في المجتمع الدولي، ولا يجوز لنا أن نغفل عن قضية فلسطين والمسجد الأقصى، وعلى الشباب أن يُعدّوا أنفسهم لتحرير الأراضي المقدسة لا بالخطب والبيانات ولكن بالعلم والابتكار لوسائل التحرير العلمية، وما هزمنا إلا من تخلفنا الفكري والعلمي وخاصة العلوم الدقيقة التي غفلنا عنها، وانحصر اهتمامنا بعلوم اللغة والفقه في عصر الانحطاط، وأهملنا علوم الدنيا التي وجهنا إليها القرآن في غير ما آية فهذه العلوم الدنيوية صنوان مع العلوم الشرعية والإنسانية، وكلاهما يؤهل للعزة في الدنيا، والحياة الأبدية في الآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ◆◇

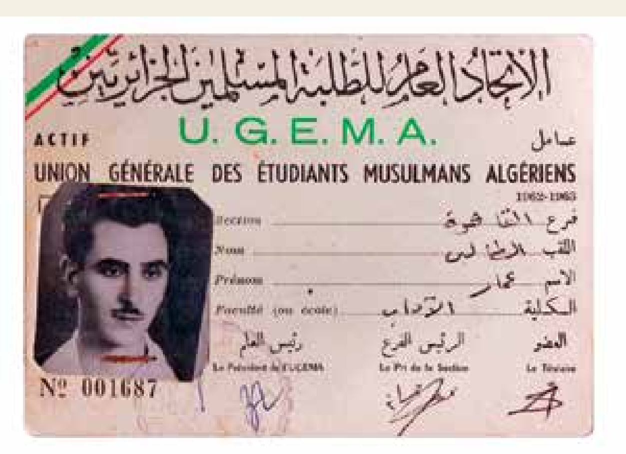

Décret du 1er Janvier 1937 - Art. ... - Durée de la validité de la carte : CINQ ANS

CARTE D'IDENTITE

Nom: Talbi
Prénoms: Ammar
Nationalité: Française
Né le: 17 février 1934
à: Aliennas (Khenchela)
Dépt: Constantine
Profession: Etudiant
Domicile: Mellassine

100 FRANCS

2072


الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

ACTIF — U. G. E. M. A. — عامل

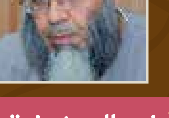
UNION GÉNÉRALE DES ÉTUDIANTS MUSULMANS ALGÉRIENS

1962-1963

Section — فرع
Nom — اللقب
Prénom — الاسم
Faculté (ou école) — الكلية

رئيس العام	الرئيس الفرع	العضو
Le Président de l'UGEMA	Le Pt de la Section	Le Trésorier

N° 001687



أ. نور الدين رزيق

أمين المال الوطني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ظاهرة الغلو في التكفير:

بعض القواعد والحقائق الشرعية

إن لكل ديانة أو مذهب عقيدة يحملها أصحابها ويقيمون عليها نظام حياتهم وسيبقى ذلك إلى أن يشاء الله، والعقيدة قسمان:

الأولى: العقيدة الصحيحة وهذه خاصة بما جاء به الرسل في أي زمان ومكان وهي واحدة لأن مصدرها واحد.

الثانية: العقائد الفاسدة منبعها البشر أنفسهم ومن ذلك يكمن فسادها بحيث مهما علت ورقت فهي نتائج تأثير العادات والتقاليد والأفكار والأهواء.

والعقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ليخرج من الضياع والمتاهات وهي الوحيدة التي تجيب عن التساؤلات التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر الإنساني.

العقيدة والإيمان:

الإيمان ليس هو العقيدة فقط بل قال علماء السلف فيه "الإيمان اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان"، فالعقيدة هي قاعدته وأصله، حيث تستقر في القلب ويعلن صاحبها بلسانه عنها ويصدق الاعتقاد بالعمل والقول بمقتضياتها، فالصلة وثيقة بين عقيدة تسكن في القلب وعمل يظهر على الجوارح وفقدان أحد الركنين يعني فقدان الإيمان ومن هنا يجب الاعتناء بفعل الأعمال التي فرضها الله علينا وبيّنها رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

الإيمان والكفر:

يجب الرجوع إلى النصوص من القرآن والسنة لنقرر في ضوئها القواعد أو الحقائق الشرعية التي يجب الاحتكام إليها في مثل هذا الموضوع الخطير ألا وهو التكفير.

القاعدة الأولى:

بماذا يدخل الإنسان في الإسلام؟

يدخل الإنسان الإسلام بالشهادتين، فمن أقر بهما بلسانه فقد دخل الإسلام وأجريت عليه أحكام المسلمين وإن كان كافرا بقلبه، لأننا أمرنا أن نحكم بالظاهر وأن نكل إلى الله السرائر، والدليل على ذلك:

1. حديث **أسامة بن زيد** عند البخاري وغيره، أنه قتل رجلا شهر عليه السيف فقال:"لا اله إلا اللّه" فأنكر عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- أشد الإنكار، وقال: {أقتلته بعدما قال: "لا اله إلا اللّه"} فقال: إنما قالها تعوذا من السيف؟ فقال: {هل شققت على قلبه}، وفي روايات: {كيف لك بـ:"لا اله إلا اللّه" يوم القيامة}.

2. حديث أبي هريرة -رضي اللّه عنه- قال: قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: {أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللّه، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه} متفق عليه.

القاعدة الثانية:

من مات على التوحيد استوجب الجنة.

فمن مات على التوحيد (لا اله إلا اللّه) استحق عند اللّه أمرين:

الأول: النجاة من الخلود في النار، وإن اقترف من المعاصي ما اقترف مادام في قلبه مثقال ذرة أو حبة خردل من إيمان.

الثاني: دخول الجنة لا محالة، وإن تأخر دخوله، والدليل على ذلك:

1. في الصحيحين أيضا من حديث **أبي ذر** -رضي اللّه عنه- أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: {أتاني جبريل يبشرني: أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق}.

2. عن أنس-رضي اللّه عنه- أن رسول اللّه -عليه الصلاة والسلام- قال: {يخرج من النار من قال"لا إله إلا اللّه" وكان في قلبه من الخير ما يزن برة (حبة قمح)}.

القاعدة الثالثة:

إن الإنسان بعد دخوله في الإسلام بعد الإقرار بالشهادتين يصبح ملتزما بكافة أحكام الإسلام.

فليس له الخيار، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

مُبِينًا﴾. وقوله جلا في علاه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ومن المهم أن تعرف هنا، أن من أحكام الإسلام من الواجبات والمحرمات والعقوبات وغيرها من التشريعات ما ثبت ثبوتا قطعيا وأصبح من الأحكام اليقينية التي يطلق عليها اسم **"المعلوم من الدين بالضرورة"** كفرضية الصلاة وحرمة القتل والسرقة وأكل الربا، وكأحكام الزواج والطلاق والحدود والقصاص وهلم جرا، فمن استخف بها واستهزأ وأنكرها فقد كفر كفرا صريحا وحكم عليه بالردة عن الإسلام ولا يستثنى من ذلك إلا من كان حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة عن أمصار المسلمين.

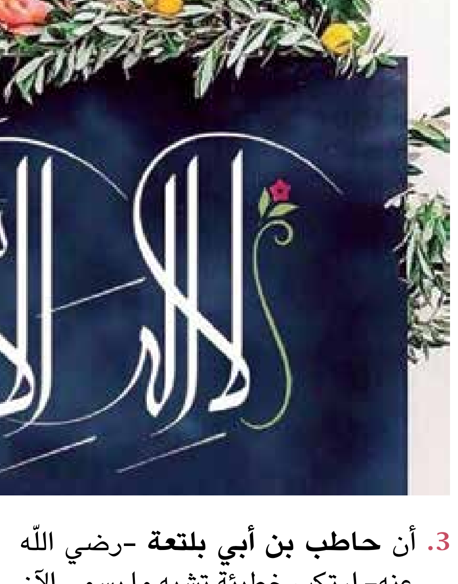
القاعدة الرابعة:

كبائر المعاصي تنقص الإيمان ولكنها لا تهدمه.

إن المعاصي والكبائر وإن أصر عليها صاحبها ولم يتب منها تخدش الإيمان وتنقصه ولكنها لا تنقضه من أساسه ولا تنفيه بالكلية، والدليل على ذلك:

1. إنها لو كانت تهدم الإيمان من أصله وتخرج صاحبه إلى الكفر المطلق لكانت المعصية والردة شيئا واحدا. وكان العاصي مرتدا، ووجب أن يعاقب عقوبة المرتد ولم تتنوع عقوبة الزاني والسارق وشارب الخمر وقاطع الطريق والقاتل وهذا مرفوض بالنص والإجماع.

2. إن القرآن أثبت الإيمان للطائفتين المقتتلتين في قوله تعالي:﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. فأثبت لهم الإيمان والأخوة الدينية مع وجود الاقتتال، وقوله -عليه الصلاة والسلام- {إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار} بهذا استدل البخاري فيما استدل بأن المعاصي لا يكفر صاحبها لأن الرسول سماهما مسلمين مع توعدهما بالنار.



3. أن **حاطب بن أبي بلتعة** -رضي اللّه عنه- ارتكب خطيئة تشبه ما يسمى الآن **"الخيانة العظمى"** وقال **عمر بن الخطاب** -رضي اللّه عنه- لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "دعني يا رسول اللّه اضرب عنقه فقد نافق" واعتذر -عليه الصلاة والسلام- له بأنه من أهل بدر ولم يعتبر عمله ذلك نقلا له من الإيمان إلى الكفر وجاء القرآن يؤكد ذلك في سورة الممتحنة فقال اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله:﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾.

4. ما رواه البخاري من حديث **أبي هريرة** -رضي اللّه عنه- في قصة شارب الخمر، الذي أمر -عليه الصلاة والسلام- بضربه فضربوه، فلما انصرف قال بعض القوم: "أخزاك اللّه"، فقال -عليه الصلاة والسلام-: {لا تقولوا هكذا، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم}.

5. ثبت فيما رواه البخاري عن رجل في عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- قد جلده في الشراب فأتى به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: "اللّهم العنه ما أكثر ما يؤتى به!" فقال -عليه الصلاة والسلام-: {لا تلعنوه فواللّه ما علمت إلا أنه يحب اللّه ورسوله}.

ونقل **ابن حجر** عن **ابن عبد البر** أنه ضرب خمسين جلدة والنبي ينهي عن لعنه: ويقرر أنه يحب اللّه ورسوله ويقول ابن حجر في بيان فوائد الحديث في الفتح ما يلي:

أ. في الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن لعنه والأمر بالدعاء له.

ب. وفيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة اللّه ورسوله في قلب المرتكب.

ج. وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة اللّه ورسوله.

د. ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان عن شارب الخمر أي في الحديث: لا يشرب الخمر وهو مؤمن -لا يراد به زواله بالكلية بل نفي كماله-

6. الأحاديث الصحيحة التي أوجبت لمن قال **"لا إله إلا اللّه"** الجنة وإن زنى وسرق.

7. ما صح واستفاض عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه يشفع لأهل الكبائر من أمته. وهذا يدل على حكمين مهمين:

أولها: أنه لم يخرجهم عن حظيرة أمته باقتراف الكبيرة.

ثانيتها: إن اللّه سيرحمهم بهذه الشفاعة، إما بإعفائهم من دخول النار أصلا وإن استوجبوها بذنوبهم وإما بإخراجهم منها بعد أن دخولها وعذبوا فيها زمنا فهم غير مخلدين في النار قطعا.



القاعدة الخامسة:

ما عدا الشرك تحت إمكان المغفرة.
إن الذنب الذي لا يغفر بعد الموت هو الشرك باللّه تعالى ما عداه من الذنوب – كبرت أم صغرت –، فالمذنب في مشيئته تعالى فإن شاء عذبه بعدله وإن شاء غفر له بمنه وفضله.قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.
أما المعاصي فقد قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.
قال الإمام **ابن تيمية**: "أما التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ وهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق". [المجموع ج 7 ص 474].

وقد جاء عند البخاري عن **عبادة بن الصامت** –رضي اللّه عنه– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال –وحوله عصابة من أصحابه–: {بايعوني على أن لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على اللّه، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره اللّه، فهو إلى اللّه، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه}.
والحديث واضح الدلالة على أن ارتكاب الموبقات التي اشتملت البيعة على اجتنابها لا يخرج صاحبها من الإسلام بل من عوقب عليها كانت العقوبة طهارة وكفارة له، وإلا فهو في المشيئة.
وهو رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب وعلى المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة.

القاعدة السادسة:

انقسام الكفر الوارد في النصوص إلى أكبر وأصغر.
إن الكفر في لغة القرآن والسنة قد يراد به الكفر الأكبر وهو الذي يخرج الإنسان من الملة بالنسبة للأحكام الآخرة، قد يراد به الكفر الأصغر وهو الذي يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود في النار بالنسبة لأحكام الدنيا ويوجب له الخلود بالنار بالنسبة للأحكام الأخروية.
وقد يراد به الكفر الأصغر وهو الذي يوجب لصاحبه الوعود دون الخلود في النار ولا ينقل صاحبه من ملة الإسلام.

فالكفر في المعنى الأول هو الإنكار أو الجحود المتعمد لما جاء به –عليه الصلاة والسلام– أو بعض ما جاء به، مما علم من الدين بالضرورة.
والكفر بالمعنى الثاني، يشمل سائر المعاصي التي يخالف بها أمر اللّه تعالى أو يرتكب بها ما نهى عنه وفيه جاءت أحاديث كثيرة.
مثل {لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض}، {من حلف بغير الله فقد كفر}، {سباب المسلم فسوق وقتاله كفر} {من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما}... وإنما قلنا: أن الكفر الوارد في هذه النصوص وأمثالها ليس كفرا لأدلة شرعية منها:

1. فقد تقاتل الصحابة (معركة الجمل والصفين) ولم يكفر بعضهم بعضا بل اعتبر **علي** –رضي اللّه عنه– من قاتله بأنهم بغاة.
2. أثبت القرآن الإيمان للطائفتين المقتتلتين كما سبق.
3. أثبتت الأخوة بين المتقاتلين في الحديث السابق.

ونفس الشيء يقال للذين يحلفون بغير اللّه تعالى.
– فالكفر بالمعنى الأول –أعني الكفر الأكبر– يقابله الإيمان.
قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وقوله أيضا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أما الكفر بالمعنى الثاني – الأصغر– يقابله الشكر.
قال تعالى:﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.
وجاء في صحيح البخاري حديث ذكر فيه سبب دخول النساء النار: {إنهن يكفرن!} قيل: "يا رسول اللّه: يكفرن باللّه؟" قال: {يكفرن العشير ويكفرن الإحسان}.

القاعدة السابعة:

إن الإيمان قد يجمع شعبة أو أكثر لكفر، أو جاهلية أو نفاق، ففي الصحيح أن النبي –عليه الصلاة والسلام– قال **لأبي ذر**–رضي اللّه عنه– : {إنك أمرؤ فيك جاهلية}، وقال أيضا: {من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق".

قال الشيخ **ابن تيمية** في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ "فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أُحد، غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب".

القاعدة الثامنة:

إن مراتب الناس متفاوتة في امتثالهم لأمر اللّه تعالى واجتنابهم لنهيه، ولهذا تفاوتت درجات إيمانهم وقربهم من اللّه تعالى ومن هنا قرر علماء السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وقد قرر ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

وهو مدلول قوله –عليه الصلاة والسلام–: {من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان}، وما رواه مسلم عن **ابن مسعود** –رضي اللّه عنه– عن النبي –عليه الصلاة والسلام–: {ما من نبي بعثه اللّه في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل}.



فالحديث يصرح بأن من لم يجاهد هؤلاء الفسقة والظلمة بقلبه ليس عنده أقل قليل من الإيمان.

أهل السنة والجماعة لا يكفرون مسلما بذنب وبدعة ولا يمنعون صلاة خلفه:

من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجُمع والأعياد والجماعات لا يدعون الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين، وقد كان الصحابة -رضي اللّه عنهم- يصلون خلف **الوليد بن عقبة** (أخو عثمان من أمه) صلى بالناس الصبح أربعة ركعات وهو سكران وجلده **عثمان**، وكان **عبد اللّه بن عمر** وغيره من الصحابة يصلون خلف **الحجاج بن يوسف الثقفي** (كان واليا على العراق وخراسان في عهد عبد الملك) وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف **ابن أبي عبيد** وكان متهما وداعيا إلى ضلال.

أهل السنة لا يكفرون المسلم بذنب أو خطأ:

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن اللّه تعالى قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

وقد ثبت في الصحيح (مسلم:كتاب الإيمان ج/116) أن اللّه تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم.

الخوارج أول من كفر المسلمين بالذنوب:

والخوارج يكفرون من خالفهم في بدعتهم ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم في بدعتهم، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب، ويطيعون اللّه ورسوله فيتبعون الحق ويرحمون الخلق.

قال **الإمام أحمد**: "صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه". وقد خرجها مسلم في صحيحه (ج2/743) وخرج البخاري طائفة منها (الفتح 10/552) قال -عليه الصلاة والسلام-:{يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما تمرق الرمية} وفي رواية {يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان}".

المسلم المتأوّل في تكفير غيره أو قتالهم:

إذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال **عمر** -رضي اللّه عنه- في حق **حاطب بن أبي بلتعة** -رضي اللّه عنه- : "يا رسول اللّه دعني أضرب عنق هذا المنافق". فقال -عليه الصلاة والسلام-: {إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني غفرت لكم} (البخاري 8/633) (مسلم 4/194) وفيهما أيضا: من حديث الإفك: {أن أسيد بن الحضير قال **لسعد بن عبادة** -رضي اللّه عنهما-: "إنك منافق تجادل عن المنافقين". واختصم الفريقان وأصلح النبي -عليه الصلاة والسلام- بينهما}. (البخاري 8/454) (مسلم 4/234) فهؤلاء فيهم من قال لآخر منهم إنك منافق، ولم يكفر النبي -عليه الصلاة والسلام- أحدا، وكذا ما ثبت في الصحيحين من قصة قتل **أسامة بن زيد** لرجل أعلن الشهادتين ولهذا لم يوجب عليه قيودا ولا دية ولا كفارة لأنه كان متأوّلا ظن جواز قتل ذلك القاتل لضنه أن قالها تعوذا. فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضا من أهل الجمل والصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما بين ذلك اللّه عز وجل (آية الحجرات 9). فقد بين أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم لشهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم لبعض مع ما كان بينهم من قتال وتلاعن وغير ذلك ◆◇





أ. د. فتحي حسن ملكاوي
أكاديمي ومفكر أردني

الفكرُ المنهجي في التفكير والبحث والسلوك

ما هو الفكر المنهجي؟

عندما يفكِّر الإنسان وَفق منهج، فإنَّ من المتوقع أن يحصل له فكرٌ منهجي. وبقدر سلامة المنهج تكون سلامة الفكر. وقد زوَّد اللّهُ سبحانه الإنسانَ بالأدوات اللازمة للتفكير السليم، وقد ذكر القرآن الكريم، مرات متعددة، هذه الأدوات والوظائف التي تؤديها؛ فالآذان وظيفتها السمع، والأعين وظيفتها البصر، والأفئدة وظيفتها العقل والفقه. وهي أدوات العلم والمعرفة، وبدونها لا يستطيع الإنسان أن يعلم شيئاً:﴿ وَاللّه أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(النحل: 78).

واللّه سبحانه يطلب من الإنسان أن يتثبَّتَ من صحة ما يسمع؛ فليس كلُّ ما يُروى صحيحاً، وأن يتثبتَ من صحة ما يَرى بتكرار الملاحظة والتجربة، وأن يتتبَّع الدليل ويحاكم المقولات بالعقل والمنطق السليم، حتى لا تسوقه الأوهام والظنون والأباطيل بعيداً عن منهج اللّه.ومَثَلُ الإنسان الذي لا يستعمل هذه الأدوات لوظائفها كمثل الأنعام، بل هو أضلُّ. وسوف يسأل اللّه الإنسانَ عن استعماله السليم لهذه الأدوات، وسوف تشهد هذه الأدوات للإنسان أو عليه، على أساس منهج استعماله لها وغرضه من استعمالها.

فكلُّ العلوم تحتاج في بنائها واختبارها وتوظيفها إلى منهج. والفكر المنهجي يميز بين مستويات المناهج، وأنواعها، ودرجة توظيفها لأدوات بناء العلم واختباره وتوظيفه؛ فثمَّةَ مناهج عامة لكل العلوم، ومناهج خاصة بكل علم دون غيره. واختيارُ المنهج المناسب للغرض المناسب هو من الحكمة التي أرسل اللّه الرسل ليعلِّمُوها الناس. فقد منَّ اللّه سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم أنَّه أنزل عليه الكتاب والحكمة ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.(النساء: 113).

والحكمة هنا كما يقول **السعدي** في تفسيره: "معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيلُ الأشياء منازلَها وترتيبُ كل شيء بحسبه"[1].

كذلك منّ اللّه على المؤمنين ببعث الرسول الذي يعلِّمهم الكتاب والحكمة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. (آل عمران:164).

ومن الحكمة اكتسابُ العلم بمناهجه المناسبة له، وفهمُ عناصره وموضوعاته، والتبحُّرُ فيه بأدواته، وإتقانُه في تفاصيله ومستوياته، وتوظيفُه في إصلاح النفس وإصلاح الحياة وعمران الأرض. ومن الحكمة فهمُ الأمور على حقيقتها، ووضعُها في موضعها، ولا يكون ذلك إلا وَفق المنهج الذي يناسب كلاًّ منها.

والدعوةُ إلى اللّه تحتاج إلى فكر منهجيٍّ يوظف المنهج المناسب لحال المدعوين لتتحقق لهم الهداية المنشودة، والمنهج هو الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.(النحل: 125).

والحكمة في هذا السياق كما يقول **ابن عاشور**: "هي المعرفة المُحكمة؛ أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم. ولذلك عرّفوا الحكمة بأنها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض، ولا تخطىء في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكلِّ كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغيّر "[2].

ويمكننا أن نتتبع تطبيقات الفكر المنهجي في تطور العلوم المنقولة والمعقولة، فعند علماء الحديث فِكرٌ منهجيٌّ لقبول الرواية سنداً، وفهمها متناً، وعند علماء التفسير فِكرٌ منهجيٌّ لمعرفة دلالات الآيات وأحكامها ومقاصدها، وعند علماء الفلك فِكرٌ منهجيٌّ في رصد حركة الأجرام السماوية وفهم

---

(1) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد اللّه السعدي (ت: 1376هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، الرياض: دار ابن الجوزي، ط1، 1422هـ، ص 354.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور (ت1393ه)، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984. مجلد 6، ج14، ص 327.

ظواهر الفصول وتعاقب الليل والنهار والكسوف والخسوف وغيرها، باستعمال المراصد والحسابات، وعند علماء الطب فِكرٌ منهجيٌّ يدرس عوامل الإصابة بالمرض وطرق العلاج، باستقراء الحالات والتجريب في المواد والأدوات. وهكذا في كلِّ العلوم. ويمكننا أن نتتبع كذلك ممارسة العلماء قديماً وحديثاً للفِكر المنهجيِّ.

ومع كلِّ ما يمكن أن يقال من تنويه بالمنهج والفكر المنهجي، فلا بد أن نقرر بصورة واضحة أنَّ الفكر المنهجي هو في نهاية المطاف فكرٌ بشري، تتفاوت فيه قدرات المفكرين والعلماء وتتنوَّعُ إبداعاتهم؛ ففي العلوم النقلية مناهج متنوعة في كل من التفسير والحديث والفقه، وغيرها من العلوم، حتى لو وجدنا بعض العناصر المنهجية المشتركة فيها. وفي العلوم العقلية كذلك مناهج متعددة، ونرى الاختلاف والتعدد أكثر وضوحاً في العلوم الاجتماعية والإنسانية، كما في علم الاجتماع وعلم النفس مثلاً.

وعلى الرغم من أنَّ العلوم الطبيعية والتطبيقية تشترك في اعتماد المنهج التجريبي في الأساس، فإنَّ تطبيقات هذا المنهج تتفاوت كثيراً في تصميم مواقف الضبط التجريبي، وكثيرٌ من البحوث التجريبية واجهت نقداً شديداً وتشكيكاً بنتائجها، وكثير من الممارسات العملية المبنية على هذه المناهج قد تبين الخطأ فيها.

لكنَّ وصف الفكر المنهجي بأنَّه جهد بشري يخضع للخطأ والصواب لا يقلِّل من ضرورته وأهميته، وإنَّـما يلفت الانتباه إلى عدد من المسائل منها:

- أنَّ التعدد والاختلاف في الفكر المنهجي يعد أحياناً من ظواهر التنوع المحمود الذي يتناول الظاهرة من زوايا مختلفة ويجعلها أكثر وضوحاً.
- أنَّ الإنسان بحاجة إلى مواصلة الاجتهاد والتجديد لترقية الفكر البشري وتطويره سعياً للاقتراب مما نَظنُّه أكثرَ صواباً، والتخلص مما اكتشفناه من القصور والخطأ.
- أنَّ طبيعة الأسئلة والمشكلات التي تكون موضوعاً للبحث تكون عاملاً مهماً في اختيار المنهج المناسب وتكييفه، وربَّـما يلزم الجمع بين عدد من العناصر المنهجية التي تنتسب إلى فئات مختلفة من المناهج.

الفكرُ المنهجيُّ في البحث العلمي

العالَم المعاصر هو عالم المعرفة الذي تريد كثير من الشعوب أن تعيشه، حتَّى تكون مجتمعاتُـها مجتمعات معرفة. والمهم في المعرفة أولاً إنتاجها، واختبارها، ثم توظيفها برشد وحكمة، وكلُّ ذلك فِكرٌ منهجيٌّ.

وإنتاج المعرفة يتم أساساً عن طريق البحث العلمي. وقد عَرفتْ مناهجُ البحث العلمي من الأساليبِ والأدوات والإجراءات الفنية، ما أصبح مادةً دراسيةً في مؤسسات التعليم في مراحله المختلفة، وما امتلأت به كتب مناهج البحث المتداولة بجميع اللغات. ولكنَّ المهمَّ هو وضع هذه المناهج ضمن خريطة فكرية مناسبة، تبدأ حدودها الزمنية قبل البدء بالبحث، (ما قبل المنهج)، وتتواصل عناصرها مع خطوات البحث حتى انتهائه، بل إنَّ حدودها لا تنتهي إلا ببداية بحثٍ جديد، وبهذا تنمو المعرفة وتتطور عن طريق تواصل البحث العملي في المجالات العلمية والمعرفية، ومع تطور الخبرات وتوالي الأجيال.

فهل ثمَّة جديدٌ في منهجية البحث مختلف عمَّا عرفته مناهج البحث من هذه الأساليب والأدوات والإجراءات؟

من المفيد أن نختبر ما قد يكون جديداً في (**الفكرِ المنهجيِّ**) الذي يضع هذه المناهج في موضعها المناسب على مستويات مختلفة هي: الباحث؛ والمؤسسة، والتخصص، والمجتمع، والأمة، والإنسانية، والباحث المسلم يوازن بين حاجة هذه المستويات ومتطلباتها التي ربما تتزاحم، فيحاول استيعابها بقدر استطاعته، ثم يتجاوز إنجازه في عمله الدنيوي هذا سعياً إلى أجر الآخرة.

وإذا كانت مناهج البحث قد وصلت إلى قدر من الاستقرار، مع تطور محدود في الأساليب والأدوات والإجراءات، يشهد لهذا الاستقرار والتطور المحدود إعادة استعمال كثير من مؤلفات مناهج البحث وطباعتها مرات عديدة عبر عقود زمنية متتالية، فإنَّ الفكرَ المنهجيَّ لا يعرف الثبات والاستقرار، وإنَّما يتغيَّر ويتطوَّر، ويعكس في ذلك حالةَ الباحث، وحالة العلم، وحالة المجتمع، وأنَّى لهذه الثلاثة أن تثبت على حال؟!

في الجامعات أساتذةٌ يمارسون البحث من أجل الترقيات العلمية، وتتيح لهم جامعاتهم تفرّغاً علمياً، ليس لشيء غير اكتساب جديد من المعرفة عن طريق البحث، وفي الجامعات طلبةٌ يحصلون على درجات علمية عليا، ليس إلا عن طريق البحث.

وفي معظم الوزارات والمؤسسات أقسام ودوائر متخصصة للبحث في مجالات اهتمام هذه الوزارات والمؤسسات.

وفي معظم المجتمعات مؤسسات بحثية متخصّصة ليس لها عمل إلا البحث.

ويقاس تقدم الدول بنسبة ما تنفقه من موازناتها على البحث العلمي.

وفي كل مجال من مجالات المعرفة البشرية متَّسعٌ للنموِّ والتطوُّرِ عن طريق البحث، فثمة بحث علمي في الطب، والفيزياء، والبيئة، والاقتصاد، والتربية، واللغة، ومقاصد الشريعة، وفقه المواطنة... وهكذا في كل العلوم الرئيسية وفروعها.

وتستطيع أن تتحدث باستفاضة وإسهاب عن المجلات العلمية المتخصصة في نشر البحوث، والجوائز العلمية التي تُـمنح للبحوث المتميزة في بعض المجالات، على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية. والمؤتمرات التي تنظم لعرض نتائج البحوث يصعب حصرها.

ونسمع في كل يوم عن مكتشفات وصناعات وتقنيات جديدة في مجالات الطب والفلك والاتصال والتواصل، وسائر مجالات الحياة، وكلُّها كما هو معروف نتائج لبحوث علمية متواصلة.

ومع كلِّ ذلك فإنَّنا لا ننسى كم من البحوث العلمية تبيَّن أنَّها مسروقة، أو أنَّ نتائجها مزوَّرة، أو أنَّ بياناتها نُظِّمت وحلِّلت (وطُبِخَت) للوصول إلى نتائج محددة تخدم أغراضاً سياسية أو تجارية أو حتى أيديولوجية-فكرية.!

وكم من البحوث المتقنة التي أجراها أساتذة جامعات وطلبة دراسات عليا ليس لها قيمة نظرية أو عملية، وكم من البحوث التي لا تتصف بشيءٍ من الإتقان حصل أصحابها على الترقيات والدرجات.!

وهذا الذي نتحدث عنها لا يقتصر على مجتمع دون آخر، فلا يخلو مجتمعٌ من مجتمعات العالم من شيءٍ من هذا أو ذلك، ولكن بدرجاتٍ متفاوتة؛ إذ يُعدُّ الخلل في البحوث فضائح عابرة للمجتمعات، ومن الإنصاف أن نستدرك فنقول إن مما يُقلِّل من شأن هذه الفضائح وغيرها من المشكلات المشار إليها كثرة البحوث الجادَّة والمفيدة، والتقدُّمُ الذي

تحقِّقه بعض المجتمعات عن طريق هذه البحوث الجادّة. بينما يُعدُّ الضعف والخلل في إجراء البحوث أو توظيف نتائجها الشأنَ الغالب في مجتمعات أخرى، يؤكِّده التخلُّف والفساد في هذه المجتمعات الأخرى.

وقد نظمت لقاءات ومؤتمرات كثيرة عن واقع البحث العلمي في البلاد العربية، أشارت نتائجها في كثير من الأحيان إلى تدني مستوى الاهتمام بالبحث في هذه البلاد، وانخفاض الموازنات المالية المخصصة للإنفاق على البحث العلمي، والمشاركون في أيِّ لقاءٍ من هذا النوع يتفاعلون مع القضايا المعروضة للبحث والمناقشة، وكلٌّ منهم ينطلق مما يعرفه عن البحث العلمي في بلده ومؤسسته. ومع أنَّنا نقرِّر دائماً أنَّ علاجَ أيِّ مشكلة يتحدَّد في ضوء التشخيص الصحيح للمشكلة، لكنَّنا في معظم الأحيان نستهلك الوقت والجهد في اللقاءات والمناقشات العلمية في وصف المشكلات وتشخيصها، ولا نعطي للعلاج إلا القليل.!

مفاهيم المنهج في التفكير والبحث والسلوك

مفاهيم المنهج والمنهجية والبحث والدراسة ليست مفاهيم لغويةً وفنيَّة وحسب، وإنَّـما هي مفاهيم فكرية عميقة ترتبط برؤيتنا إلى العالم ووظيفتنا فيه. فإذا كانت رؤية العالم تُـحدِّد العناصرَ المكونة لنظام الاعتقاد ونظام القيم ونظام المعرفة، وما بين هذه النظم وعناصرها من علاقات، وإذا كان النظامُ المعرفي يحدد للإنسان مفهومَ المعرفةِ التي يكتسبها البشر وبِنْيَتَها وأنواعَها، ومصادرَ استمدادها، وأساليبَ اكتسابها، فإنَّه يحتاج إلى إطارٍ مرجعيٍّ لكلِّ ذلك، وهو ما نُسميه "منهجية التكامل المعرفي" لتفكير الإنسان المسلم، وعمليات بحثه وأنماط سلوكه. ومنهجية التكامل المعرفي هذه ليست شيئاً طارئاً في الإنسان المسلم، وليست أمراً مُستحدَثاً، فنحن نفهمها بالاعتماد على النقل الصحيح، والعقل الصريح، والطبائع الفطرية، والوقائع الموضوعية.[3]

وترتبط مفاهيم المنهج والمنهاج والنهج بحركة الإنسان وتعامله مع الأشياء والأحداث والظواهر، وهي حركةٌ واعيةٌ تبدأ وتسير في اتجاه، لتنتهي إلى نتيجة، وفيها النجاح أو الفشل، وفيها الهدى أو الضلال. ومع أنَّ القرآنَ الكريمَ قد ذكر المنهاج –بهذا اللفظ– مرةً واحدةً،[4] فقد جاء معنى المنهاج في القرآن الكريم في ألفاظ متعددة، فالمنهاج هو السبيلُ، والطريقُ الواضح الموصل إلى المورد، والسُّنَّةُ المتَّبعة، والصِّراطُ المستقيم، وهو الحق المبين الذي يميز بين الهدى والضلال، فمن كان على المنهاج فهو على هدى وبصيرة، ومن تنكَّبه فهو في الضلالة والعمى.

- فالمنهج في الأساس منهجٌ في التفكير، قبل أن يكون أيَّ شيءٍ آخر، فليس ثمة سَعْي بشري لا يسبقه ويرافقه تفكير، وفق منهج معين. والفِكْرُ والتَّفكيرُ والتَّفكُّرُ عملياتٌ عقلية تختصُّ بالنوع الإنساني، وتميِّزه عن الكائنات الأخرى، ويتم في هذه العمليات تذكُّر ما سبق من نتائج هذه العمليات لبناء نتائج جديدة، وفيها تدبُّرُ ما يُبنى على هذه النتائج من أعمال وممارسات، من أجل أن يتصور الإنسان مآلاتها في العاجل والآجل. والتفكِيرُ والتَّفكُّر والتَّفَاكُرُ يقع من الناس مثنى وفرادى، تشاوراً بين اثنين، وتفكيراً مستقلاً فردياً، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.(سبأ: 46). وتقع شورى في الجماعة من الناس. وعمليات التفكير والتفكُّر والتدبُّر والتذكُّر وفق منهج سليم تُـخرِجُ الإنسان من التبعية والإمَّعِيَّة وثقافة القطيع والانقياد الأعمى، وتُعين على الاجتهاد والإبداع والتجديد، فيكون الاكتشاف والنموّ والتطوُّر والتقدُّم.

وتتنوَّع مناهج التفكير وتتعدّد ضمن فئات ومعايير مختلفة، فمنه: التفكير البدهي والمنطقي، والسطحي والعميق، ومنه: التفكير السببي والمقاصدي، ومنه: التفكير الاستراتيجي والنظر في البدائل، ومنه: التفكير الاستشرافي المستقبلي، ومنه: التفكير الناقد والتفكير الإبداعي، وهكذا. ولو تأملنا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية فإننا سنجد شواهد وأمثلة على هذه الأنواع.

- والمنهج هو منهجٌ في البحث، يسبقه ويرافقه التفكير؛ وَفْقَ طرق وإجراءات وأخلاقيات توافقت عليها الجماعة العلمية في كلِّ تخصُّص، وللباحث المسلم فيها نصيبُه من التوظيف والاستثمار، وله، وعليه الإسهام في التطوير والتميّز والإبداع. والبحثُ فعلٌ بشريٌّ يتحدّد في ضوء عِلْم، ويحتاج بذل جهد، ويبتغي الوصول إلى هدف. فهو جهدٌ عقليٌّ وعمليٌّ هادفٌ، وفق منهج مناسب، لتحصيل علم ومعرفة موثوقة، للإجابة عن سؤالٍ أو حلِّ مشكلة، أو تطوير ممارسة. والعمل البحثي يقوم به الفرد، والمؤسسة، والمجتمع.

ونميز في مناهج البحث بين فئات مختلفة، وفق معايير تصنيف هذه المناهج، فثمة مناهج بحث تاريخية ووصفية وتجريبية وفق معيار الزمن، ومناهج بحث كمية وكيفية وفق معيار نوع البيانات، ومناهج بحث نظرية وتطبيقية وفق معيار الهدف، وهكذا.

- والمنهج هو كذلك منهج في السلوك والممارسة والعمل، عندما يتجاوز هذا العمل العادة المستحكمة في سلوك الإنسان، هذه العادة التي تجعل الإنسان أحياناً يمارس العمل دون وعي. فالمنهج يقوِّم سلوكَ الإنسان وممارسته لأعماله حين يكون ذلك على هُدى وبصيرة، وحين يستقيم تفكيره في هدف العمل وطريقته، وحين يوظِّف ما هو متاح من معرفة موثقة قاد إليها البحث الجادُّ.

ممارسة العمل وفق منهج يستدعي من الإنسان إرادته لهذه الممارسة، وذاكرته عن متطلبات ذلك العمل، ويبقى عقله متنبِّهاً لضمان نتيجته المرجوَّة. أما العادة المستحكمة فتأخذ صاحبها في عمل لا تتحكم فيه الذاكرة والإرادة والمراقبة العقلية. وممارسة العمل وفق منهج يدفع عن الإنسان حالات الانفعال التي يصل فيها حبُّ العملِ أو كراهيته إلى حالة من القلق النفسيِّ، يُسْقِطُ فيها الإنسانُ بعضَ القواعد الأساسية في العمل نسياناً أو قصداً.

أجل! أمَّتُنا اليوم أحوج ما تكون إلى الوعي بالمنهج، وبناء فكرها المنهجي وممارسته في التفكير وفي البحث في السلوك ◆◇

---

(3) ملكاوي، فتحي حسن. منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية. عمان، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2016. انظر بوجه خاص المخطط ص 19.

(4) وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.﴾ (المائدة: 48)



فكرية | ثقافية | إصلاحية

تصدر عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

شعارها

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

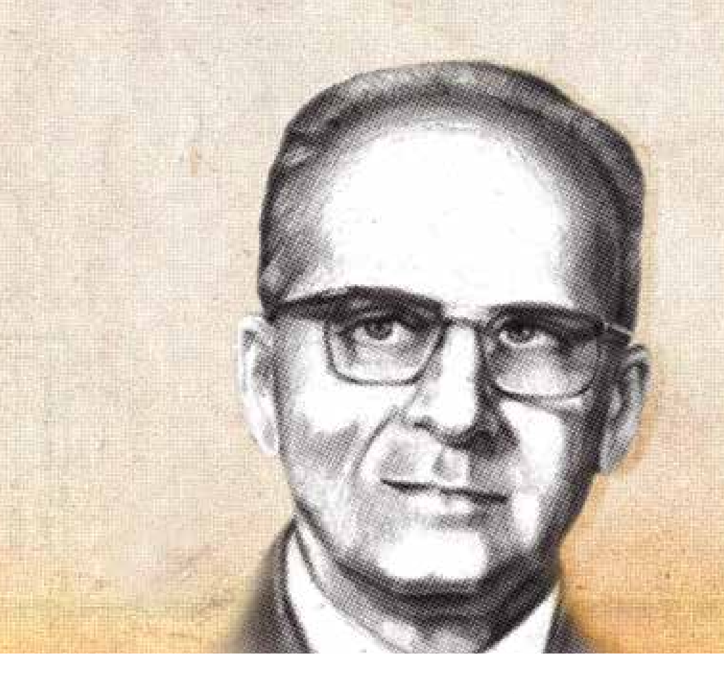
النحل: 89

facebook.com/oulamaalg www.oulama-dz.org tibyane.majala2016@gmail.com



أ.د. عبدالله لعريبي
أستاذ جامعي وباحث

لماذا لم يكن فكر مالك بن نبي واسع الانتشار؟!



كان والدي يقول دائما لوالدتي: "سأعود بعد ثلاثين سنة وسيفهمني الناس!"[1].. هكذا قالت رحمة، أصغر بنات المفكر الجزائري الفذ مالك بن نبي رحمه الله، الذي احتار أهل الفكر والذكر في وصفه حتى تعدد نعتهم له فهو: (مهندس الحضارة)، و(طبيب الحضارة)، و(فيلسوف الحضارة)، و(فقيه الحضارة)، و(ابن خلدون القرن العشرين)...

بالفعل يتعاقب الليل والنهار وتمضي عشرات السنين عن رحيل مالك بن نبي، وتحتفل بلاده الجزائر رسمياً لأول مرة بذكرى وفاته، ويَعقد له المجلس الإسلامي الأعلى ندوة دولية بعنوان "مالك بن نبي .. فكره وأعماله" أيام 18-19-20 من شهر أكتوبر سنة 2003م، تحت الرعاية السامية للسيد رئيس الجمهورية الذي أرسل بالمناسبة كلمة قيمة تلاها نيابة عنه أحد مستشاريه الدكتور **محمود بوعياد**.

قد تخطر ببال بعض المهتمين بقضايا النهضة عامة وفكر مالك بن نبي خاصة تساؤلات مشروعة عن الأسباب التي حالت دون الانتشار الواسع لأفكاره في الماضي، وهل يعود ذلك لأسباب موضوعية أم هي نتيجة منطقية لعمل منهجي مقصود؟ وما هي الحقيقة في كل ذلك؟

نحاول في هذا المقال إلقاء بعض الأضواء الهادية للإجابة عن التساؤلات المثارة آنفاً.

من خلال تتبعنا لحياة مالك بن نبي -رحمه الله- الحافلة بالعطاء الفكري الحضاري المتميز وغير المسبوق في العالم الإسلامي والمشحونة كذلك، للأسف الشديد، بمضايقات المخابر الفكرية الاستعمارية التي كانت تلاحقه في كل حين وآن! ثم التهميش الذي لاقاه من بعض بني وطنه وكذلك سوء التقدير لمنزلته ورجاحة أفكاره من بعض رموز الدعوة الإسلامية آنذاك، يمكننا القول أن قلة انتشار فكره في الزمن الماضي يعود إلى جملة من الاعتبارات نرصدها فيما يلي بشيء من التفصيل:

> قد تخطر ببال بعض المهتمين بقضايا النهضة عامة وفكر مالك بن نبي خاصة تساؤلات مشروعة عن الأسباب التي حالت دون الانتشار الواسع لأفكاره في الماضي

لغة الكتابة:

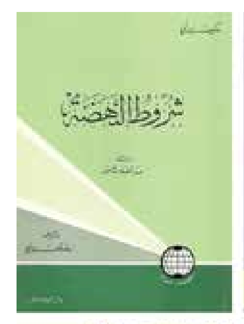
أول ما يتبادر إلى الذهن أن من الأسباب التي حدّت من انتشار فكر **مالك بن نبي** أنه مكتوب باللغة الفرنسية، وهذا صحيح إلى حد ما، ذلك لأن **مالكا** كتب في فرنسا، بدءً من سنة 1946م، أولى كتبه باللغة الفرنسية التي كان يمتلك ناصيتها حتى أنه أضاف إليها كلمات جديدة مثل (Colonisabilité) "القابلية للاستعمار"، و(Choséisme) "الشيئية".. لا شك أن اللغة المستعملة في كتابة (الظاهرة القرآنية)، الموجهة للمثقفين بالفرنسية في زمن الاستعمار، كانت هي اللغة المناسبة. لكن الأسلوب الراقي الذي حرر به مالك كتبه جعل القارئ لها يجد صعوبة بالغة للوصول إلى كُنه أفكاره العميقة وغير المسبوقة آنذاك، خاصة إذا علمنا أن المتمكنين من لغة **فولتير**(Voltaire) **وهيقو**(Hugo) في العالم العربي والإسلامي كانوا قلة قليلة.

لكن هذا السبب الموضوعي، في تقديري، زال تدريجياً بعدما قرر مالك سنة 1956م

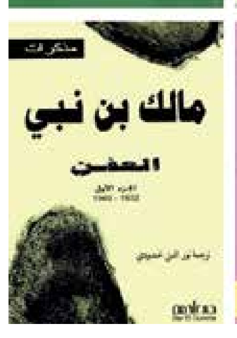
> كان السائد آنذاك أن كل المصائب التي نزلت بالعالم العربي والإسلامي مردها إلى الاستعمار أولاً وأخيرا !، فإذا بمالك بن نبي "يُقلب" المفاهيم رأساً على عقب.











مغادرة فرنسا والذهاب إلى مصر أين أشرف بنفسه على ترجمة كتبه إلى لغة الضاد فاسحاً بذلك المجال لكتبه أن تشق طريقها إلى عقول الشباب العربي.

لكن هل بزوال العائق اللغوي تزول معه أسباب محدودية انتشار فكره؟، أم أن هناك أسبابا أخرى أعمق اعترضت سبيل الانتشار الواسع؟، فما هي يا تُرى؟

فكر عميق وأسلوب علمي غير مألوفين:

يمكن القول إن من معوقات انتشار فكر **مالك بن نبي** على نطاق واسع هي:

1. أن الأسلوب الذي أعتمده مالك في كتاباته كان أسلوباً تحليليا علميا، قائما على المنهجية العلمية السائدة في البحث العلمي غير المألوفة في المقالات الأدبية الشائعة بعد عصور الانحطاط على وجه خاص، كما قال لي تلميذه أ.د. **محمد سعيد مولاي**.

2. أن الأفكار التي طرحها آنذاك كانت عميقة وغير مألوفة حتى لدى النخب الفكرية مما جعل البعض ينبهر بها ويعترف بعمقها.

يقول الكاتب المصري الشهير **إحسان عبد القدوس** (1919 - 1990م) في مقال له، صدر سنة 1956م في روز اليوسف، بعنوان (الاستعمار في نفوسنا): "لقد استجمعت عقلي وسمعي لأتابع الأفكار الجديدة لهذا الكاتب الجزائري فإذا به يغوص في الأعماق ويدعني أطفو على السطح ومع ذلك فإني قد أستطيع أن ألخص أفكار الرجل: فهو يرى أن العالم العربي ظل يحارب الاستعمار عشرات السنين لكنه أغفل قابليته هو للاستعمار، كان يجب عليه أن يحارب تلك القابلية التي هي المرض الحقيقي، أما الاستعمار فهو عرض وعلامة لذلك المرض" [2].

إن مفهوم "**القابلية للاستعمار**" المشهور الذي طرحه **مالك بن نبي** لأول مرة سنة 1948م في كتابه (**شروط النهضة**)، والذي يقصد به: "جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية سلبية، تضع المجتمع في حالة من الضعف والقصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به، فيجد نفسه في حالة وهن حضاري يُفقده القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرهاً" [3]، كان مفهوماً جديداً غير مألوف أحدث "انقلاباً كوبرنيكياً"، على حد تعبير **محمد شاويش**، لدى المفكرين والسياسيين على حد سواء!.

كان السائد آنذاك أن كل المصائب التي نزلت بالعالم العربي والإسلامي مردها إلى الاستعمار أولاً وأخيرا !، فإذا بمالك بن نبي "يُقلب" المفاهيم رأساً على عقب! ويوجه أصابع الاتهام إلى أنفسنا أولاً - مصداقاً لقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:165] - ثم إلى الاستعمار ثانيةً!.

يقول المفكر **سعيد جودت**: "كنا غارقين في العداء للاستعمار وكراهية الاستعمار وتحميله لكل المصائب التي نعانيها، فجاء هذا الرجل وطرح تصوراً آخر للمشكلات وسماه بمصطلح (القابلية للاستعمار) حيث كان المصطلح المقابل هو (الاستعمار) والاحتلال الذي شغل الناس كلهم وأنا لما اطلعت على كتابه (**شروط النهضة**) لم أفهم جيداً أبعاد أفكاره ولكنه أطلعني على تفسير مخالف لما هو دارج وبما أنني مرتبط بالقرآن فلم أستغرب فكرة الأستاذ مالك وإن كان جديداً علي كل الجدة الأسلوب الذي يبحث به المشكلات" [4].

لكن، رغم الصدى الكبير الذي أحدثه مفهوم (القابلية للاستعمار) لدى بعض النخب الفكرية والسياسية، فإن هناك، للأسف الشديد، من فسر هذا المفهوم الجديد، على عكس ما أراده **مالك بن نبي**، بأنه يحمل في طياته تشجيعاً للاستعمار وتبريراً له! مما قلص قليلاً من انتشار فكر **مالك**.

وفي كلمة الرئيس التي أشرنا إليها سابقاً إشارة واضحة إلى أن أفكار **مالك بن نبي** لم تُفهم أو لم تُقبل! جاء فيها ما يلي: "ولم يكن، في تحليله الصارم للوضعية المنحطة للعالم الإسلامي، يرجعها لأسباب خارجية، بل حمل الأخطاء لعوامل داخلية، راغباً من ذلك التحفيز على التمعن في الذات والنقد الذاتي لاكتشاف نقائصنا، وهذا ما أدى به إلى صياغة مفهوم (القابلية للاستعمار)، الذي استقطب نقد الجميع لأن الأفكار التي بنى عليها وحملها لم تُفهم أو لم تُقبل" [5].

ورغم ما وُجه لمالك بن نبي من نقد لمفهومه (القابلية للاستعمار)، فان مواقفه -رحمه اللّه- من الاستعمار معروفة تنضح بها مؤلفاته ولا تحتاج منا، في هذا المقال، المزيد من الإيضاح أو الدفاع!

فكر سابق لأوانه:

لا شك أن من الأسباب الرئيسة لكون فكر **مالك بن نبي** لم ينتشر بشكل واسع بل كان مُهمَشاً من قبل التيارات السائدة آنذاك هو أنه فكر سابق لأوانه جاء بنظرية جديدة للحضارة بناء على المنظور السنني الشامل

الذي كان يتبناه وأسس لفكر إسلامي جديد، كما تشير إليه خاتمة كلمة رئيس الجمهورية المُشار إليها آنفاً والتي جاء فيها: "لقد كرس بن نبي كل حياته في التفكير والكتابة والنشاط في خدمة المصالح المعنوية والمادية للدول الإسلامية، وعَينُه دائماً تنظر إلى (المستقبل البعيد). لقد وضع، إلى حد كبير، أسس فكر إسلامي جديد يساير تطور العالم ويعي الرهانات الدولية. لكن فكره كان ولا شك سابقاً لأوانه، فوجد نفسه مهمشاً من قبل التيارات السائدة، إلا أن الأحداث أكدت ما ذهب إليه في نظريته، وأكدت تحليلاته. أما اليوم، فالجامعات والمفكرون بحاجة إلى اكتشاف هذا المفكر من جديد لاستقاء أفكار تساعدهم على الإلمام بدور الإسلام، وتحديد إسهامه في بناء العالم (المعولم) الذي تنبأ به قبل خمسين عاماً "[6].

فلا غرابة إذن من إعراض الناس عن فكر سابق لأوانه! فقليل من الناس فقط من يصبر على دراسة فكر يستشرف المستقبل ويخطط له كما هو حال فكر مالك بن نبي -رحمه اللّه-.

مالك بن نبي وسيد قطب:

ومن بين الأسباب التي جعلت بعض الشباب المسلم يزهد في قراءة كتب مالك بن نبي ما كتبه **سيد قطب** -رحمه اللّه- رداً على تعليق مالك بن نبي عليه لما أراد نشر كتابه بعنوان (**نحو مجتمع إسلامي متحضر**) ثم تراجع عنه واختار عنوان (**نحو مجتمع إسلامي**).

لندع الدكتور **محمد العبدة** يحدثنا عن هذا السبب بشيء من التفصيل. يقول **العبدة**: "ولمالك مشكلة خاصة في انصراف بعض الشباب المسلم عن قراءة إنتاجه الفكري، وهي إحدى الأسباب وليست السبب الوحيد على كل حال؛ فقد كتب **سيد قطب** -رحمه اللّه- : "قد كنت أعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان (**نحو مجتمع إسلامي متحضر**) ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة (متحضر)، ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتب بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ عن (عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام) وأسف لأن هذه العملية - غير الواعية - تحرمني مواجهة المشكلة على حقيقتها. أنا أعذر هذا الكاتب... لقد كنت مثله من قبل... كانت المشكلة عندي -كما عنده اليوم- هي مشكلة (تعريف الحضارة).. ثم انجلت الصورة: (المجتمع المسلم) هو (المجتمع المتحضر)". [7]

> فقليل من الناس فقط من يصبر على دراسة فكر يستشرف المستقبل ويخطط له كما هو حال فكر مالك بن نبي

ويعلق **العبدة** على هذه (المشكلة) قائلا: "وفهم الشباب المسلم أن هذا الكاتب الجزائري واقع تحت ضغط آتٍ من مصادر أجنبية، فكان ذلك سبباً لابتعادهم عن قراءة فكر مالك، ولكن القضية هي قضية مصطلحات؛ فمالك يتكلم عن المجتمع الإسلامي الموجود وأنه يحتاج إلى رفعه إلى مستوى الحضارة حتى يستأنف دوره - وطبعا لا يعني هنا الحضارة الغربية وإنما الحضارة بتعريفه هو - وسيد يتكلم عن المجتمع الإسلامي المنشود وأنه إذا وُجد فثَم الحضارة، والإسلام هو الوحيد الذي ينتج حضارة متكاملة"[8].

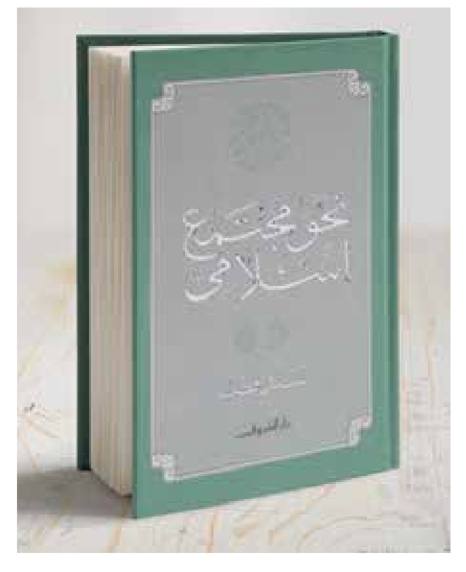
ثم يضيف **العبدة**: "إن ظاهرة انصراف بعض الناس عن فكر معين - بسبب كلمة تقال من عالم مشهور- ليست جديدة ولا غريبة، فعندما ترجم أحد العلماء للمؤرخ ابن خلدون؛ تكلم فيه وانتقد عليه بعض التصرفات الشخصية عنده، فكان ذلك من أسباب إعراض الناس عن (المقدمة) التي تعتبر أعظم ما أنتجه المسلمون في علم الاجتماع وفن النقد التاريخي"[9]

مخابر الصراع الفكري:

إن المشروع الحضاري الذي صاغه مالك بن نبي من أجل أن تنهض الأمة الإسلامية من كبوتها التي طال أمدها وتسترجع دورها الريادي في العالم، لا يمكن أن يمر دون أن توضع في طريقه العقبات من قبل مخابر الصراع الفكري حتى لا ينتشر على أوسع نطاق ولا يؤدي دوره في تحرير العباد والبلاد من الاستعمار بمختلف أشكاله ولا يساهم في البناء الحضاري الجديد.

لقد كان **مالك بن نبي** مدركا تمام الإدراك أن (المخابر المختصة) لن تترك كتبه تشق طريقها دون أن تقف في وجهها، مما جعله يؤكد على ذلك لما أرادت دار الفكر، في سنة 1969م، أن تعيد طبع كتبه، فكتب حينها قائلاً: "يجدر بي، في الوقت الذي يشرع فيه إعادة طبع مجموعة كتبي، أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن الصراع الفكري ما احتد في العالم مثلما يحتد اليوم. بحيث أنني لا أتصور أن هذه الأفكار، المضمنة سلسلة مشكلات الحضارة، تشق طريقها بكل هدوء في هذه اللحظة الخطيرة، دون أن تقف في وجهها أجهزة مختصة لتجري عليها العمليات التي صورتها، تصوراً غير كاف، في كتاب "الصراع الفكري" في


مالك بن نبي — سيد قطب



مناسبة معينة من هذا الصراع، وأنا يومئذ لاجئ سياسي بالقاهرة".[10]

في الواقع، تعود معاناة **مالك** مع (مخابر الصراع الفكري) الاستعمارية التي كان يقف وراءها **لويس ماسينيون** (Louis Massignon) إلى سنة 1932م، لما بدأ نجم مالك يسطع في أوساط طلبة شمال إفريقيا بعد محاضرته "لماذا نحن مسلمون؟" الناجحة التي ألقاها في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا الحديثة النشأة بباريس، ووصفه حينها رئيسها محمد الفاسي بأنه (منظر وحدة شمال إفريقيا)[11].

ونظراً لذكائه ونشاطه ضد الاستعمار يصبح مالك (شخصاً يجب أن يخضع للرقابة)[12]، وهكذا تبدأ معاناته مع **لويس ماسينيون** وشبكته التي تمنعه من الحصول على شهادة مهندس، وهو يومئذ من ألمع الطلبة في دفعته، لما مُنع من إجراء الامتحان التطبيقي الضروري لتخرجه مهندساً من المدرسة العليا للميكانيك والكهرباء بسبب اعتذار المؤسسات والمصالح التي يمكن التطبيق فيها. كما يُنقل فجأة، ومن غير مبرر، والده من منصبه الذي كان يشغله منذ 22 سنة في البلدية المختلطة لتبسة إلى بلدية أريس البعيدة عنها عقاباً له على نشاط ابنه **مالك**[13].

وهكذا، تتوالى المضايقات عليه وعلى أسرته وتُسد في وجهه كل الأبواب أثناء بحثه عن عمل في فرنسا وغيرها من الدول الإسلامية والأوروبية التي اتصل بها بعد أن أنهى دراسته الجامعية.

إن فكره يحظى اليوم باهتمام كبير من طرف الأوساط الجامعية حتى غدا موضوعاً للعديد من الرسائل الجامعية من ماجستير ودكتوراه داخل وخارج وطنه.

إن الذي ذكرناه آنفاً من معاناة **مالك**، بسبب أفكاره ونشاطه ضد الاستعمار، مع **لويس ماسينيون** وشبكته غيض من فيض المعاناة والمؤامرات والكيد التي واجهها هو وأسرته والتي دوَّنها في كتابه (العفن) الذي يغطي الفترة الممتدة من 1932م إلى 1940م.

وتكشف **رحمة**، ابنة **مالك بن نبي**، أن والدها "كان مضطهداً من طرف أياد خفية أو ما كان يسميه والدي "مسيو إيكس" (Monsieur X)، لأنه لم يكن من هواة توجيه الاتهامات المجانية، كان صابرا ومحتسبا، فرغم حجم المعاناة التي عرفها والدي، إلا أنه لم يكن من هواة الجري وراء المناصب، لقد عرضت عليه العديد منها فرفضها حتى أنه اعتذر عن قبول منصب في حكومة غي مولي الفرنسية، لكنه حوصر فكريا حتى آخر أيام حياته، وقزم دوره في وطنه، وهو الذي بُعثت ماليزيا على فكره باعتراف الخبراء هناك في أول ملتقى عن فكره عام 1992م. والدي لم يترك مثلا منصبه في الجامعة لما كان مديراً للتعليم العالي، لكنه أُقيل من منصبه وبرغم ذلك رفض أن يستعمل سائق الجامعة بعد أن تمت تنحيته من المنصب، رغم أنه كان في وسعه أن يفعل ذلك، كان يقول لوالدتي لما احتجت عليه (مثلك مثل الشعب استعملي النقل العمومي)".[14]

هذه، في تقديري، هي بعض الأسباب الرئيسة التي حالت دون الانتشار الواسع لفكر **مالك بن نبي** في الماضي، ومنها، كما بيناه في هذا المقال، ما هو مرتبط بطبيعة الأفكار التي طرحها مالك لكونها عميقة وغير مألوفة وسابقة لأوانها ولأسلوبه العلمي غير المعهود، ومنها ما هو عائد إلى مخابر الصراع الفكري بالإضافة إلى تأثير ما قاله **سيد قطب** -رحمه اللّه- عن **مالك** دون أن ننسى كذلك الموقف السلبي لبعض بني وطنه من مفهوم (القابلية للاستعمار). لكن اليوم، بقاء الحال من المحال!، وجل الأسباب التي ذكرناها زالت، وها هو فكر **مالك بن نبي** يعود من جديد، كما تنبأ هو بذلك حين قال "سأعود بعد ثلاثين سنة وسيفهمني الناس"! إن فكره يحظى اليوم باهتمام كبير من طرف الأوساط الجامعية حتى غدا موضوعاً للعديد من الرسائل الجامعية من ماجستير ودكتوراه داخل وخارج وطنه، وصار فكراً عالمياً يُدرس في بعض جامعات العالم، كما عُقدت له عدّة ملتقيات دولية آخرها الملتقى الدولي الموسوم بـ : (فكر **مالك بن نبي**... بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل)، الذي نظمته جامعة **العربي بن مهيدي** بأم البواقي يومي 28-29 نوفمبر 2017 م

هوامش

(1) رحمة بن نبي، حوار أجرته معها جريدة الشروق اليومي، 2010/8/4م.
(2) محمد شاويش، مالك بن نبي والاستعمار- في نقد قراءة شائعة، مقال الكتروني، 15/07/2011م.
(3) الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، دار قرطبة، الجزائر،2004م. ص35.
(4) جودت سعيد، مالك بن نبي والقابلية للاستعمار، مجلة المجلة، مقال الكتروني، 10/02/2009م.
(5) المجلس الإسلامي الأعلى، مالك بن نبي .. فكره وأعماله. أعمال الملتقى الدولي 20-19-18 أكتوبر 2003م، الجزائر. ص 15.
(6) المرجع السابق. ص 17.
(7) محمد العبدة، قراءة في فكر مالك بن نبي - الحلقة الأولى، مجلة البيان، العدد 14، صفر 1409 / أكتوبر 1988م.
(8) المرجع السابق.
(9) المرجع السابق.
(10) مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، بيروت، 1969م، ص: ظهر الغلاف.
(11) مالك بن نبي، العفن، الجزء الأول 1932م1940-م، دار الأمة، الجزائر، 2007م. ص-28 بتصرف-
(12) المرجع السابق. ص30.
(13) المرجع السابق. ص-39 بتصرف-
(14) رحمة بن نبي، حوار أجرته معها جريدة الشروق اليومي، 2010/8/4م.



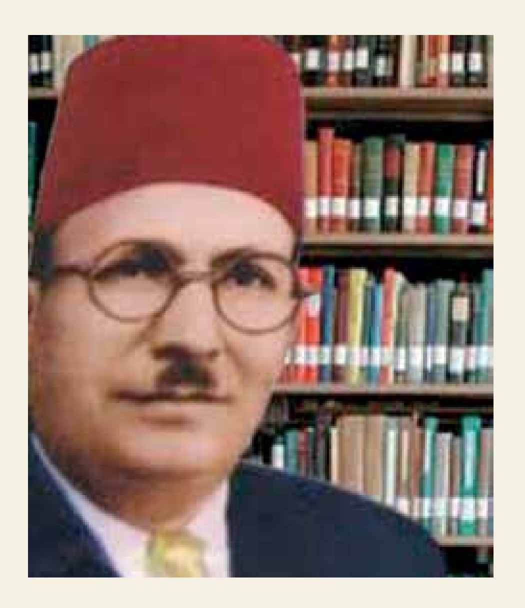


أ. عيسى عمراني

باحث في علم التربية

كامل الكيلاني

"الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية"



كامل الكيلاني "الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية" هي شهادة فارس البيان الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في الأديب المصري كامل الكيلاني رائد الكتابة للأطفال في العالم العربي، وردت في رسالة بعث بها إليه من بغداد، يهنئه فيها بمناسبة العيد، ونشرتها صحيفة (منبر الشرق) العام 1952.[1]

لقد عزا الشيخ الإبراهيمي -في رسالته- سبب فساد العلم ورجاله إلى الكتب الفاسدة، وأن استقامة الإنسان تبدأ بتقويم الطفل، وهذا يتوافق مع ما يقرُّ به علم النفس التربوي اليوم من أن أغلب الأنماط السلوكية التي يتبعها الراشد ويقوم بها في حياته، إن هي إلا ترجمة لما تلقّاه خلال طفولته نتيجة التفاعل بين الفطرة والتعلم، عكس ما يعتقده البعض من أنها مرحلة سلبية وأن الطفل لا يعدو أن يكون رجلاً صغيرًا.[2]

إن الدراسات السيكولوجية المعاصرة تثبت أن أسس الشخصية تُبنى في السنوات الخمس الأولى من عمر الإنسان، مما يستوجب إيلاء أهمية خاصة لهذه المرحلة قبل فوات الأوان واستفحال الداء، بل أضحى أساسا الاعتناء اللازم الكافي بالطفولة، وتثقيفها ثقافة واعية، ذات جذور راسخة وأجنحة واعدة، إن أردنا تنشئة جيل سوي سليم مستقيم، وهذا على رأي القائل:

قد ينفع الأدبُ الأطفال في صغرٍ
وليس ينفع ذا الشّيْبةِ الأدبُ
إنّ الغصون إذا قوّمْتَهـــا اعتدلتْ
ولن تَلِين إذا قوّمْتها الخُشُبُ

وللتربية وسائل تقوم بنقلها وتُسهم في ترسيخها وتجسيدها منها: القدوة الحسنة- وهي أهمها وأقربها إلى النجاح – والموعظة (وهي أقلها تأثيرا إن وظفت بأسلوب مباشر خال من التشويق...)، ومبدأ الثواب والعقاب (وله أصوله) والعادة، وتفريغ الطاقة، وملء الفراغ، والتربية بالأحداث، والقصة التي نحن بصدد الحديث عنها، من خلال الأب الشرعي لها.

تعد القصة اللون الرئيس في أدب الأطفال، إذ تأتي في المقام الأول قبل بقية الفنون الأدبية، والطفل يميل إليها منذ نعومة أظفاره أكثر مما يميل إليها الراشد، ذلك أنها وسيلة جذابة ومثيرة، تطلعه على معان وصور جديدة من الحياة، بأسلوب سهل وواضح وشائق ممتع.

واختلف الباحثون حول بداية هذا اللون الأدبي، فمنهم من يرى أنه قديم، ومنهم من يؤكد على أنه لم يظهر بشكل جلي، إلا منذ قرنين من الزمن، والراجح أن قصة الأطفال وجدت منذ القديم، ولكن في صورة بسيطة اختلفت كمًّا ونوعًا، شكلًا وموضوعًا باختلاف كل أمة ودرجة ثقافتها.

وقد أرَّخ النقاد لبدايات قصة الأطفال -على قواعدها- بالمجموعات القصصية (حكايات أم الإوزة) للكاتب الفرنسي **شارل بيرو** العام 1697م. وهي حكايات تروي أحداثاً وغرائب عن الجن وما يدور حول ذلك.

(1) محمد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط 1985، ج4، ص405.

(2) عيسى عمراني. مسرح الطفل ودوره في التربية (دراسة). 1997، (مخطوط).



أما عند العرب فيعد **الكيلاني** رائد القصة النثرية عند الأطفال، ففضلا عما تركه من آثار للكبار في التراث بحثًا وتحقيقًا، وأدب الرحلة من خلال رحلاته إلى فلسطين والشام... فقد خصَّ الأطفال بمائة وستة وتسعين كتابًا، ابتداء بـ(السندباد البحري) العام 1927م، بل بلغت ما يربو عن ألف قصة حسبما يروي نجله **أمين الكيلاني** نُشر منها ثلاثمائة، ترجمت إلى أربع عشرة لغة بما فيها اللغة العبرية منذ سنين، ولا تعجب إن علمت بإذاعة خبر – في السنوات الأخيرة– يُعلم ويُعلن عن تأسيس "**مركز كامل الكيلاني لتعليم الأطفال**" بتل أبيب، يضم كل أعماله الأدبية، يذكره اليهود ويحتضنونه ويغفل عنه العرب وينسوه أو يتناسوه. ويستبدلون ﴿الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾. إنْ على المستوى الرسمي أو غيره، فلم يحصل الرجل على أي جائزة أو وسام أو شهادة فخرية من الدولة، فهل ينسى رجل مثل هذا ويغمر، وعمله يطوى ويقبر؟ فلله درُّ **الإبراهيمي** حين قال في رسالته: "ولم أنس في لحظة أخي كاملاً وهل ينسى الإنسان جزءًا من نفسه كاملاً ؟!" فحقيقة لا يعترف بأولي الفضل إلاّ أولو الفضل.

فقد أثرى الرجل مكتبة الطفل بإنتاجه الذي جمع فيه بين الكتابة والترجمة والاقتباس وتبسيط أدب الكبار، بكل دقة وتخطيط ومنهجية مراعيًا في ذلك مراحل الطفولة، وخصائص كلّ منها وما يناسبها، حتى لُقب بالأب الشرعي لأدب الأطفال.

فمما ترك لهم: (السندباد البحري)، و(جحا في بلاد الجن) و(جحا قال يا أطفال) و(النحلة العاملة) و(الأرنب العاصي) و(الحمار القارئ)، و(العرنْدس)، و(بابا عبد اللّه والدرويش)...

وعني بتبسيط بعض الكتب والقصص حسب الفئة العمرية، ككتاب (حي بن يقظان) لابن طفيل (وهو قصة فلسفية) و(رحلة ابن جبير) وبعض قصص ألف ليلة وليلة، وترجم عن الانجليزية قصة (علي بابا) و(علاء الدين)، و(جلفر في بلاد الأقزام)، وأربع قصص لشكسبير... وبلغ قمة إبداعه في قصة (من حياة الرسول)، وكتب –أيضًا– مسرحية شعرية باللغة العربية الفصيحة عنوانها: (حكايات وأغاني كامل الكيلاني)، ونظم لهم ديوانا شعريا –وإن لم يرق إلى كتاباته النثرية– فإنه يعد ملائما موازنة ومقارنة بكثير ممن كتبوا للأطفال.

ويمكن تصنيف ما تركه **الكيلاني** للأطفال إلى خمس مجموعات أو مستويات مرتبة ترتيبًا تصاعديًا وفق فئاتهم العمرية :

المجموعة الأولى

وتخص أطفال رياض الأطفال ومنها: أبو خربوش، ودندش العجيب، وسفروت، والحطاب، والأرنب والصياد...وتركز قصص هذه الفئة على الصورة أكثر، وللصورة والرسمة الموجهة للأطفال سيكولوجية خاصة من حيث الشكل والنوع والحجم واللون.

المجموعة الثانية

وتشتمل على بعض الأحداث البسيطة القصيرة مصُوغة في جمل مكررة منها: أم الشعر الذهبي، والدجاجة الصغيرة الحمراء، وبدر البدور...

المجموعة الثالثة

ومنها: الأرنب التركي، والعرنْدس، وعمارة... وتمثل مرحلة متقدمة عن سابقتها.

المجموعة الرابعة

وتضم: بابا عبد اللّه والدرويش، وأبوصير وأبوقير، والملك العجيب، وعبد اللّه البري، وعبد اللّه البحري، وخسر وشاه... وارتقى الكاتب في هذه المجموعة بمستوى موضوعاتها وأسلوبها، وقلل من حدة التكرار الموظف في سابقاتها.

المجموعة الأخيرة

وقد أُفردت للفئة الكبرى من الأطفال: ومنها السندباد البحري –وهي أول أعماله كما سلف ذكره، إذا استثنينا قصة (الأمير صفوان) التي كتبها في طفولته– و(قصة علاء الدين)، و(روبنسن كروزو)، ومن الطبيعي أن تختلف هذه المجموعة عن قصص المراحل السابقة شكلا وموضوعا،



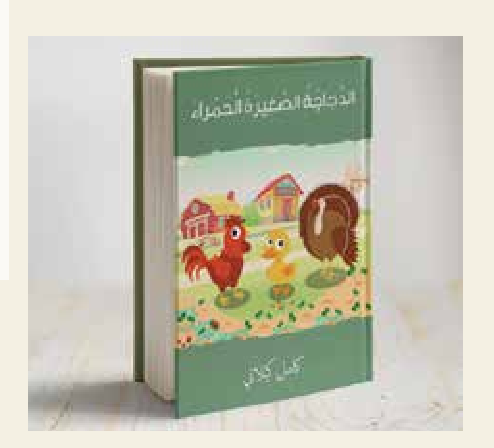




فكانت تدور موضوعاتها حول المغامرة وتبسيط بعض الحقائق العلمية وتقريبها إلى أذهان الأطفال في قالب فني.
ومن أمثلة ما كتب نعرض القصة الشعرية الشهيرة (الحمامة وأولادها الصغار) التي يحث فيها الكاتب على طاعة الوالدين ويحذّر من مغبة عصيانهما وعقوقهما فيقول:

أمُّ الحمـــام مرةً	قالت لهم:لاتخرجوا
قالت لهم في عشها	قالت لهم:لاتخرجوا
فضحكوا من قولها	ولم يبالوا بالخطر
وخرجوا من عشهم	ولم يبالوا بالخطر
لـكن أتاهم ثعلب	فأكل الحمـــائما
رأى المكان خاليا	فأكل الحمـــائما
هذا جزاء كل من	يعصون أمر أمهم
قـد هلكوا لأنهم	يعصون أمر أمهم

تميزت المقطوعة -كما هو ملاحظ- بالبساطة والعذوبة وإيصال الفكرة في إيجاز، وهذا دأب **الكيلاني** في معظم قصصه للأطفال الصغار خاصة -كما ورد- حتى يتابعوها بشغف واهتمام.



ولا تُنسى قصة (الدجاجة الصغيرة الحمراء)، المبثوثة بين دفتي كتاب القراءة للصف الثالث ابتدائي خلال سبعينيات القرن الماضي، وهي تحث على الجد ونبذ الكسل عملًا بالحكمة "من جدَّ وجدَ ومن زرع حصد" في قالب فني جميل.
تطلب الدجاجة النشيطة (وهي الشخصية الرئيسة) من العنصرين المتكاسلين: البطة والديك الرومي، مساعدتها (وهي الصغيرة) على غرس حبة القمح ثم حصدها ودرسها والقيام بعجن الخبز وإنضاجه، فكانا يرفضان كل مرة، وعندما ينضج يحرصان على أن يتقدما لأكله:

في حوشِ المزرعة كانت الدجاجة الصغيرة الحمراء تبحث في الأرض فوجدت حبة قمح.
- نادت الدجاجة الديك الرومي والبطة وقالت لهما : أنا وجدت حبة قمح فمن يزرعها؟
قال الديك الرومي: أنا لا أزرعها،
وقالت البطة :أنا لا أزرعها،
قالت الدجاجة الصغيرة الحمراء: أنا أزرعها.
- زرعت الدجاجة حبة القمح، نبتت الحبة ونمت وأخرجت سنابل كثيرة، ولما حان وقت الحصاد قالت الدجاجة الصغيرة الحمراء: من يحصد الزرع؟
قال الديك الرومي: أنا لا أحصده،
وقالت البطة: أنا لا أحصده أيضا.
قالت الدجاجة الصغيرة الحمراء: أنا أحصد الزرع.

(وتستمر أحداث القصة ويتواصل الحوار حول درسِ السنابل وطحن القمح، وعجن الدقيق وخبزه، ويكرّر الديك الرومي والبطة رفضهما العمل كل مرة).

خبزت الدجاجة العجين وأنضجته وقالت: من يأكل الخبز ؟
صاح الديك الرومي: أنا آكل الخبز،
وصاحت البطة: وأنا آكل الخبز.
قالت الدجاجة الصغيرة الحمراء: لا، لن تأكلا الخبز، فمن زرع حصد، ومن خبز خبزا أكله،
أنا آكل الخبز مع فراخي الصغار
..كُتْ. كُتْ. كُتْ. تعالوا يا صغاري.[3]

أبدع الرجل في حبْكِ قصته فاشتملت على أسسها من مقدمة وعقدة وحل متوّجةً بعظة أخلاقية، وقد أحسن صوغَها في إيجاز بأسلوب "سهل ممتنع" موظفا عبارات بسيطةً سلسة أدت إلى المعنى دونما تكلف أو تعسف، متعمدا المبالغة في التكرار ليناسب الفئة المستهدفة، مستندا -دون شك- إلى القاعدة التربوية :"**كل ما تقرر تكرر**" كيف لا وهو المربي الحكيم، والمبدع القدير.
وأحسن الرجل أن أدمج ومزج في خطابه بين نمطي السرد والوصف، فكان يعرض الأحداث ويصف المظاهر وصفا ماديا يتلاءم وخصائص الطفل بعيدًا عن تعقيدات الوصف المعنوي، فوصف الدجاجة من حيث حجمها ولونها: **الصغيرة الحمراء**، والسنابل بالكثرة: **سنابل كثيرة**، والفراخ بالصغر: **فِراخي الصغار**... فضلًا عن الإشارة إلى نشاط الدجاجة رغم صغرها، وكسل رفيقيها رغم كبرهما (ضخامتهما).
وفي تجربة بمدارس المقاطعة قمنا بمسرحة القصة مع أطفال أقسام المرحلة التحضيرية، فاستوعبوها وأجادوا تمثيلها واستمتعوا بها، وتركت أثرا إيجابيا في نفوسهم. والمسرح نشاط صفي مقرر في منهاج هذا القسم.
ومن القصص التعليمية (قصص المناهج) ما يرويه **الكيلاني** عن تعلمه النحو على يد أستاذه.

"المبتدأ والخبر أخوان رافعا الرأس دوما. وذات يوم، بينما هما جالسان في بيتهما، إذ سمعا قرعًا بالباب، فأسرعا إلى زائرهما، وفتحا الباب، ورحبا به وأرادا أن يقدّما له شيئا من الحفاوة، بعد أن سألاه عن اسمه فقال لهما: اسمي (كان).
فقالا له: "أهلا وسهلا ومرحبا، ماذا نستطيع أن نقدمه لك من قِرًى وإكرام"
فقال: "أريد أن أصاحبكما وأن تترك صحبتي أثرا ظاهرا أكون معروفة به بين رفاقكما جميعا... أريد أن أنصب أحدكما".
فلا تكاد تتم قولها حتى يتقدم إليها (الخبر) مُرَحّبا بشرطها هذا، راضيًا بحلّها، وأنهم كذلك، إذ يسمعون قرعا عنيفا بالباب، فإذا فتحوه وجدوا طائفة من الضيوف فيسألونهم: من أنتم؟ فيقولون لهم: "نحن أخوات كان". وبعد حوار بين الطرفين يظفرن بمثل ما ظفرت به كان. فإذا جاء اليوم التالي جاءت (إنّ) زائرة، وطلبت إليهما أن يمنحاها ميزة كما منحا (كان) بالأمس" وتستمر القصة مع إنّ وأخواتها.

وقد قمنا -أيضا- بمسرحة ما يشبه هذه القصة مع التلاميذ، في إطار الأنشطة اللاصيفية تناول موضوعها "**الجملة الاسمية في المحكمة**" حيث ترفع هذه الأخيرة دعوى ضد (كان) وأخواتها، و(إن)

(3) كامل الكيلاني. الوعظ القصصي والوعظ الكاذب. مطبعة المعاهد، القاهرة، ط1، 1939، ص10.

وأخواتها بسبب دخولهما عليها، وبعد الاستماع إلى أقوال المدعية والمتهمين، يصدر القاضي حكمه لفائدة (كان) و(إن) إثراء للغة العربية.

فاستوعب المتعلمون -بعد العرض- دروس الجملة الاسمية، وكان وأخواتها، وإن وأخواتها دفعة واحدة في جو مفعم بالمتعة والفائدة معا.

وقد سلك هذا النهج آخرون أمثال الكاتب السوري-الجزائري **عبد الوهاب حقي** في مجموعته القصصية: الهر الجامد، والنمر فعل الأمر، والعجل المعتل، والحروف الشوادي (جع شادي: أي القرد، واشتملت الحروف الهجائية، والأبجدية، والجر، والعطف، والجزم، والنصب...) والكاتب **رسمي علي عابد** في مؤلَّفيه: مسرحة النحو العربي، ومسرحة البلاغة.

وعن تدريس فن الإنشاء (التعبير الكتابي) يرى **الكيلاني** -وهو المعلم المربي- أن اكتساب مهارته تكمن في الابتعاد عن تمارين القواعد النحوية والصرفية وحل الجمل حلا لفظيا، لأنها وسيلة عقيمة عديمة الفائدة، بل تقف حجر عثرة في طريق المتعلم، فتحول دون امتلاكه ناصية الكتابة الجيدة، وهو يتوافق إلى حد كبير مع ما قاله الأديب **الطنطاوي** "آفة اللغة هذا النحو"، ثم يدعو بعدها إلى الإكثار من التمارين الإنشائية (التحريرية) دون إشفاق وإن ظنها البعض إسرافا في الجهد والزمن، فلامناص من ذلك مادامت الوجهة السليمة، والدربة والممارسة أساسا لاكتساب هذه المهارة، وهذا ينضوي تحت ما يذهب إليه كثير من علماء اللغة واللسانيات من أن ملكة اللغة تكتسب بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة.ومهارات اللغة عندهم أربعة: فهم المنطوق (المسموع)، والتعبير المنطوق (الشفوي)، وفهم المكتوب (القراءة)، والتعبير المكتوب (الكتابي)، وما القواعد إلا ميزاناً لضبط اللغة وتقويمها.

يقول **الكيلاني** مبديًا رأيه في الطريقة المثلى لتدريس الإنشاء: "...أما التمارين التي نعنيها بهذا النقد، فهي تمارين الإعراب، وتصريف الكلمات، وحل الجمل حلاً لفظيًا لا طائل تحته، فهذه -في نظرنا- وسيلة عقيمة بيّنة الخطل (أي الفساد والاضطراب) محققة الفشل، وهي كالمستنقع الضحضاح







(أي قليل الماء) المملوء بالوحل، لا يستطيع السالك أن يسبح فيه أو يمشي. ولبعض المؤلفين ولع شديد بإرهاق النشء بما يكدّسه أمامهم من القواعد النظرية، التي يحاول أن يقررها في أذهانهم، ويجعل منها ضابطاً لا مهرب للطالب منه ولا مفر من إتباعه.

وليس ذلك من همِّنا فلنترك النظريات التي يستحيل إتباعها عملياً، مولّين وجهنا شطرًا آخر. فلنعمل على أن نثبت أقدامهم، ونمكّنهم من الكتابة التي تجمع بين الرشاقة والقوة، وتكون -إلى ذلك- خالصة من الشوائب، دقيقة التعبير، حسنة الأداء. وللوصول إلى هذا طريق عملية واحدة، هي الإكثار من التمارين الإنشائية، إلى حد قد يظنه البعض غير ضروري أو يرى فيه إسرافاً لا داعي إليه -إسرافا في الجهود وإسرافا في الزمن- ولكن سلوك هذه الطريق الطويلة ضروري لامناص منه. وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الأخرى – التي هي أقصر منها – خير منها".

وهو بذلك على رأي أحد الكتاب الغربيين حينما قال : "بحثتُ عن طريقة مثلى للكتابة فلم أهتد إلاّ إلى واحدة: هي كثرة الكتابة، ومن رأى غيرها فليخبرني" وهذا صحيح بلا ريب، ولكننا نضيف عنصرًا لا يقل أهمية عن سابقه، ملازما له أينما حلّ أو ارتحل : إنه المطالعة الدؤوبة الواعية، إذ الكتابة لا تأتي من فراغ، بل هي الوجه الآخر للقراءة.

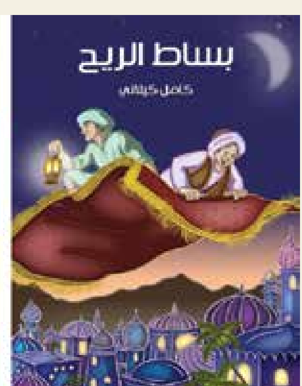
ويقول المستشرق **كارل ناللينو** عن كتب **الكيلاني** للأطفال في خطاب وجَّهه إليه (وكان أستاذا بجامعة روما وعضوا بمجمع اللغة العربية):

"إن كتبك قد جمعت إلى براعة التسلية حسن الأسلوب ووفرة المعلومات معًا...لتثير في أنفس الأطفال والشباب حب الاطلاع، وحب التسلية، كما تثير فيها إلى جانب ذلك حب التفكير وتمهد لها طرائقه. وعندي أن كتبك قد سدّت هذا الفراغ في عالم «البيداغوجية» في الشرق بطريقة مثلى. فإن جاذبية هذه القصص التي لا تبلى جدّتها، فهي حافظة أبدًا لروعتها وسحرها، وكل ما فيها يدل على سلامة الذوق، فإنها تمتاز في موضوعها بحسن الاختيار وفي أسلوبها بالمتانة والدقة، وفي لغتها بالسهولة، وإنَّ صوغ عباراتها وانتقاء مفرداتها لينمَّان عن ذوق عربي أصيل". [4]

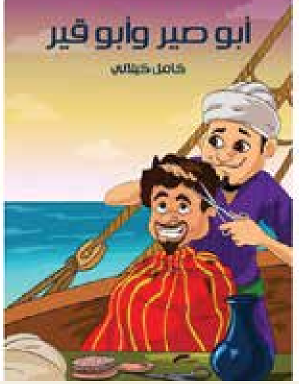
(4) عبد العزيز المقالح. الوجه الضائع (دراسات عن الأدب والطفل العربي). دار المسيرة، بيروت، ط1، 1985، ص 23.

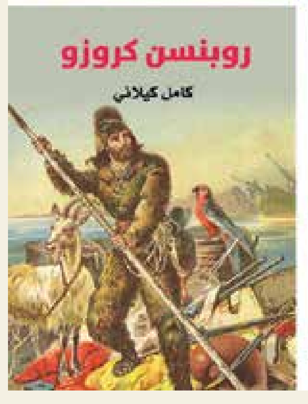
لقد كانت **للكيلاني** سابقة فضل وقدم صدق راسخة، في مجال الكتابة للأطفال بفضل منهجه المتميز الذي سلكه في هذا المجال الحيوي بإخلاص ونية، عن وعي وهدًى وبصيرة، بأمانة ومسؤولية، ويمكن إجماله في النقاط الآتية:

- مراعاة الموضوعات المناسبة لكل فئة عمرية.
- مراعاة القاموس اللغوي للطفل والاقتصاد في استعمال الألفاظ الجديدة.
- توظيف الجمل القصيرة متجنبًا الإطالة والتعقيد.
- تكرار الجمل والعبارات برشاقة خصوصا مع الأطفال الصغار، لتسهيل القراءة والفهم، وتثبيت المعلومات في الذهن في قالب فني بعيدا عن أي ملل أو شرود.
- تبسيط أسلوب الكتابة بما يتوافق وخصائص الطفل واهتماماته وميولاته.
- وإن كانت ثمة كبوة في جواد الرجل وقصصه (الطفلية) فقد أُخذ عليه تجاهله للقضايا الاجتماعية والاكتفاء بوضع عالم الخرافة بديلا عن عالم الواقع بما فيه.
- أما عن الدافع الذي جعله يسلك طريق الكتابة للطفل فيمكن حصره فيما يأتي:
- وَلَعُه بالمطالعة منذ طفولته وإبداء رأيه فيما يقرأ، فكان يستمتع بالقصص الأجنبية، بينما لا يجد في القصص العربية لذة، حتى إنه قال عنها لصديقه – وهو طفل –: "إن هذه الكتب العربية تبغضنا في القراءة". فحمل الأمانة وتجشم عبئها منذ نعومة أظفاره.
- تجربته المبكرة في الكتابة للطفل، فكتب أول قصة عنوانها (**الأمير صفوان**) وهو تلميذ في الصف الرابع من التعليم الابتدائي.
- إكثاره من القراءة وتخزين كل موقف رائع، وحكاية طريفة ليوظفها في الوقت المناسب في الموضع المناسب.
- إشراف خاله على تربيته، وكان كفيفا، لكنه يكتنز مئات الحكايات، كانت أحد مصادر كتابته.
- استفادته من سيدة يونانية كانت تعيش معهم في البيت، فأضافت إلى قصصه قصصا أخرى وأساطير من اليونان وأوروبا.
- اشتغاله بسلك التدريس، والمعلم أقرب الناس إلى الطفل وعقله ونفسيته. وقد قيل: على من يكتب للطفل أن يكمن بداخله طفل، وذاك ما ينطبق على المدرس أيضاً،، فكيف بمن تجتمع فيه مهمتي الكتابة والتدريس معًا؟
- وعيُه بأهمية تربية النشء وإدراكه للأساليب التربوية الناجعة.
- استمتاع ابنه بقصصه عندما يرويها له، فيعيد قصّها بتفاصيلها الدقيقة على الخادم وعلى أترابه، فكانوا لا يملّون من الاستماع إليها، مما شجعه على المضي قُدما نحو النشر تعميما للفائدة.
- امتلاكه ناصية اللغات الأجنبية، فقد عكف على دراسة الأدب الانجليزي وتعلّم الفرنسية، ففتح نافذة على الثقافات الأخرى، فاستفاد وأفاد شكلًا وموضوعًا، وما نقل للطفل العربي من هذه الموارد لخير دليل على ثمرة ذلك.









فلا غرو بعد كل ما ذُكر وما لم يذكر أن يحظى هذا التربوي الفنان بثناء **الشيخ الإبراهيمي** وتشريفه ورفعِه مكانا عليا، وإنزاله منزلًا مباركًا خاصًّا، مُشهدًا الخلْق بعد ربِّ الخلْق بأنه حكيم التربية دون منازع قائلا: "إنني أُشهِد اللّه وأُشهَد أمام خلقه، بأن الرجل الذي انتهت إليه حكمة التربية، من طريق كتب التعليم هو الأستاذ كامل الكيلاني، وستشهد هذه النهضة بهذا يوم يمدّ مدّها، ويجدّ جدّها...".

برزت حكمة **الكيلاني** المربي وتجلت: في فنِّ التربية، فوهبه زهرة شبابه ونور بصره، إلى أن فقده تماما وأتاه اللّه اليقين.

فمن لي بأدب أصيل جميل نلجُ به قلوب أبنائنا ووجدانهم قبل عقولهم وأذهانهم فيستوعبون ويستمتعون فيمتثِلون، بعيدا عن الوعظ الكاذب المُمِلّ.

ولا يليق بنا اختتام حديثنا عن علم من أعلام الكتابة للأطفال، دون أن نشير إلى أسماء أُخَر، أسهمت في هذا الفن، أو أن نغمَطهم حقهم، سواء من الجزائر أو الوطن العربي، أو من الغرب.

فمن الأدباء الغربيين الذين حظي الأطفال بكتاباتهم: الكاتب الدانماركي **هانس كريستيان أندرسن** من خلال عدة قصص وحكايات خيالية، وأدب الرحلات والسير الذاتية، ومن أشهر قصصه للأطفال (**ثياب الأمبراطور الجديدة**) و(**مملكة الثلوج**)، والأخوين **قرام** الألمانيين، اللذين كتبا (**حكايات الأطفال والبيوت**)، وقصصا أخرى بعدها.

والإنجليزي **دانيال ديفو**، في (**روبنسون كروزو**)، التي عدها بعض النقاد أول عمل قصصي روائي حقيقي، و**أورويل** في (**مزرعة الحيوان**

(الثورية)، ولويس كارول الذي كتب حكايات (أليس في بلاد العجائب) الشهيرة فكانت منطلقا للحكايات الخرافية، والفرنسييْن شارل بيرو في مجموعته القصصية «أمي الأوزة» التي حازت قصب السبق في هذا الفن - مثلما أشير أعلاه- واشتملت على قصص كثيرة منها (رميدة) (ساندريلا)، و(الجميلة النائمة)، و(ذات القبعة الحمراء)، و(عقلة الأصبع)، والكاتب جون دي لافونتان في (خرافاته) على لسان الحيوان، والإنجليزي-الإرلندي جونثان سويفت في (رحلات جلفر) وتضم أربعة كتب تصف أربع رحلات خيالية إلى بلدان نائية غريبة.

ومن العالم العربي كثير ممن عني بالكتابة للأطفال ابتداء بـ رفاعة الطهطاوي الذي ترجم للأطفال العرب أدبا عن اللغة الأنجليزية، ومحمد سعيد العريان وإصداره مجلة (سندباد) فكانت طرازا فريدا، وعثمـان جلال في ديوانه (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ)، ومحمد الهراوي في (ديوان الهراوي للأطفال) الذي جمعه عبد التواب يوسف، و(محمد الهراوي شاعرا) الذي جمعه أحمد سويلم، ومحمد عطية الأبراشي وهو كاتب في التربية أيضا، وأحمد شوقي في الجزء الرابع من ديوانه (الشوقيات)، وزكريا تامر في مجموعته (لماذا سكت النهر)، و(قالت الوردة للسنونو)، ومعـروف الرصـافي، وقصيدته الخالدة (أم اليتيمة) أو (الأرملة المرضعة)، وسليمان العيسى الذي يئس من الكبار بعد النكسة العربية سنة 1967 فتولى عن «الجيل الذي صنع الهزيمة» وولّى وجهه شطر جيل جديد، علَّه يصنع العجب العجاب، فأصدر له أعمالا عديدة جمعت بين الشعر والنثر منها: ديوان (غنوا يا أطفال)، و(شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال)، و(الفارس الضائع)، و(الصيف والطلائع)، وبعض أشعار سميح القاسم، ومحمود درويش، وإبراهيم طوقان.

وفي الجزائر كتب عدد غير يسير منهم في مجال الشعر خاصة، فقد نظم الشيخ عبد الحميد بن باديس مولديته الخالدة (شعب الجزائر) و(اشهدي يا سماء)، و(أدعو إلى اللّه) و(أَشَعْبُ الجزائر روح الفدى)، وتلميذيه محمد العابد الجلاّلي ومحمد الصالح رمضان.

ويعد الجلّالي رائد الأنشودة المدرسية في الجزائر من خلال مجموعته الشعرية «الأناشيد المدرسية لأبناء وبنات المدارس الجزائرية»، وكان تربويا فذّا حتى لقَّبه شيخه ابن باديس بـ«المعلم المثالي»، ولا يقل زميله رمضان أهمية عنه، فهو رجل تربية من الطراز الفريد، ومما كتبه للناشئة مؤلفه التربوي المشترك (النصوص الأدبية) مع توفيق شاهين، وبه عدة أجزاء فيها قصائد من نظمه، فضلا عن مسرحيته (الناشئة المهاجرة)، ومحمد العيد علي (آل) خليفة في «أناشيد متنوعة لأطفال المدارس» وقد أهداها إلى الشيخ ابن باديس كما تضمن ديوانه قسما خاصا بالألغاز وآخر بالأناشيد، وله مسرحية شعرية عنوانها (بلال بن رباح) ، مُثلت في حفل مدرسي بقسنطينة عام 1939.

ونظم محمد الأخضر السائحي (ديوان الأطفال) الذي اشتمل على خمس وخمسين مقطوعة، منها نشيد (الحديقة الساحرة) الشهير الذي لحنه الأستاذ الأمين بشيشي وعرضه في جنيريك برنامج الأطفال المذكور المعنون بعنوان المقطوعة، ومحمد شبايكي المعروف بـ«الشبوكي» وأنشودته الوطنية الشهيرة (جزائرنا)، وقصيدة (إلى شباب الشريعة)، وموسى نويوات الأحمدي صاحب كتاب: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي» في قصته التراثية (بقرة اليتامى)، ومحمد ناصر في مجموعته الشعرية (البراعم الندية)، وخضر بدور في (أنغام الطفولة)، وبوزيد حرز اللّه في (حديث الفصول) والشافعي السنوسي في (أناشيد الأشبال) وسليمان جوادي في مجموعة (ويأتي الربيع) ومصطفى محمد الغماري في (الفرحة الخضراء)، وجميلة زنير في مجموعتها القصصية منها (الصرصور المتجول) و(الطفل والشجرة)، ومحمد شايطة في مجموعتيه (بشائر الخلود)، و(نبع الصفاء) (مخطوط)، ونور الدين درويش في مجموعته (روضة التلميذ)، وناصر لوحيشي في (رجاء) وقصة (اللفافة والسيجارة الملعونة)، وحسن دواس في (أهازيج الفرح)، و(الحلم الخالد) (مخطوط). ورابح خدوسي في قصة (جبل القرود)، وأحمد منُّور في قصة (البحيرة العظمى) وأحمد بودشيشة في مجموعته المسرحية: (محفظة نجيب)، و(المصيدة)، و(المجاهد الصغير)، وسهام بوخروف في مسرحيتي (فتاة الأسطورة)، و(الخداع) ...وغيرهم.

وعلى المستوى النظري ظهرت دراسات في أدب الأطفال على يد كتاب عرب منهم: أحمد نجيب في (فن الكتابة للأطفال) الذي طوّره إلى (أدب الأطفال علم وفن)، وعبد العزيز المقالح في (الوجه الضائع دراسات عن الأدب والطفل العربي)، وعلي الحديدي في (في أدب الأطفال)، وعبد الرزاق جعفر في (أسطورة الأطفال الشعراء)، وسعد أبو الرضا في (النص الأدبي للأطفال) ومحمد مرتاض في (من قضايا أدب الأطفال). ومن هؤلاء من كتب أيضا في الجانب التطبيقي، في مجال القصة أو الشعر أو المسرح.

كما أنتجت مؤسسات عالمية كبرى عشرات المجلات للأطفال منها (ميكي) و(سوبرمان)، و(غراندايزر) وفي البلدان العربية: (أسامة) في سوريا، و(سمير) في مصر، و(العربي الصغير) في الكويت، و(مقيدش) ثم (نونو) في الجزائر، وإصدار الموسوعات في بعض هذه البلدان وإقامة المعارض الخاصة بالطفل، وإنتاج بعض المسلسلات كمسلسل (افتح يا سمسم)، وسلسلة (توم وجيري) العالمية، وغيرها من الأعمال الموجهة إلى الطفل.

وبصرف النظر عن المستوى الفني لهذا الإنتاج فقد كان لبعضها أثر سيء على تربية الطفل مما يستوجب التعامل مع مثل هذه الوسائط بحذر، كونها سلاحا ذا حدين، سيما في هذا العصر الذي انتشرت بحدة على أكبر نطاق ◆◇



أ.د. نادية أوزناجي
باحثة وأستاذة جامعية

البعد الواقعي في الدرس الحديثي
عند الإمام عبد الحميد بن باديس

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر الواقع في معالجة مختلف القضايا والمواضيع المتعلقة بالمجتمع الجزائري من خلال الدرس الحديثي عند الشيخ **ابن باديس**.

فقد كان له -رحمه اللّه- قدرة فائقة في استخلاص دروس حية، وعبر مفيدة وحكم بالغة من النصوص الحديثية النبوية التي تعرض لها بالشرح والتفسير...

بدت هذه القدرة في دقة انتقاء الأحاديث ذات الصلة بجانب من جوانب هذا الواقع المؤلم، فنراه يغوص في أعماق النص النبوي ويستنبط منه حقائق وقيم نفسية وأخلاقية، واجتماعية، وتاريخية وتشريعية وكونية كعادته في الدرس التفسيري أيضا ....موجها كل ذلك لخدمة الإنسان والمجتمع مطبقا ذلك كله على المجتمع الجزائري والأمة الإسلامية.

وللوصول إلى هذه الأغراض كلها كان يختار عناوين فرعية ذات اتجاهات ذكية وإشارات لطيفة مثل: توجيه، تطبيق، اعتبار، عبرة، تبصرة، تحذير، تتميم، تبصرة، إرشاد، استدلال ...وغيرها.

مراعيا في هذه الدروس الحديثية بعدا واقعيا إصلاحيا يحكمه طرفان هما: بسط الواقع المؤلم بكل ملابساته، وإحكام الصلة بينه وبين النص النبوي والدعوة من خلاله إلى تغيير وإصلاح هذا الواقع...

فلم تكن عناية الشيخ موجهة إلى الجوانب الفقهية والتشريعية بل تجاوزت ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية بل والسياسية والحضارية ذلك أن الهدف من وراء شرح السنَّة علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات من خلال رصد مواطن الخلل ومظاهر القصور، ووصف الحلول الناجعة لذلك كله من السنَّة النبوية المطهرة.

إن المتتبع لمقالاته في"**مجالس التذكير من كلام البشير النذير**" لا ينفك مستنتجا أبرز المواضيع الحساسة التي عالجها الشيخ من خلال هذه المجالس وهذا ما اشتركت فيه مع "**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**" في تفسير القرآن الكريم.

أولا: مكانة السنَّة النبوية في الفكر الباديسي:

لقد كان الشيخ عبد الحميد شديد الاحتفاء والاهتمام بالسنَّة النبوية الشريفة، وكان يرى أن الانشغال بعلم الحديث من العلامات البارزة للحركة الإصلاحية التي أقام دعائمها على الكتاب والسنَّة، ووطد بنيانها عليهما،

ووصل ليله ونهاره، وبياضه وسواده من أجل التمكين لها، والذود عنها مرضاة لله، وخدمة للأمة الإسلامية.

لذلك كان يدعو إلى الاقتصار على الصحيح من المرويات، ومحاربة الضعيف وعدم روايته، إلا مع بيان رتبته، لتحذير الأمة منه، ومحاربة الآثار السيئة التي يتركها الحديث الضعيف عند رواجه في عموم الناس على مستوى الفكر والاعتقاد والعلوم والسلوك.

يقول الشيخ -رحمه اللّه-: "تقوم الدعوة الإصلاحية على أساس من الكتاب والسنَّة فلا جرم أن كان رجالها من المعتنين بالسنَّة، القائمين عليها رواية ودراية، الناشرين لها بين الناس...

ومن مظاهر هذه العناية تحريهم فيما يستدلون به ويستندون إليه منها فلا تجوز عليهم إلا ما يصلح للاستدلال والاستناد، ولا يذكرون منها شيئا إلا مع بيان مخرجه ورتبته حتى يكون الواقف على بينةٍ مما لو التزمه كل عالم كما هو واجب لما راجت الموضوعات والواهيات بين الناس فأفسدت عليهم كثيرا من العقائد والأعمال"[1]

وإيمانا منه بمكانة السنَّة النبوية[*] الشريفة في العملية التربوية، فقد جعلها مادة رئيسية وأساسية في البرنامج الدراسي والمقرر التعليمي لتلاميذه وطلابه.

ففي البرنامج التعليمي الذي أعلنت عنه (الصراط السوي) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جاء فيه ما يلي: "تشتمل الدروس العلمية على التفسير لكتاب اللّه الحكيم وتجويده وعلى الحديث الشريف"[2] إضافة إلى تقرير جريدة (البصائر) عن التعليم المسجدي والحركة التعليمية بالجامع الأخضر تعرض إلى العلوم التي تدرس فذكر التفسير والحديث"[1]

هذا وقد وجد الشيخ **عبد الحميد بن باديس** -رحمه اللّه- في السنَّة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية، مصدرا متميزا ومادة حيوية في عمله الدعوي والإصلاحي، فكان كثير العودة إلى السنَّة النبوية إذا أراد أن يحارب فكرة خاطئة، أو يصحح وضعا شاذا، أو يدعو المسلمين إلى أمر جديد نافع، لأنه بهذا العمل كان يقوم بدور التأسيس والتأصيل لما يدعو إليه وأنه من الدين.

و لأنه كان يعلم علم اليقين بأن عموم



المسجد النبوي قديما

المسلمين لما يؤصل لهم ما يدعوهم إليه فإنه يكون أدعى للقبول عندهم.

كما كان يعتبر أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وحديثه هما المثال الأسمى لتجسيد معاني الشريعة المطهرة علما وعملا، لتحقيق الكمال الإنساني، وفي ذلك يقول بعد كلام عن آخر حديث في الموطأ: "...ونكتة أخرى وهو أن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة **محمد** صلى اللّه عليه وسلم في سيرته الطيبة فهذا الحديث[4] بعد ما تقدمه من الكتاب كله مثل الغاية من الوسيلة فسيرته صلى اللّه عليه وسلم هي الجامعة لمحاسن الإسلام والغاية لكل كمال....."[5]

فكان لتلك الدروس الحديثية الأثر البالغ في دفع عجلة الإصلاح في الجزائر في تلك المرحلة لما حوته من خطاب لعامة الجزائريين وخاصتهم فيه حثّ على ضرورة التغيير ...وهذا إن دل على شيء فإنما هو مزيد عناية من الشيخ -رحمه اللّه- بالقرآن الكريم والسنَّة النبوية، إذ يعتبرهما أصلان لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

هذا وقد تبوأ الحديث والسنَّة النبوية منزلة متميزة في فكر الشيخ ويرجع ذلك لطبيعة التكوين العلمي والثقافي اللذين حظي بهما. إذ المتتبع لأطوار حياته يلمس ذلك من خلال عدة عوامل، منها محيطه الأسري، تأثره بأعمدة الفكر والإصلاح في تلك المرحلة[6] وكذا رحلته إلى بلاد الحجاز عام 1913م ومكوثه فيها حوالي ثلاثة أشهر مما مكنه من إلقاء دروس علمية في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم طوافه ببعض الأمصار الإسلامية ولقاؤه للعديد من علماء مصر والشام، مما أثر في شخصيته تأثيرا بليغا تجلى فيما بعد في حركته الإصلاحية.

إضافة إلى عكوفه على تدريس **موطأ الإمام مالك** في الجامع الأخضر بقسنطينة وختمه في ربيع الثاني سنة 1358ه الموافق لـ جوان 1939م، وأقيم لذلك احتفال بتلك المناسبة السعيدة حضرها العلماء والأعيان والأشراف وعموم الناس.

أما الأمر الواضح الذي يبرز مكانة الحديث النبوي في فكر الشيخ وتجليها هو التزامه بتقديم دروس حديثية يصدر بها مجلة (الشهاب) بعنوان "مجالس التذكير من كلام البشير النذير" أو جريدة (البصائر) أو (السنَّة).

(1) عمار طالبي، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج2، ص388.
(*) والمكانة ظاهرة في تسمية إحدى الجرائد بــ "السنة"
(2) المصدر نفسه، ج4، ص68.
(3) عمار طالبي، المصدر نفسه ج4، ص100.
(4) يقصد بذلك حديث في الموطأ وهو حديث: " لي خمسة أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو اللّه به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، وأنا العاقب".
(5) عمار طالبي، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ط1، الشركة الجزائرية 1968م، ج2، ص309.
(6) منهم محمد النخلي القيرواني (1342ه1923-م) والشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1393ه1973-م)

وكل هذه الدروس الحديثية طبعت لاحقا تحت مسمى "مجالس التذكير من كلام البشير النذير" فكان لتلك الدروس الأثر البالغ في دفع عجلة الإصلاح في الجزائر في تلك المرحلة مما يدل على مزيد عناية الشيخ -رحمه اللّه- بالقرآن الكريم والسنَّة النبوية...

و من مظاهر بروز ملامح هذا البعد الواقعي في الدروس الحديثية ما اخترناه في هذا المقام على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. تصحيح العقائد ومحاربة ظاهرة البدع في الوسط الجزائري.
2. التعلم والتعليم والحث عليهما، وحق المرأة في التعليم.
3. الحث على التكافل الاجتماعي ونبذ الفرقة.

والمتأمل لهذه النماذج المختارة وغيرها لا ينفك يدرك عمق تعايش الشيخ مع آلام وواقع مجتمعه عقديا وأخلاقيا وسياسيا واجتماعيا.

ثانيا: مظاهر بروز فقه الواقع في الدرس الحديثي عند الشيخ ابن باديس:

1.تصحيح العقائد ومحاربة ظاهرة البدع:

إن الواقع الذي كان يعيشه الجزائريون تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي وانتشار الجهل واستحكامه على العقول، بسبب انتشار البدع والخرافات بين الناس حيث أضحت البدعة سنة والسنَّة بدعة والذي غداه الفراغ العقدي في الأوساط الاجتماعية آنذاك.

مما جعل الشيخ -رحمه اللّه- يكثر من الدروس الحديثية حول هذه المسألة بالذات وبعناوين متعددة ليبين من خلالها أنواعها وخطرها على المجتمع المسلم معالجا لها بتصحيح عقائد الناس وتخليصهم من ربقة الجهل بتعاليم دينهم...

فقد وجد الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- وهو يشرح سنة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية والتقريرية، المجال أمامه واسعا والفرصة مواتية لتصحيح الكثير من العقائد التي شابها الكدر والعودة بها إلى حالة النقاء من كل شائبة، والتي كانت عليها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام فكانت له جهود جبارة في محاربة البدع وتصحيح العقائد والدليل على ذلك العناوين المختلفة لمقالاته المتعددة التي تطرق فيها لهذه الظواهر وخطرها على المجتمع المسلم.

تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- مقال (لعن من اتخذ المساجد على القبور)[7]
- مقال (النهي عن البناء على القبور)[8]
- مقال (بناء المساجد على القبور من شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة)[9]
- مقال (تأكيد النهي عن اتخاذ القبور مساجد)[10]
- مقال (من اتخذ القبور مساجد: الصلاة إليها)[11]

فكل هذه العناوين المتعددة كان الشيخ -رحمه اللّه- يصدرها تباعا من أجل الحد والقضاء على ظاهرة البناء على القبور المبتدعة.

ولم يكن الشيخ لينطلق في دروسه الحديثية من فراغ، إنما كان مبدؤه في انتقاء الدرس الحديثي انطلاقا من حالة واقعية يعيشها الشعب الجزائري أو تمليها ظروف خاصة معمما أحيانا ومخصصا أخرى.

ففي مقال له بعنوان: (الشرك والوثنية ودعوى النبوة)[12] وهو يشرح حديث ثوبان -رضي اللّه عنه- قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: {لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي}.[13]

سلط الشيخ -رحمه اللّه- الضوء وهو يشرح هذا الحديث على أصناف البدع في واقع المجتمع الجزائري محذرا منها ومن اتباعها واتخاذها سنة متواترة في حياة الناس...فقال: "وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها إلى اللّه ويتوسطون بها إليه ويزيدون أنهم ينصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسرقون الأنعام لطواغيتهم فينحرون عندها طالبين رضاها ومعونتها.

وفي الناس طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاء لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفاتها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر.

ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم متعظما لها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون باللّه فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون"[14]

وإيمانا منه بأن المنهج الإصلاحي لا يُكتفى فيه بعرض الواقع المؤلم والنقمة عليه فقط بقدر ما يتطلب نجاحه عرض الحلول والوسائل وأهمها الدعوة إلى تغييره مناشدا أصحاب الشأن لتلبية دعوته إلى ذلك.

فبعد بيانه لهذه الأصناف وغيرها في واقع الناس دعا العلماء أن يهبوا لتخليص الناس منها امتثالا لفعل النبي صلى الله عليه وسلم واقتداء بالعلماء الصالحين فيقول:

"هذا كله واقع في الأمة لاشك فيه، وكما كان من نصح نبيها صلى الله عليه وسلم أن أنذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه فإن نصح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه، ويصوروه لها على صورته الشركية والوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه.و لو أن الأمة سمعت صيحات الإنكار من كل ذي علم لأقلعت عن ضلالها ورجعت إلى رشادها فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لإنقاذها وما أشقى من غشها وزادها رسوخا في ضلالها وتماديا في هلاكها؟.ففي العمل أيها المصلحون الناصحون المخلصون فإن عهد الغش والخديعة قد أذن بذهاب وأن اللّه لا يهدي من هو مسرف كذاب"[15]

---

(7) ابن باديس، مجالس التذكير من كلام البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1.1983. ص152.
(8) المصدر نفسه ص153.
(9) المصدر نفسه ص154.
(10) المصدر نفسه ص155 .
(11) المصدر نفسه ص156.
(12) المصدر نفسه ص95.
(13) الترمذي، السنن كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يخرج دجالون ج4.ص499.
(14) مجالس التذكير، ص94.
(15) مجالس التذكير، ص97.

فهذا تعميم للبدع المنتشرة خص بها الشيخ خطابه للمجتمع وهو يشرح حديث رسول اللّه ونراه يخصص بالخطاب بدعا بعينها وتخصها بالذكر والنهي عنها واحتسابها.
ومن البدع المنتشرة في زمنه والتي عظمت بها البلية وخصها الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- بالتحليل في الدرس الحديثي: بناء المساجد على القبور، فعَنْوَنَ مقالا له: (بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة) صدّره بحديث **عائشة** -رضي اللّه عنها-: أن **أم حبيبة** و**أم سلمة** -رضي اللّه عنهما- ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: {إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة}.[16]
بيّن الشيخ أن هذا الحديث صريح في النهي عن بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم مؤكدا على ما فيه من الوعيد الشديد لفاعله.
أما البعد الواقعي الذي راعاه أثناء هذا الدرس فكان إنكاره لهذا السلوك بسبب تفشيه كظاهرة مخزية في المجتمع فيقول: "هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا ثم نجد أكثر كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون فإن قيل: إنما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم قلنا: إن النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر بقطع النظر على قصد صاحبه به ولو كانت صورة البناء للتبرك مرادة بالنهي لاستثناها الشرع، فلما لم يستثنها علمنا أن النهي على العموم، وذلك لأنها وإن لم تؤد إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها في مظنة أن تؤدي إلى ذلك في المآل وذرائع الفساد تسد لاسيما ذريعة الشرك ودعاء غير اللّه التي تهدم صروح التوحيد".[17]
وكعادته في التأكيد على امتثال أوامر اللّه ورسوله صلى الله عليه وسلم في درسه التفسيري أو الحديثي نجد الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- تختم مقالته بضرورة الإيمان والامتثال لفحوى هذا النص النبوي والتأكيد على ضرورة الالتزام بما يتضمنه من إرشاد وتوجيه قائلا: "علينا أن نصدق بهذا الحديث بقلوبنا، فنعلم أن بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم وأن تنطق ألسنتنا بذلك كما نطق به الحديث الشريف وأن تبنى عليه أعمالنا فلا نبني مسجدا على قبر ولا نعين عليه، وأن ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا. ومن أعظم الإنكار تبليغ هذا الحديث بنصه وتذكير الناس به والعمل على نشره حتى يصير معروفا عند عامة الناس وخاصتهم إذ لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنَّة النبوية، ولا نستعظم انتشار البدعة وكثرة ناصريها فإنها ما انتشرت وكثر أهلها إلا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به.
و لنكن في إرشادنا مقتصرين على إيراد لفظ الحديث وشرحه على أنه واضح مفهوم بنفسه وأن نمس شيئا من شؤون أولئك المقبورين فإنهم إخواننا سبقونا بالإيمان، فلهم علينا حق الدعاء والاستغفار فإذا عملنا كلنا على هذا من حسن قصد ومحبة في الخير للمسلمين رجونا أن يؤيدنا اللّه ويجعل النفع بأيدينا. قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[18]

2. تحديد المعنى الشرعي لمعنى الذكر:

ومن جملة ما عالجه الشيخ من قضايا الواقع العقدية والمظاهر الفاسدة التي اكتستها، والضلالات السائدة في الدرس الحديثي تصحيحه للمفهوم الشرعي لمعنى الذكر ومن هو الذاكر؟ وهو يعلق على حديث رواه الإمام البيهقي في (شعب الإيمان): {من أطاع اللّه فقد ذكر اللّه وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى اللّه فقد نسي اللّه وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن}.
ذلك أن فئات كثيرة من المغرضين جعلوا الذكر أقرب إلى اللّهو واللعب منه إلى شيء آخر، حين ركزوا على الجانب الشكلي مشترطين في ذلك ما لم يشترطه الشرع وحين باعدوا بينه وبين الطاعة فقال: "وبهذا الحديث وذلك الأثر نعلم أن المراد من الآيات الآمرة بالذكر كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[19] فليس المراد من الذكر في أمثال هاتين الآيتين خصوصا الذكر اللساني بل المراد الطاعة بجميع أنواعها من صلاة وصيام وصدقة ونصيحة وتلاوة القرآن وتسبيح وتحميد وتهليل وغير ذلك فإن المطيع إنما أطاع اللّه لكونه ذكر بقلبه ولسانه.
وغرضنا من تقديم هذا الحديث وهذا الأثر إلى القراء أن يعلموا:
أولا: أن معنى الذكر أوسع مما يتخيلون وأن بعض من يعدونهم من العُباد في غير الذاكرين هم في عرف الشرع من الذاكرين.
و أن يعلموا **ثانيا:** أن ما عليه كثير من العوام من الاعتماد على التسبيح دون الطاعة هو غرور في غرور وأن كثيرا ممن يعد نفسه ويعده الناس من الذاكرين هو في عرف الشرع من الغافلين.
فيا أيها المسلمون تثبتوا في الحقائق الشرعية واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة أو ممن قرب زمنه من زمنه ولا تعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعاداتكم فإن الجهل بالسنَّة وخروج أمر العامة من يد العاملين بها مما ابتليت به الأمة الإسلامية قديما".[20]

3. الحث على طلب العلم والتعلم والتعليم:

كانت قضية التعلم والتعليم وطلب العلم من أمهات القضايا التي ركز عليها الشيخ -رحمه اللّه- وجعلها أساسا للتغيير المنشود ودعامة الإصلاح المرجو تحقيقه.
و لهذا لم تخل مقالاته التفسيرية أو الحديثة وكذا دروسهما من التنبيه على أهميتها وضرورتها لتحقيق ذلك.
خاصة والمجتمع الجزائري يئن آنذاك تحت وطأة الجهل الذي كان الاحتلال يغذيه ويعمل على تفشيه ونشره في الأوساط الاجتماعية وعلى كل المستويات حيث دعت الضرورة الإصلاحية إلى مجابهة هذه الحملة الرهيبة والمنظمة.

(16) البخاري، الصحيح، كتاب أبواب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ج1، ص165.
(17) مجالس التذكير، ص151.
(18) الحج 40.
(19) الأحزاب 41
(20) آثار الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ج2، ص201.

وكان الشيخ في كل مناسبة دينية أو وطنية يسلط الأضواء على قضية العلم والتعلم رائدة في ذلك النص القرآني والحديث النبوي، يقينا منه بأهمية ذلك إذ عده من أوكد الواجبات على المسلم عموما والجزائري خصوصا.
هذا ما يستلهمه المستقرئ لدروسه الحديثة التي كان ينشرها في (**البصائر**) و(**الشهاب**)
.

وتذكر هنا ما عنون به درسه الحديثي وهو يسوق ثلاثة آثار عن **عبد اللّه بن عباس** -رضي اللّه عنهما- في هذه المسألة.
قوله: (**العلم وتعلمه**) ومضمونه هذه الأحاديث الثلاثة:
أولها: "أن الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم".
وثانيهما: قوله عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم {من جاء أجله وهو يطلب علما ليحيى به الإسلام لم تفضله النبوة إلا بدرجته}.
وأما الثالث: ففي سعي ابن عباس -رضي اللّه عنهما- في طلب العلم من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ممن سبقه لسماعه وكونه كان يسعى لذلك.
استخلص الشيخ من هذه الآثار الثلاثة فائدتين فقال: "أولاهما: حسن أدب آل الرسول صلى الله عليه وسلم وثانيهما: سعي ابن عباس رضي اله عنه في طلب العلم ذلك السعي وهو الذي روى عنه البخاري في صحيحه أنه قال: ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللّهم علمه الحكمة".
فلم يتكل على دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يؤمن بقبوله لأنه يفهم أن الدعاء بالشيء دعاء بتيسير أسبابه فالدعاء لا ينافي تعاطي الأسباب بل على الداعي أو المدعو له أن لا يهمل الأسباب اكتفاء بالدعاء [21].

كما بوب بابا آخر في (**العلم وتعلمه**) وساق جملة من الآثار الحاثة على ما جاء في عنوان الباب من ضرورة تعليم الناس العلم والسعي في نشره ومن جملة ما ساق:
أثر عن إبراهيم النخعي في رجحان كفة حسنات الساعي لتعليم العلم ... فقال:
"بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى".
وحديث عن **معاذ بن جبل** -رضي اللّه عنه- مرفوعا: {تعلموا العلم فإن تعليمه لله خشية وطلبه عبادة....}[22].

وآخرها قول لكعب الأحبار: "أوحى اللّه إلى موسى تعلم الخير وعلمه الناس فإني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم"[23]
وفي كل ذلك دعوة ضمنية منه لتعليم الناس العلم خاصة مع ما كان يكابده المجتمع الجزائري وقتئذ من شيوع الجهل الفاضح والخرافة الزائفة والبدع الضالة الخادمة للمشروع الاستعماري.
هذا ما فقهته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئيسها مما جعلهما يريان في دور العلم اللبنة الأولى في المشروع الإصلاحي لإجلاء الاستعمار الفرنسي.
فسعت جاهدة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بنشر العلم وتعليمه وفتح المدارس في القرى والمداشر والمدن في كل هذه الأنحاء إدراكا منها لأهمية انتشار العلم في الأوساط الاجتماعية. وكانت المدرسة الأولى متمثلة في المساجد باعتبارها المكان الذي تغشاه جميع شرائح المجتمع، حيث دعا الشيخ -رحمه اللّه- إلى ضرورة الابتداء بالتعلم فيها كونها دور علم وعبادة منها تبدأ الخطوات الأولى في طلب العلم وتحصيله وهي بداية قوية لمجابهة المستعمر باللوح والعلم والكتاب.
ومن عظيم اشتغال الرئيس الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- بالعلم وتعليمه وتنزيله لواقع الناس أنه لا يمر بحديث إلا ونراه يستنبط منه دررا وجواهر يضئ بها سماء الجزائريين وأبصارهم.
ومثال ذلك ما استنبطه من فوائد بعد ذكره لحديث **أبي الواقد الليثي** -رضي اللّه عنهما-:
"بينما هو جالس في المسجد، والنّاس معه، إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وذهب واحد، فلمّا وقفا على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم سلّما، فأمّا أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأمّا الآخر فجلس خلفهم، وأمّا الثّالث فأدبر ذاهبا، فلمّا فرغ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: {ألا أخبركم عن النّفر الثّلاثة: أمّا أحدهم فأوى إلى اللّه فآواه اللّه، وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا اللّه منه، وأمّا الآخر فأعرض فأعرض اللّه عنه}"[24].

قال مبرزا تلك الدرر المتعلقة بواقع تعليم العلم وفيها ترغيب منه في ذلك:
الأولى: الجلوس في المساجد حلقا للتعلم والتعليم.
الثانية: تعليم الناس ووعظهم وإرشادهم في المساجد وهذا مما أجمع عليه المسلمون في جميع الأعصار.
الثالثة: التحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسد فرجها فهي في ذلك كصفوف الصلاة.
الرابعة: فضل الإقبال على مجالس العلم وكراهة الإعراض عنها.
الخامسة: بيان أحكام الأعمال التي تقع أمام الناس حين وقوعها ليرسخ علمها ويتعظ بما فيها.
السادسة: لوم من زهد في الخير ولم يحرص عليه وإن لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه في تلك الحال.
فالمتأمل لهذه الفوائد والأحكام التي استنبطها الشيخ من النص الحديثي وهي في مساجد عمومها دعوة للعودة لما كانت عليه أحوال المساجد في عهده صلى الله عليه وسلم وأدائها لدورها الفعال في التعليم كونها منابر لنشر الفضيلة ووأد الجهل والرذيلة [25].
ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بفرع هام متعلق بالعلم والتعليم ركز الشيخ عليه في دروسه الحديثية وهو حق النساء في التعليم لأنه كان يعد المرأة الصرح القوي لبناء الأسرة.

4. حق المرأة في التعليم:

لقد أدرك الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- أنه لا يمكن إحداث تغيير إيجابي في المجتمع والمرأة محرومة من حق التعلم؛ لأن الأعراف والعادات الجاهلية أرادت ذلك وهي أعراف نافذة وعادات متحكمة ليس من اليسير تجاوزها أو العمل بخلافها لأن أعداء الفكرة يهيجون العوام ضد الرجل وفكره، فلم يجد الشيخ فرصة مواتية للدعوة إلى تغيير هذا الواقع المؤلم أحسن من الاستناد إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

(21) مجالس التذكير، ص192.
(22) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق فواز أحمد زميرلي، ط1، 1424ه.2001م، ج1، ص102.
(23) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج1، ص127.
(24) الموطأ، كتاب السلام، باب جامع السلام، ج2، ص960.
(25) انظر: مجالس التذكير، ص69.

ففي مقال له أورد فيه حديث البخاري عن **أبي سعيد الخدري** -رضي اللّه عنه- قال: "قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال اجعل لنا يوما من نفسك، فوعظهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان مما قال لهن: {ما منكن امرأة تقدم ثلاثا من ولدها إلا كان لها حجابا من النار فقالت إمرأة: واثنين قال: واثنين}.(26)

كما دعا صراحة إلى تعليم المرأة، لأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين معا مثل الطائر لا يطير إلا بجناحيه معا فقال: "النساء شقائق الرجال في التكليف فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علّمهن صلى الله عليه وسلم وأقرّهن على طلب التعلم".(27)

وقال في موضع آخر داعيا إلى تعليم المرأة: "فاستنادا إلى هذه الأدلة وسيرا على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات، وعلينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك تستحق أن تتبوأ منزلتها اللائقة والتي كانت لنا بين الأمم".(28)

إضافة إلى دعوته لتعليم المرأة، دعا الشيخ صراحة إلى خروجها إلى المساجد لتشهد الخير والتفقه في الدين وتكون معولا للبناء وأداة للإصلاح في المجتمع.

فأورد حديث مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد اللّه بن عمر أن **عبد اللّه بن عمر** -رضي اللّه عنهما- قال: "سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: {لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها} قال: فقال: بلال بن عبد اللّه: واللّه لنمنعهن قال فأقبل عليه عبد اللّه فسبّه سبا شديدا ما سمعته سبّه مثله قط وقال أخبرك عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وتقول: واللّه لنمنعهن"(29)

ثم كتب يؤكد بأن خروج النساء إلى المساجد أمر ثابت بالسنَّة العلمية والقولية لكن بجملة من الشروط والضوابط التي وضحها أهل العلم في مواضعها وأن الواجب في حق المسلم ألا يعارض أمرا ثبت أنه من الدين وشهدت له الأدلة الشرعية "هذا الذي وقع من بلال كثيرا ما يقع فيه مثله أو نحوه من أهل الجهل أو البدعة الذين شبوا عليها وشاقوا حتى صارت البدعة عندهم سنة والسنَّة بدعة فإذا ذكرت لهم الحكم الشرعي بدليله من الكتاب والسنَّة صدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين" محذرا في الأخير بقوله: "فحذار إذا سمعت حكما شرعيا أو نصا قرآنيا أو حديثا نبويا صحيحا أن تقابل بالخلاف أو تضمر الخلاف بل نشرح بذلك صدرا ولا يكن في صدرك حرج مما قضى اللّه ورسوله". (30)

5. دعوته إلى التكافل الاجتماعي:

سبق أن أشرت في مقدمة هذه الدراسة أن الشيخ -رحمه اللّه- لم يقصر اهتمامه على الجوانب الفقهية والتشريعية بل تجاوز ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية بل والسياسية والحضارية ذلك أن الهدف من شرح السنَّة عنده والاعتناء بمحتواها هو علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات.

و بعد تقديم نماذج من ذلك في المجال العقدي والفقهي والتشريعي نسوق نموذجا في المجال الاجتماعي والسياسي والحضاري، إذ أن الدعوة إلى التكافل الاجتماعي في تلك الحقبة الزمنية أراه يمثل بعدا اجتماعيا وسياسيا وحضاريا في



ابن باديس والطالبات

التعامل مع الوضع الاستعماري وهيمنته على الفرد هيمنة شاملة.

وهذا ما نوّه اليه الشيخ **ابن باديس** -رحمه اللّه- وهو يشرح حديث **لأبي موسى الأشعري** -رضي اللّه عنه-: {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر}(31).

يرى الشيخ أن الحديث يتضمن معنى كبيرا ومهِّما هو ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بالكل وعليه فالفرد ينظر إليه في النظر الاجتماعي العام من خلال ما ينظر به إلى أمته سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي أو انحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها(32).

والمتأمل في كلام الشيخ يدرك يقينا البعد الواقعي الذي رامه وهو يشرح الحديث النبوي ألا وهو قطع الطريق على الاستعمار الذي كان يراهن على إيجاد نخبة متغربة يقطع كل لها بتاريخها ودينها وقوميتها وتسعى جاهدة للاندماج في حضارة الغرب، والانصهار في ثقافته ويعطيها بعض الحقوق الشكلية فيبني بذلك جسرا من خلاله سياسة الاندماج والذوبان في الحضارة الغريبة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الشيخ يروم استنهاض همم بعض النخب المثقفة ◆◆◆

(26) البخاري، صحيح البخاري، باب هل للنساء يوم على حده في العلم.
(27) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج2، ص158.
(28) المصدر نفسه، ج2، ص161.
(29) صحيح مسلم، انظر: نيل الأوطار، ج4، ص11.
(30) المصدر نفسه.
(31) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.
(32) انظر:آثار الشيخ الإمام، ج2، ص103.

بالثقافة الغربية وتخرجت من الجامعات الفرنسية أن تقوم بواجبها تجاه أمتها فتوجه إليها قائلا: "واليوم وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعمليا عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإنهاض أمة تاريخية عظيمة من أممها ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد إلى كل من يرى التعاون على الخير والسعادة والسلام".[33]

ولأن الشيخ **عبد الحميد بن باديس** -رحمه اللّه- كان مدركا لسياسة المستعمر وأهدافه القاضية بين الشعوب الإسلامية بل وبين فئات المجتمع الواحد من خلال بث النعرات الطائفية والعرقية والجهوية المقيتة. فقد كان هدفه من شرح السنَّة هو استوحاؤه أن لا عزة للمسلمين إلا باتحادهم وتعاونهم وأن الاتحاد عمل يبدأ بالأفراد لينتهي بين الحكومات ورجال السياسة.

وأن يعمل الكل جاهدا على تفقد البناء وتمتينه حالا بعد حال ومحاربة كل مظاهر الاختلال التي تعتريه والفساد التي تطرأ عليه فكتب تحت عنوان فرعي (تبصرة) ما نصه: "ألا ترى البنيان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة والحجارة الصغيرة والمواد الأخرى التي تلحم بها الحجارة وتكسى وكل ذلك محتاج إليه في تشديد البنيان فكذلك بنيان المؤمنين فإنه مكوّن من جميع أفرادهم، على اختلاف طبقاتهم فالكبير والجليل له مكانه والصغير والحقير له مكانه وعلى كل واحد أن يسد الثغرة التي من ناحيته مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه كما أنه لا غناء له عن كل واحد منها فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته فبمقدار المركز الذي هو فيه والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخل بواجبه من ناحيته فإنه إذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل وإذا ابتدأ الخلل من الصغير تطرق للكبير".[34]

فالشيخ يؤكد على ضرورة التلاحم بين الأفراد مهما كانت مكانتهم الاجتماعية ومستواهم العلمي وألا يحقرن الفرد دوره في المجتمع والحرص على تماسكه ويختتم



التبصرة بقوله: "ثم ألا ترى أصابعك وفيها القوي وفيها الضعيف حتى إذا شبكتها صارت كشيء واحد له قوة ومتانة زائدة وكل أصبع منها يمكن أن يلوى مادام وحده فإذا شبكتها عسر عليها وقوي أمرها، فكذلك المؤمنون باتحادهم وفيهم القوي وفيهم الضعيف تكون لهم قوة عامة زائدة وكل واحد منهم بمفرده يمكن قهره فأما إذا اتحدوا فإنهم يكونون قوة اتحادهم في مأمن من كل قهر".[35]

وعليه نقول من خلال هذه الأمثلة وغيرها كثير نجد الإمام **عبد الحميد بن باديس** يغوص في أعماق النص النبوي ليستنبط منه جملة من الأحكام التشريعية والسنن الكونية التي تحكم سير الحضارات وقيام المدنيات التي يعرض واقع الأمة الإسلامية على ذلك كله، ليحدد مدى قرب أو بعد واقع الأمة من النموذج الذي حدّده له القرآن والسنَّة.

ذلك أن الهدف الأسمى من وراء دراسة السنَّة عنده هو بناء الأمة الإسلامية وبذل الجهود للعودة بها إلى المكانة التي حددتها لها السنَّة.

خاتمة:

لقد أمكننا الخروج بتصور حول عمق البعد الواقعي الإصلاحي الذي توخاه الشيخ من خلال مقالاته في الدرس الحديثي فيما تطرق إليه من مواضيع حساسة ومتنوعة على جميع المستويات والتي تعلقت بحال الجزائريين يمكن إيجاز مظاهر ذلك التحري في هذه النقاط:

1. الدقة في انتقاء الأحاديث ذات الصلة بالواقع والتبويب لها بما يوصل الرسالة المقصودة.
2. الدعوة إلى التمسك بكتاب اللّه وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- باعتبارهما مجدافي النجاة والخلاص ونبذ كل من شأنه أن يحل محلها من بدع وضلالات...
3. التأكيد على إلزامية طلب العلم والتعلم والتعليم وإذاعة هذا بين أبناء وطنه مبادرة منه لنجاح مشروعه الإصلاحي للقضاء على الاستعمار وإجلائه لأنه كان يغذي الجهل ويعزز تلك البدع والضلالات التي لا يتم دحضها إلا بالعلم والتعليم.
4. الحرص الواضح على مكانة المرأة في المجتمع الجزائري بالحث على تعليمها وإعدادها لتولي شؤون التربية والإصلاح المنزلي.
5. التأكيد على مبدأ التكافل الاجتماعي الذي يحقق القوة ومتانة الاتحاد وهما ضرورتان كلبنة أساسية في المشروع التغييري الإصلاحي الذي يهدف إلى إجلاء المستعمر الذي يمارس الفرقة وسياسة التغريب والإدماج.

وعليه نقول: يبقى الشيخ **عبد الحميد بن باديس** قدوة بعد **النبي** صلى الله عليه وسلم لمن يتولى راية الإصلاح والتغيير وهو أصدق من نظّر وطبّق مشروعا إصلاحيا ناجحا إلى حد بعيد مقارنة بغيره من المصلحين كيف لا وهو القائل: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى كتاب اللّه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح..." ◆◇

(33) آثار الشيخ عبد الحميدبن باديس، ج2، ص104.
(34) المصدر نفسه، ج2، ص101
(35) آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ج2، ص101.



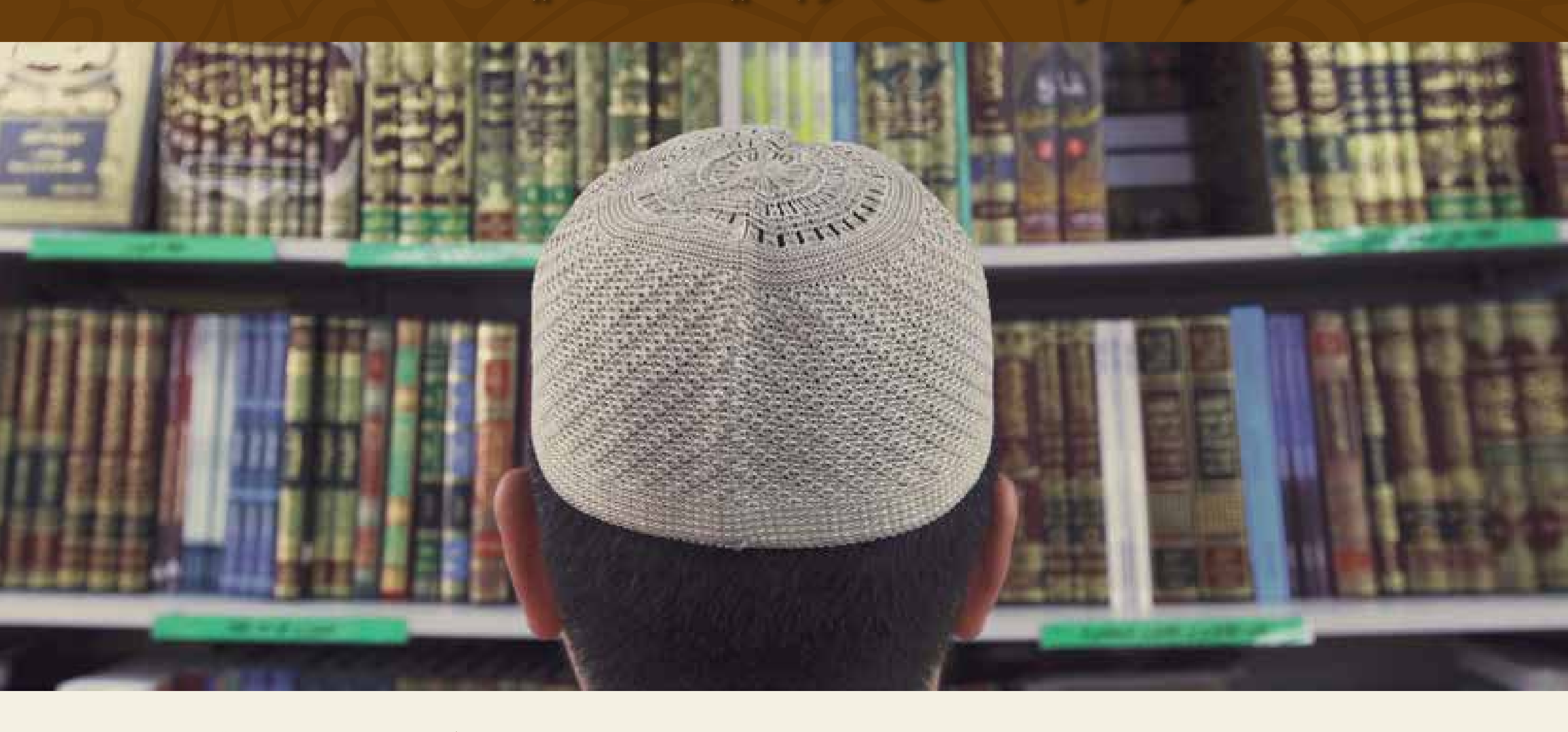


أ. **المختار بن عامر**

أستاذ علوم الشريعة متقاعد، ومشرف على مكتبة دار الحديث

اللامذهبية

وخطرها على المرجعية الفقهية للأمّة



اللامذهبية هي الدعوة إلى تجاوز المذاهب، ومحاولة القفز عليها، وهذه دعوة مجنونة إلى حرق كلّ الجهود المبذولة من قبل جهابذة العلماء، وقد تتسبّب في تصدّع كلّ ما يربط الأمّة بموروثها العلمي، وتعتبر خطرا على المرجعية الفقهية للأمّة.

ذلك لأنّ المذاهب هي عبارة عن منهجية معيّنة في الفهم للنصوص، واللامذهبية تعني اللامنهجية واللاهدف، وهذا يعني الفوضى وعدم النظام.

والدعوة إلى الأخذ مباشرة من النصوص، والخروج من هذه المنظومة الفقهية، التي هي نتيجة تراكمات الأجيال، هي نوع من الانتحار، كمن يريد القفز على قانون المرور، فيقع في المهالك.

ومثل هؤلاء كمثل الذين حاولوا خرق السفينة، وأخذ الماء مباشرة، دون المرور عبر المسالك الصحيحة، فأهلكوا أنفسهم وغيرهم، وكمثل من استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، فكانوا كمن يُنبذ بالعراء وهو سقيم، كما يقول الدكتور **أحمد عبادي** في إحدى محاضراته.(1)

فلو انساب الناس جميعا في بيداء اللامذهبية، لسادت الفوضى المهلكة، مثل ما يحدث تماما لو اقتحم الناس جميعا ميادين الاجتهاد في التخصصات الدنيوية، كالطب والهندسة والزراعة، بسبب أنّ الناس سيضعون الاجتهاد في غير مكانه، وسيطبقونه بدون شروطه، ويتجاهلون بذلك سنّة اللّه في الكون، من ارتباط فئات الناس بعضهم ببعض، في مجال التعاون والتناصر والتعلم والاسترشاد، كما يقول **الشيخ البوطي** في كتابه (اللامذهبية).(2)

فالمذاهب هي عبارة عن سياج يحمي الشريعة من التفتّت والانحلال، بوضع ضوابط وقواعد لفهم النصوص وتنزيلها على الواقع.

والنصوص لها أبواب تفتح بها، مثل فقه اللغة ومصطلح الحديث، وشتّى العلوم الأخرى، وكذا فقه الواقع وفقه التنزيل، الخ، وهذا هو عمل الفقهاء، وهو الوسيط لفهم النصوص الشرعية، وذلك لأنّه يستحيل أن تُستنبط الأحكام من النصوص وتُنزّل على الواقع، دون أن يكون ذلك عبر قناة العقل، فالفهم والتنزيل هو فعل بشريّ، وعمل عقليّ بحت، والتأسي والاقتداء هو انتقال من الكمال والمطلق إلى التجربة البشرية والفهوم النسبية التي يعتريها الخطأ، وهذه الجهود هي من اختصاص العلماء، ومن عمل المدارس الفقهية.

(1) أهمية المذهبية الفقهية وبيان تهافت اللامذهبية، للدكتور أحمد العبادي، الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء في المملكة المغربية، في أحد المؤتمرات في الشيشان.

(2) اللامذهبية أخطر بدعة تهدّد الشريعة للشيخ البوطي، ص 122-121، دار الفرابي للمعارف، دمشق، ط 2005.

اللامذهبية مذاهب متعدّدة لا أصول لها، ومشارب متنوعة لا ضابط لها

اللامذهبية في حقيقة الأمر غير موجودة في الواقع، لأنّ أصحابها انفضّوا عن الفقهاء، واتّخذوا من شيوخهم مذاهب متعدّدة، فخرجوا كما يقال عن الأربعة إلى الأربعين، وأصبحوا يخبطون خبط عشواء، منهجهم كسرَاب بِقِيعَة يحسِبه الظمآن ماء، فكانوا بذلك مثل الطفيليات التي تحيط بالأمّة، وتنخر جسمها، فهانت المرجعيات في أعين النّاس، وتصدّر الصغار ساحات الإفتاء، وانفلت زمام الفقه، حتّى أصبحت الجماعة الواحدة في المسجد الواحد تعيش نوعا من التشرذم والشتات، وصدق فيهم قول المتنبّي:

أفي كلّ يوم تحت ضبني[3] شُويعرٌ ضعيف يقاويني قصير يطاول

وما الكبر دأبي فيهم غير أنّنــــي بغيض إليّ الجاهل المتعاقـــل

والدعوة إلى اللامذهبية في هدفها البعيد هي محاولة لتغذية الصراعات الطائفية، وضرب المرجعية الدينية والوطنية للأمّة، وموروثها الفقهي، الذي يعتبر جزءا مهمّا من التاريخ الثقافي لها، لا يمكن إنكاره ولا تجاهله، بحال من الأحوال.

واللامذهبية مذهب بدون أصول، يغلب عليها الشذوذ والنظر السطحي، وغياب التأصيل العلمي، وبالتالي هي عُرضة للاندثار والذوبان، لأنّ الأصول هي التي تحفظ المذهب، بخلاف الفروع، فمهما تعدّدت فمرجعها دائما إلى أصولها.

واللامذهبيون نسبوا لأنفسهم فقه الكتاب والسنة، وفقه غيرهم إلى غير الكتاب والسنة، وشعارهم في ذلك: هم رجال ونحن رجال، وهم في الحقيقة يأخذون من كلّ مذهب جزءا، من دون أن يشعروا، وهذا الأمر من الخطورة بمكان، فعن **سليمان التيمي**، قال: "لو أخذت برخصة كلّ عالم اجتمع فيك الشّر كله"[4]، ونقل عن **الأوزاعي** قوله: "من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام".[5]

والفئة المستهدفة لدى اللامذهبيين هم عامّة الناس، يثيرون مشاعرهم، ويستغلون براءتهم وخلو بالهم، فيكون غلوّهم وتطرفهم، أوّل ما يقع في أذهان هؤلاء البسطاء، فيصعب بعد ذلك إقناعهم بالعكس، وهم بهذا العمل فتنة للعوام، وشطط للطغام[6]، وعبث بالمقرَّر من نافذ الأحكام، كما يقول **إدريس خليفة**.[7]

وهذه النظرة اللامذهبية للتراث، حوّلت الساحة الفقهية من سعة التعدّد الفقهي إلى المشقّة والضيق، مبتعدة في ذلك عن منهج النبوة، المبني على التيسير ورفع الحرج، فالنبيّ صلى الله عليه وسلم ما سئل في يوم الحج عن شيء قدّم أو أخّر إلا قال: {افعل ولا حرج}[8]، ولسان حال أصحاب اللامذهبية اليوم ما استُفتي عن شيء، إلا قال: "لا تفعل وأنت في حرج".

أقوال الفقهاء والعلماء هي عبارة عن ترجمة للنصوص الشرعية

إنّ أقوال الفقهاء والعلماء ما هي إلا ترجمة للنصوص الشرعية، والتلقي منها هو تلقّ من المصادر مباشرة.

قال الإمام **الشاطبي**: "فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين، والدليل عليه أنّ وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء؛ إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئًا، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم، ولا يجوز ذلك لهم ألبتة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. سورة النحل 43، والمقلّد غير عالم، فلا يصحّ له إلّا سؤال أهل الذكر، وإليهم مرجعه في أحكام الدّين على الإطلاق، فَهُمْ إذًا القائمون له مقام الشارع، وأقوالهم قائمة مقام الشارع".[9]

ويقول **ابن حزم**: "جميع ما استنبطه المجتهدون معدود من الشريعة، وإن خفي دليله عن العوام، ومن أنكر ذلك فقد نسب الأئمة إلى الخطأ، وأنهم يشرعون ما لم يأذن به اللّه، وذلك ضلال من قائله عن الطريق، والحق أنّه يجب اعتقاد أنّهم لولا رأوا في ذلك دليلا ما شرعوه".[10]

ويقول الشيخ **محمد حسنين مخلوف**: "وقد اعتبر الأصوليون وغيرهم، أقوال المجتهدين في حق المقلّدين القاصرين، كالأدلة الشرعية في حق المجتهدين، لا لأنّ أقوالهم لذاتها حجّة على النّاس تثبت بها الأحكام الشرعية، كأقوال الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنّ ذلك لا يقول به أحد؛ بل لأنّها مستندة إلى مآخذ شرعية، بذلوا جهدهم في استقرائها، وتمحيص دلائلها، مع عدالتهم وسعة اطلاعهم واستقامة أفهامهم، وعنايتهم بضبط الشريعة وحفظ نصوصها، ولذلك شرطوا في المستثمر للأدلة، المستنبط للأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، لكونها ظنيّة لا تنتج إلا ظنا، أن يكون ذا تأهّل خاص وقوة خاصة، وملكة قوية، يتمكن بها من تمحيص الأدلة على وجه يجعل ظنونه بمثابة العلم القطعي، صونا لأحكام الدّين عن الخطأ بقدر المستطاع".[11]

وقال الشيخ **عليش**: "إن تقليد الأئمة في اجتهادهم ليس تركا للآيات والأحاديث، بل هو عين التمسك، والأخذ بالآيات والأحاديث الصحيحة، فإن القرآن ما وصل إلينا إلا بواسطتهم، مع كونهم أعلم منّا بناسخه ومنسوخه، ومطلقه ومقيده، ومجمله ومبيّنه، ومتشابهه ومحكمه، وأسباب نزوله ومعانيه وتأويلاته، ولغاته وسائر علومه، وتلقّيهم ذلك عن التابعين، المتلقّين ذلك عن الصحابة، المتلقين عن الشارع، صلوات اللّه عليه وسلامه، المعصوم من الخطأ، الشاهد للقرون الثلاثة

---

(3) الضِبْنُ هو ما بين الإبط والخاصرة (انظر: معجم المعاني الجامع، عربي- عربي).
(4) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج 6، ص 198، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط 2، 2011.
(5) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج 7، ص 125، مرجع سابق.
(6) الطَّغام جمع طغامة، وهم أراذل الناس، وكلّ ضعيف ورديء من الشيء، وقيل هم الحمقى والأغبياء من الذكور والإناث. (انظر: معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي).
(7) انظر: اللامذهبية في الفقه لإدريس خليفة، من موقع: "http://www.habous.gov.ma".
(8) روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَقَفَ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ، فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ، فَقَالَ: "اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ"، فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ، فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِي، قَالَ: "ارْمِ وَلاَ حَرَجَ"، فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ صلّى اللّه عليه وسلم عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ، إِلاَّ قَالَ: افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ.
(9) الموافقات للشاطبي، ج 4، ص 232-231، دار الغد الجديد، ط 1، 2014.
(10) انظر: مقدمة إعلاء السنن، أبو حنيفة وأصحابه المحدّثون لأحمد العثماني التهانوي، ص 74، منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي - باكستان، والميزان للشعراني، ج 1، ص 116، ط عالم الكتب.
(11) بلوغ السول في مدخل علم الأصول، محمد حسنين محلوف، مطبعة مصطفى الحلبي، ص 15.

بالخيرية، وكذلك الأحاديث، ما وصلت إلينا إلا بواسطتهم، مع كونهم أعلم ممّن بعدهم بصحيحها وحسنها وضعيفها، ومرفوعها ومرسلها ومتواترها، وآحادها ومعضلها، وغريبها وتأويلها، وتاريخها المتقدم والمتأخر، والناسخ والمنسوخ، وأسبابها ولغاتها وسائر علومها، مع تمام ضبطهم، وتحريرهم لها، وكمال إدراكهم وقوّة ديانتهم، واعتنائهم وتفرغهم، ونور بصائرهم". [12]

المدارس الفقهية لم تخرج من العدم

إنّ المدارس الفقهية لم تخرج من العدم، فهي ليست سوى خلاصة لمدارس الصحابة في الفهم، وإرث عن منهج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهي نوع من التجميع لهذه الفهوم، في إطار قواعد، تبلورت في عهد التابعين، إلى أن تأسّست المذاهب الكبرى.
بدأت هذه المدارس بعصر الصحابة الكرام، اقتداء واستنباطا ممّا سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثمّ تفرّقوا في الأمصار، وكثرت الحوادث، فكانوا يفتون فيها حسب ما سمعوه وفهموه منه صلى الله عليه وسلم، ثمّ جاء بعدهم التابعون، وأتّبعوا منهجهم، فاشتهر منهم عدّة أئمة أمثال **سعيد بن المسيب** و**سالم بن عبد اللّه بن عمر** بالمدينة، و**عطاء بن أبي رباح** بمكة، و**إبراهيم النخعي** و**الشعبي** بالكوفة، و**الحسن البصري** بالبصرة، وغيرهم، فتعدّدت المذاهب حسب اختلاف الناس والنوازل والأماكن.

ثمّ ظهر الأئمة الكبار **أبو حنيفة** وأصحابه، **أبو يوسف** و**محمد بن الحسن**، تلقّوا فقههم من مدرسة الكوفة، وانتشر مذهبهم في العراق وخراسان وغيرها، ثمّ **مالك بن أنس** في المدينة، تلقّى فقهه من **ربيعة الرأي** و**ابن هرمز** و**نافع** مولى ابن عمر و**ابن شهاب الزهري**، ثمّ **الشافعي**، أخذ (الموطأ) عن **مالك** وتفقه عليه، ثم أخذ فقه أهل العراق فقرأ على **محمد بن الحسن**، وظهر على يديه علم جديد، هو علم أصول الفقه، ثمّ **أحمد بن حنبل**، الذي تتلمذ على يد **أبي يوسف**، وأخذ عن **الشافعي**.
فقد كانت مدرسة **أبي حنيفة** خلاصة لمدرسة الصحابي الجليل **عبد اللّه بن مسعود**-رضي اللّه عنه- ، الذي نزل الكوفة، وخرج على يديه الكثير من الفقهاء، ثمّ جاء بعدهم آخرون أمثال **إبراهيم النخعي** وتلميذه **حمّاد بن سليمان**، وعن هذا الأخير أخذ أبو حنيفة النعمان، وإليه انتهت مدرسة الرأي.
وكانت مدرسة **مالك** خلاصة لمدرسة **عبد اللّه بن عمر** و**زيد بن ثابت**، وغيرهما، وعن هؤلاء أخذ فقهاء المدينة السبعة، **كالقاسم بن محمد** و**سعيد بن المسيّب**، و**سالم بن عبد اللّه بن عمر**، وغيرهم، وأشهر من أخذ عنهم الإمام **مالك بن أنس** سالم مولى ابن عمر و**الزهري** و**ابن هرمز**، وإليه انتهى المذهب المالكي.
وكانت مدرسة **الشافعي** مزيجا للمدرستين السابقتين، مدرسة **مالك** و**أبي حنيفة**، تتلمذ على يد **مالك** وعلى **محمد بن الحسن**، تلميذ **أبي حنيفة**، ثمّ سافر إلى مصر وقابل مسائل وأحداث جديدة، ممّا جعله يستنبط أصول وقواعد جديدة، ويعتبر أوّل مؤسس لعلم أصول الفقه.
وكانت مدرسة **أحمد بن حنبل** خلاصة لمدرسة الأثر، فكان يكثر من العمل بالحديث متى صحّ سنده، ويقدّم أقوال الصحابة على القياس، تتلمذ على يد **سفيان الثوري** بالعراق، وقابل الإمام **الشافعي** وتعلم منه وتأثر به.

يقول **ابن القيم**:"والدّين والفقه والعلم، انتشر في الأمّة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد اللّه بن عمر، وأصحاب عبد اللّه بن عباس، فعلم النّاس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة، فأمّا أهل المدينة، فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد اللّه بن عمر، وأمّا أهل مكة، فعلمهم عن أصحاب عبد اللّه بن عباس، وأمّا أهل العراق، فعلمهم عن أصحاب عبد اللّه بن مسعود". [13]
وهكذا، كان لهذه المذاهب اتصال وثيق بالمنهج النبوي، ومنهج الصحابة الكرام والتابعين، بل هي، في مجموعها لا بأفرادها، تمثّل عين فقه الصحابة والتابعين، وتعدّ بحقّ السبيل الصحيح للسير على منهج القرآن والسنة، وليست خروجا عنهما كما يدعي المدّعون.
فالمذاهب هي مدارس فكرية من حيث قواعد التفكير ومناهجه، وأدوات الاستنباط والتحليل والاستدلال، تعمل على حفظ الشريعة، بالتفاعل مع النوازل والمستجدات.
ولم يكن غرض أحد من هؤلاء الأئمة أن ينشأ مذهبا، وإنّما اجتهدوا في العمل والاستنباط خصوصا في المسائل المتجدّدة، والترجيح بين الأدلة، فتكوّنت لديهم شبه مجامع علمية، مبنيّة على قواعد أصولية معيّنة، ومنهجية في البحث والاستدلال والترجيح، صارت فيما بعد تعرف بالمذاهب الفقهية، فمنها ما بقي كالمذاهب الأربعة المشهورة، ومنها ما اندثر كمذهب **الأوزاعي** و**الليث بن سعد**.
وقد كان كبار العلماء على هذه المذاهب، فهذا **يحيى بن معين** و**يحيى بن سعيد القطان** و**وكيع بن الجراح** و**الطحاوي** و**الموصلي** و**الزيلعي**، كانوا من أتباع المذهب **الحنفي**، و**ابن العربي** و**ابن عبد البر** و**القرطبي** و**القاضي عياض** من أتباع المذهب المالكي، و**أبو حامد الغزالي** و**السيوطي** و**العز بن عبد السلام** و**الفخر الرازي** كانوا من علماء المذهب الشافعي، و**ابن القيم** و**ابن تيمية** و**ابن الجوزي** و**ابن قدامة** كانوا من أتباع المذهب الحنبلي.
وكان الكثير من أصحاب الصّحاح من أتباع المذاهب الأربعة، فهذا صاحب الموطأ **مالك** هو نفسه صاحب المذهب، و**البخاري** و**مسلم** و**الترمذي** و**النسائي** و**ابن ماجه**، كانوا شافعيين، و**أبو داود** كان حنبليا، و**الطحاوي** كان حنفيا، الخ ...
والسلسلة الذهبية في الحديث تبدأ بصاحب المذهب المالكي، وهي: **مالك** عن **نافع** عن **ابن عمر**، إلى **رسول اللّه** صلى الله عليه وسلم.
وقد كتب الكثير من العلماء، أتباع المذاهب الأربعة، كتبا في أدلة الأحكام، وفي السنة النبوية خصوصا، ففي الفقه الحنفي نجد شرح (معاني الآثار) **للطحاوي**، وإعلاء السنن) **للتهانوي**، وفي الفقه المالكي نجد (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)، **لابن عبد البر**، وفي الفقه الشافعي نجد (السنن الكبرى) **للبيهقي**، و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام) **لابن حجر العسقلاني**، وفي الفقه الحنبلي نجد (منتقى الأخبار) **لمجد الدين بن تيمية**، الخ...

---

(12) فتح العلي المالك للشيخ عليش، ج 1، ص 100، دار المعرفة بيروت.
(13) إعلام الموقّعين لابن القيّم، ج 1، ص 17،

القواعد الكلية وما عليه العمل بمثابة المتواتر

القواعد الكليّة، وما كان عليه العمل، كعمل أهل المدينة، هي بمثابة المتواتر، لأنّ أصولها نقلية، استُقرأت، وتشكّلت من مجموعة فروع فقهية مستنبطة من نصوص القرآن والسنة، فكانت مرجعا يقدّم على أحاديث الآحاد، قال **عطاء**: "ما أجمعت عليه الأمة أولى عندنا من الإسناد، وهذا الذي اختاره أبو حنيفة -رحمه اللّه- في تدوين المسائل واستخراج الأحكام، فإنّه كان يذهب في ذلك على عرض أخبار الآحاد على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن، فما شذّ من ذلك ردّه، وسمّاه شاذّا". [14]

وكذلك ما عليه العمل، كعمل أهل المدينة، قال **زيد بن ثابت**: "إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنّه السنة" [15]، وقال **ابن القاسم** و**ابن وهب**: "رأيت العمل عند مالك أقوى من الحديث" [16]، أي عمل أهل المدينة، لأنّه متواتر، جيلا عن جيل، وقال **عبد الرحمن بن مهدي**: "السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث". [17]

وكان رجال من التابعين تبلغهم عن غيرهم الأحاديث فيقولون: "ما نجهل هذا، ولكن مضى العمل على غيره". [18]

وقال **مالك**: "رأيت محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وكان قاضيا، وكان أخوه عبد اللّه، كثير الحديث، رجل صدق، فسمعت عبد اللّه إذا قضى محمّد بالقضية قد جاء فيها الحديث مخالفا للقضاء، يعاتبه، ويقول له: ألم يأت في هذا حديث كذا؟ فيقولك: بلى، فيقول أخوه: فما لك لا تقضي به؟ فيقول: فأين الناس عنه؟، يعني ما أجمع عليه من العلماء بالمدينة، يريد أنّ العمل بها أقوى من الحديث". [19]

وروي عن **ابن أبي الزناد** أنّه قال: "كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء، ويسألهم عن السنن والأقضية التي يُعمل بها فيثبتها، وما كان منه لا يَعمل به الناس ألغاه، وإن كان مخرجه من ثقة". [20]

خطورة الأخذ مباشرة من النصوص دون الرجوع إلى العلماء والفقهاء

الأخذ المباشر من الكتاب والسنة لا يسلم صاحبه من الوقوع في المزالق، خصوصا إذا كان هذا الآخذ أميّا، ليس له من الفقه قبلٌ ولا بعدُ، فقد رأينا الكثير من هؤلاء يستشهدون بأحاديث ليست في موضعها، فربّما صلّى أحدهم الوتر بعد الاستجمار مباشرة من غير وضوء، مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم: {من استجمر فليوتر} [21]، وربّما قال قائلهم بأنّ النحل له ملك وليس ملكة، مستدلا بالحديث: {لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة}. [22]

قال **ابن وهب**: لولا **مالك بن أنس** و**الليث بن سعد** لهلكت، كنت أظنّ أنّ كلّ ما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم يُعمل به [23]، وقال الإمام **أحمد**: "ما زلنا نلعن أهل الرأي ويلعنوننا، حتى جاء الشافعي فمزج بيننا" [24]، وقال: "ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته". [25]

الحديث مضلة إلا للفقهاء

هذه عبارة قالها **ابن عيينة** [26]، وورد مثلها عن **ابن وهب**: "الحديث مضلة إلا للعلماء" [27]، قال ابن **أبي زيد القيرواني** في تفسيرها: "يريد بذلك أنّ غيرهم قد يحمل الشيء على ظاهره، وله تأويل من حديث غيره، أو دليل يخفى عليه، أو متروك أوجب تركه غير شيء ممّا لا يقوم به إلا من استبحر وتفقه" [28]، واستأنس بها الشيخ **علّيش** في قوله بخطورة الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما، من غير استناد إلى رؤية المجتهدين من الفقهاء. [29]

وروى **ابن أبي أويس** عن **مالك** قوله: "إنّ هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممّن يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين، وأشار إلى المسجد، فما أخذت عنهم شيئا، وإنّ أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا، إلا أنّهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن". [30]

ورُوي عنه أيضا، قوله لابنيْ أخته بكر وإسماعيل: "أراكما تحبان الحديث وتطلبانه، قالا: نعم، قال: إن أحببتما أن تنتفعا به وينفع اللّه بكما، فأقلا من الحديث، وتفقها". [31]

أسكت لا شيخ لك

وهذه عبارة قالها علماء تونس لأحد طلبة العلم، هو **أحمد بن نصر الداودي**، من أئمة المالكية بالمغرب، أصله من بسكرة وقيل من المسيلة، دُفن بتلمسان، ويعرف عند التلمسانيين بـ(سِيدْ الدَاوْدِي)، وكان ينكر على معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة العبيديين الشيعة، وبقاءهم بين أظهرهم، وأفتى بوجوب الخروج من القيروان، وأنّه كتب إليهم مرة بذلك، فأجابوه: "أسكت لا شيخ لك"، لأنّه كان عصاميا، ولم

---

(14) تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة للسيوطي، هامش ص 78، نقلا عن الانتقاء لابن عبد البر، ص 149، شركة دار الأرقم، بيروت – لبنان.

(15) معرفة السنن والآثار للبيهقي، ج 1، ص 152، وترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 11، مرجع سابق.

(16) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 22، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1998، وكتاب الجامع للإمام ابن أبي زيد القيرواني، ص 118، مؤسسة الرسالة – بيروت، والمكتبة العتيقة – تونس، ط 2، 1983.

(17) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 22، مرجع سابق، والجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، لابن أبي زيد القيرواني، ص 118، مرجع سابق.

(18) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 22، مرجع سابق.

(19) ترتيب المارك للقاضي عياض، ج 1، ص 22، مرجع سابق.

(20) ترتيب المارك للقاضي عياض، ج 1، ص 22، مرجع سابق.

(21) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وفي معناه للعلماء قولان، الأول: من قطع الخارج من بولٍ أو غائط فليوتر، الثاني: من تطيب بالبخور فليوتر، لأنّ البخور يسمى بذلك.

(22) رواه البخاري في كتاب المغازي، وهو على رأي الكثير من العلماء خاص ببنت كسرى التي تولت الحكم بعد موت أبيها وأخيها، فلمّا علم صلّى اللّه عليه وسلّم بالخبر قال ذلك، وكان يعني الروم، وليس عموم الناس.

(23) شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي، ج 1، ص 413، دار الملاح للطباعة والنشر.

(24) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 40، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 2012.

(25) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 224، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1998.

(26) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، وفتح العلي المالك للشيخ عليش، مرجع سابق.

(27) انظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 1، ص 40، ط 2012، مرجع سابق.

(28) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي، ص 207، مرجع سابق، وفتح العلي المالك، مرجع سابق.

(29) فتح العلي المالك للشيخ عليش، ج 1، ص 100، مرجع سابق.

(30) ترتيب المدارك للقاضي عياض. ج 1، ص 57، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 2012.

(31) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي، ص 208، مرجع سابق.

يتفقه في أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنّما وصل إلى ما وصل بإدراكه، ولو كان له شيخ يفقّهه حقيقة الفقه، لعلم أنّ بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على الإسلام، وبقية صالحة للإيمان، وأنّه لو خرج العلماء عن إفريقية، لتشرّق من بقي فيها من العامة الألف والآلاف.[32]

ربّ حامل فقه وليس بفقيه

الفقهاء أولى بالحديث من المحدّثين، وعملهم مكمّل لعلمهم، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فعن **عبد اللّه بن مسعود** -رضي اللّه عنه- ، قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: {نضّر اللّه امرأ سمع منّا شيئا، فبلّغه كما سمع، فربّ مبلّغ أوعى من سامع}[33]، وقال الإمام **أحمد بن حنبل**: "ما أقلّ الفقه في أصحاب الحديث".[34]

وذكر **ابن عبد البر** و**ابن حجر الهيثمي**[35]، عدّة أمثلة في هذا المعنى، نذكر منها ما يلي: "وقفت امرأة على مجلس فيه يحي بن معين، وزهير بن حرث، وخلف بن صالح، وجماعة، يتذاكرون الحديث، فسألتهم: هل تغسل الحائض الميت؟، فسكتوا، فأقبل أبو ثور، فأمروها أن تسأله، فسألته، فقال: نعم، تغسله، لحديث عائشة -رضي اللّه عنها-: {إن حيضك ليس في يدك}، وأنّها كانت تفرق رأسه صلى الله عليه وسلم، وهي حائض، فإذا فرقت رأس الحي، فالميت أولى بذلك، قالوا: نعم، حدثنا بذلك فلان عن فلان، فقالت لهم: أين كنتم إلى الآن؟".

وكان **الأعمش** يسأل **أبا حنيفة** عن المسائل، فيجيبه، فيقول: "من أين لك هذا؟، فيقول: أنت حدثتنا عن النخعي بكذا، أو عن الشعبي بكذا، فيقول الأعمش عند ذلك: يا معشر الفقهاء: نحن الأطيار وأنتم الصيادون لها"، وفي رواية أخرى قال له: "يا معشر الفقهاء، أنتم الأطباء، ونحن الصيادلة"، وأثر عن الإمام **الشافعي** قوله: لأصحاب الحديث: "أنتم الصيادلة ونحن الأطباء".

وعن **أبي يوسف**، قال: سألني الأعمش عن مسألة، فأجبته، فقال لي: من أين قلت هذا يا يعقوب؟، قلت: بالحديث الذي حدّثتني أنت، فقال لي: يا يعقوب، إنّي لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك، ما عرفت تأويله إلى الآن".

أهمية فقه الحديث

قال الإمام **أبو حنيفة**: "من طلبَ الحديث ولم يطلب تفسيره ومعناه، ضاع سعيه، وصارَ وبالاً عليه"[36]، وقال **ابن وهب**: نظر مالك إلى العطاف بن خالد، فقال: بلغني أنّكم تأخذون من هذا، فقلت: بلى، فقال: ما كنّا نأخذ الحديث إلا من الفقهاء"[37]، وقال أيضا: "كلُّ صاحب حديثٍ ليس له إمام في الفقه فهو ضالٌ، ولولا أن اللّه أنقذنا بمالك والليث لضللنا".[38]

وقال **ابن تيمية**: "قال أحمد بن حنبل: معرفة الحديث والفقه فيه، أحبّ إليّ من حفظه[39]، وقال بعضهم: لا أجهل من صاحب حديث إن لم يتفقه فيه".[40]

وقال **ابن أبي ليلى**: "لا يتفقهُ الرجل في الحديث حتى يأخذ منه ويدع"[41]، وقال الإمام **المزني**: "فانظروا رحمكم اللّه على ما في أحاديثكم التي جمعتموها، واطلبوا العلم عند أهل الفقه تكونوا فقهاء إن شاء اللّه".[42]

وقال الإمام **أبو علي النيسابوري**: "الفهمُ عندنا أجلُّ من الحِفظ "[43]، وقال **الخطيب البغدادي**: "وليعلم أنّ الإكثار من كتب الحديث وروايته، لا يصير به الرجل فقيها، وإنّما يتفقه باستنباط معانيه، وإنعام التفكير فيه".[44]

ضرورة الجمع بين الحديث والفقه

لا بدّ للعلماء من الجمع بين علم الحديث وعلم الفقه، فهما كما قال الأقدمون: "المحدّث بلا فقه كعطّار غير طبيب، الأدوية حاصلة في دكّانه ولا يدري لماذا تصلح، والفقيه بلا حديث، كطبيب ليس بعطّار، يعرف ما تصلح له الأدوية، إلا أنّها ليست عنده"[45]، وهما كما قال **القاضي الرامهرمزي**: "يكملان إذا اجتمعا، وينقصان إذا افترقا"[46]، ونقل الإمام **البخاري** عن **علي بن المديني** قوله: "التفقّه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم".[47]

وقال **الخطابي** في مقدمة شرحه لسنن أبي داود: "الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع، وكلّ بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكلّ أساس خلا عن بناء وعمارة، فهو قفر وخراب".[48]

وقال **إبراهيم النخعي**: "لا يستقيم العمل بالحديث إلا بالرأي، ولا يستقيم العمل بالرأي إلا بالحديث"[49]، وروى هذا القول عن الإمام **محمد بن الحسن الشيباني** في أدب القاضي أيضا.[50]

شبهات اللامذهبيين

من أعظم الشبهات التي يتحجّج بها اللامذهبيون، هي قولهم: "أنا أقول لهم: قال اللّه وقال رسوله، وهم يقولون: قال فلان وفلان، كمالك وأبي حنيفة"، أو قولهم: "اعرض قول مالك أو أبي حنيفة على كتاب اللّه وسنة ورسوله، فإن وافق ذلك فبها، وإلا فلا تأخذ به".

---

(32) انظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج 2، ص 229–228، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 2012.
(33) رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وقال: حديث حسن صحيح.
(34) المسالك في شرح موطأ الإمام مالك لابن العربي، ج 1، ص 39، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
(35) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ج 2، ص 1030–1029، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي، ص 208، مرجع سابق.
(36) أبو حنيفة النعمان لسليمان غاوجي، ص 179، دار القلم، دمشق، ط 5، 1993. (نقلا عن مناقب الموفق، 2/160).
(37) ترتيب المدارك للقاضي عياض، ص 58، مرجع سابق.
(38) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني، مرجع سابق، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي، ص 208، ط قديمة ليس فيها ذكر المطبعة.
(39) المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي، ج 1، ص 43، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
(40) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي، ص 208، مرجع سابق.
(41) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ص 1033، مرجع سابق، وقال: إسناده صحيح.
(42) كتاب الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، المجلد 2، الجزء السابع، ص 35، دار ابن الجوزي، ط 1، 1996.
(43) الأعلام للزركلي، ج 8، ص 164، مطبعة العلوم، حارة حريك، لبنان.
(44) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، ج 2، ص 159، مرجع سابق.
(45) الحاوي للفتاوي للسيوطي، ج 2، ص 217، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، سنة 2000 م.
(46) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للقاضي الرامهرمزي، ص 161، دار الفكر، ط 3، 1984.
(47) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للقاضي الرامهرمزي، ص 320، دار الفكر، ط 3، 1984.
(48) معالم السنن للخطابي، ج 1، ص 3، مطبعة محمد راغب الطباخ، حلب، ط 1، 1932.
(49) انظر: مقدمة الموطأ، رواية محمد بن الحسن، للأستاذ عبد الفتاح أبوة غدّة.
(50) أصول السرخسي، ص 374، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط 1، 2005.

وهذا القول فيه مغالطة ومفارقة: إذ كيف لهذا العامي الجاهل، أن يعرض قول عالم على الكتاب والسنة؟ من هو حتّى يفعل ذلك؟ ثمّ هل **مالك** أو **أبو حنيفة** نسيا أن يعرضا كلامهما على الكتاب والسنة؟، يقول الشيخ **عليش**: "وقولهم لمن قلّد مالكا مثلا: نقول لك: قال اللّه أو قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وأنت تقول: قال مالك أو ابن القاسم أو خليل، الخ، جوابه أنّ قول المقلّد: قال مالك، الخ، معناه: قال مالك فاهما من كلام اللّه، أو كلام رسوله، أو متمسّكا بعمل الصحابة والتابعين، الفاهمين كلام اللّه أو كلام رسوله، أو المتأسّين بفعل رسوله ...".[51]

وربّما احتجّ هؤلاء، بقول **ابن عبّاس**: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟"، وهذا الأثر ورد عن ابن عبّاس في معرض الكلام عن التمتّع في الحج، قال: "تمتّع النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال عُروة بن الزّبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عبّاس: ما يقول عُرَيَّةُ[52]؟، قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عبّاس: أُرَاهم سيهلِكون، أقول: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويقول: نهى أبو بكر وعمر".

وفي رواية، قال **عروة لابن عباس**: "ألا تتقي اللّه ترخّص في المتعة ؟! فقال ابن عباس: سل أمّك يا عُرية، فقال عروة: أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا، فقال ابن عباس: واللّه ما أراكم منتهين حتى يعذبكم اللّه، أحدّثكم عن رسول اللّه، وتحدّثونا عن أبي بكر وعمر".[53]

فمن حيث الرواية، هذا الأثر إسناده ضعيف، رغم تصحيحه كما في الزاد **لابن القيم**[54]، لأنّ فيه شريك بن عبد اللّه، وهو ضعيف، قال عنه **الحافظ** في **(التقريب)**: "صدوق يخطئ كثيرا، تغيّر حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة".[55]

وأمّا من حيث العمل، فاختلف الصحابة فيه، فنهى عن ذلك **أبو بكر** و**عمر**، وأمر به **ابن عباس**.

قال **عروة لابن عبّاس**: "لهما أعلم بسنّة رسول اللّه، وأتبع لها منك"، وفي رواية الطبراني، قال **عروة**: "هما كانا أعلم بكتاب اللّه، وما سنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، منّي ومنك"، قال **ابن أبي مليكة**: "فخصمه عروة".[56]

قال الإمام **الذهبي**: "ما قصد عروة معارضة النبيّ صلى الله عليه وسلم بهما، بل رأى أنّهما ما نهيا عن المتعة، إلا وقد اطلعا على ناسخ".[57]

والظاهر أنّ نهي بعض الصحابة عن التمتع في أشهر الحج، هو نهي تنزيه لا تحريم، فكانوا يرون أنّ الإفراد أفضل،[58] وهم لا يُتّهمون في ترك السنن، كما قال **إبراهيم النخعي**: "لو رأيت الصحابة -رضي اللّه عنهم- يتوضؤون إلى الكوعين لتوضأت كذلك، وأنا أقرؤها إلى المرافق؛ وذلك لأنّهم لا يُتّهمون في ترك السنن، وهم أرباب العلم، وأحرص خلق اللّه على اتّباع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، ولا يظنّ ذلك بهم أحد، إلا ذو ريبة في دينه".[59]

ومنها استدلالهم بقول الإمام **أحمد بن حنبل**، بأنّ الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، وجوابه أنّ المقصود بأهل الحديث في قول الإمام **أحمد** هم أهل زمانه، لأنّهم كانوا هم جمهور أهل السنة، وأمّا ما يفهم منه من إخراج الفقهاء، فالفقهاء كلّهم كانوا من أهل الحديث.[60]

ومن الشبهات أيضا، قولهم أنّ اللّه تعالى لم يوجب علينا أن نتعبّد بأقوال النّاس، وجوابه أنّ القرآن الكريم دعا إلى الرجوع لأهل العلم، حيث قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، سورة النحل 43، خصوصا عند الاختلاف، حيث قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. سورة النساء 83.

ومن الشبهات أيضا، قولهم: "الدعوة إلى المذهبية هي دعوة إلى التعصب"، وهذا غير صحيح في الواقع، لأنّ وجود المذاهب معناه الدعوة إلى الانفتاح على الغير، وتعدّد الأفهام واختلافها، والمذهبية مظهر من مظاهر التنوّع الفقهي والتكامل المعرفي، وهي تمثّل اختلاف التنوّع لا اختلاف التضاد، بينما اللامذهبية هي الدعوة إلى الأحادية والإلزام بها، وهذا هو التعصب.

ومنها قولهم، "أنّ صحّة الحديث تكفي للعمل به، دون اللجوء إلى قول فلان أو فلان"، وهذا الكلام صحيح من حيث المبدأ، ولكن فهمه يقتضي المرور عبر قنوات عقول الأئمة والفقهاء، لمعرفة كيفية تنزيله على الواقع، بعد دراسته أصوليا، من إطلاق وتقييد، وناسخ ومنسوخ، الخ، فالمقصود من قول بعض العلماء "إذا صحّ الحديث فهو مذهبي" هو "إذا صلح الحديث للعمل به فهو مذهبي"[61]، وهذا الكلام ليس موجّها للعوام، بل للعلماء الكبار ومن في مرتبتهم.

ومنها قولهم، "أنّ الأخذ مباشرة من القواعد والمتون، يعتبر تقديما لها على كلام اللّه ورسوله"، وهذا أمر ضروري، من أجل فهم كلام اللّه ورسوله، بدليل جواز تقديم علم اللغة عليهما من أجل فهمهما، فذلك من باب تقديم الوسيلة من أجل فهم الغاية المطلوبة، وما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب.

ومنها زعمهم، "أنّ المقلّد للمذهب يكون قد اقتدى بقول الكفار" ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ

---

(51) فتح العلي المالك للشيخ عليش، ج 1، ص 100، دار المعرفة بيروت.

(52) أصلها عُرَيْوَة، تصغير عروة، اجتمع فيها حرفا علّة، فأبدلت الواو ياء وأدغمت في الأخرى.

(53) رواه أحمد في المسند، وأورده ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله"، ج 2، ص 1210، دار ابن الجوزي، وابن القيم في زاد المعاد، ج 2، ص 195 و206، مؤسسة الرسالة – بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية – الكويت، ط 8، 1985، وابن تيمية في الفتاوى، ج 20، ص 215، وج 26، ص 50 و281، طبعة مكتبة المعارف، الرباط، المغرب.

(54) انظر: زاد المعاد لابن القيم، ج 2، ص 206، مرجع سابق.

(55) تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني برقم 3084، ج 1، ص 337، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط 3، 2001، وسير أعلام النبلاء، ج 15، ص 243، مؤسسة الرسالة، ط 2، 2011.

(56) رواه الطبراني في الأوسط، برقم: 1718، (انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ج 3، ص 234).

(57) سير أعلام النبلاء، ج15 ، ص 243، مرجع سابق.

(58) انظر: النووي في شرح مسلم، ج 8، ص 164-165، المكتب الثقافي، القاهرة، ط 1، 2001.

(59) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني، ص 118، مرجع سابق، والمدخل، لابن الحاج، 122، وفتح العلي المالك، مرجع سابق.

(60) انظر: فقه العصر لمحمد الحسن ولد الدّدو، ص 23-22، دار ابن حزم، ط 1، 2008.

(61) انظر: حاشية ابن عابدين على الدر المختار (المقدمة)، ج 1، ص 167، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 2003، وقال: نقله أيضا الإمام الشعراني عن الأئمة الأربعة، وانظر أيضا: كتاب إرشاد المقلدين لباب الشنقيطي، ص 95 – 96، (منقول عن القرافي في شرح تنقيح الفصول).

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، سورة الزخرف 23، وهذا قول باطل، وقياس مع الفارق، فالأُولى في الهدى، والثانية في الكفر، وشتّان بين مشرّق ومغرّب، وكلّ آيات وأحاديث تذم التقليد، وأنّه من الهوى والضلال، فالمقصود بها التقليد المذموم، الذي كان في زمن الجاهلية، وليس له علاقة بإتباع الأئمة في الفقه، لأنّه يندرج تحت قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها زعمهم، "أنّ في الأخذ بأقوال المذاهب اختيار بين أقوال العلماء من جهة، وبين قول اللّه تعالى ورسوله من جهة أخرى"، وهذه مغالطة مفضوحة، فأقوال العلماء واجتهاداتهم هي فهم للنصوص فقط، وهما ليسا شيئين متضادّين حتى نتخيّر بينهما.

ومنها قولهم، "على أيّ مذهب كان الناس قبل نشأة المذاهب؟"، والجواب أنّه لم تكن هناك مذاهب مكتملة، إنّما كان هناك اجتهادات متفرقة، وكان الناس يتمذهبون على بعض هذه الاجتهادات، ويقلّدونها، من أمثال **ابن عبّاس** و**عطاء**، و**مجاهد**، و**سعيد بن جبير**، الخ، فكان سبعون رجلا يجتمعون في حلقة **ابن عباس**، لا يصدرون إلا عن رأيه[62]، وكان يقال مثلا: "لا يفتي الناس إلا عطاء"[63]، وكان **ابن عباس** يقول:"يا أهل مكّة، تجتمعون عليَّ وعندكم عطاء"[64]، وكان يقول لأهل الكوفة، إذا ما سألوه عن شيء: "أليس فيكم ابن أمّ الدهماء؟" يعني **سعيد بن جبير**[65]، وكان حبشي الأصل، وقال الإمام **الذهبي** في ترجمته **لمجاهد**: "أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به"[66].

قال **أحمد باشا تيمور**: "وكانت الفتيا قبل حدوث هذه المذاهب، تؤخذ في عصر الصحابة والتابعين عن القراء منهم، وهم الحاملون لكتاب اللّه، العارفون بدلائله، فلمّا انقضى عصرهم، وخلف من بعدهم التابعون، اتّبع أهل كلّ مصرٍ فتيا من كان عندهم من الصحابة، لا يتعدونها، إلا في اليسير ممّا بلغهم عن غيرهم؛ فاتّبع أهل المدينة، في الأكثر، فتاوى عبد اللّه بن عمر، وأهل الكوفة، فتاوى عبد اللّه بن مسعود، وأهل مكّة، فتاوى عبد اللّه بن عباس، وأهل مصر، فتاوى عبد اللّه بن عمرو بن العاص. وأتى بعد التابعين فقهاء الأمصار، كأبي حنيفة ومالك، وغيرهما، ممّن ذكرناهم، وممّن لم نذكرهم، فاتبع أهل كل مصر مذهب فقيه في الأكثر، ثمّ قضت أسباب بانتشار بعض هذه المذاهب في غير أمصارها، وبانقراض بعضها"[67].

اللامذهبية والتعصّب المذهبي

إنّ الكلام عن اللامذهبية يدعونا حتما إلى الكلام عن المذهبية المتعصّبة، فهي أيضا مذمومة، وأتباع المذاهب قد يخالفون إمامهم في الفروع، وليس في ذلك ما يُريب، والفروع يجوز فيها الاختلاف، لأنّ المذهب هو مجموع القواعد، وليس مجموع الفروع، وقد خالف الكثير من الفقهاء أئمتهم، **كأبي يوسف، ومحمد بن الحسن** عند الحنفية مثلا، أو **كابن القاسم** و**سحنون** من المالكية، ومن المتأخرين **ابن العربي** والمدرسة الأندلسية، وقد نُسب إلى هذه الأخيرة قولها: "لسنا مماليك لمالك"، وهذا **أشهب** من المالكية لما قيل له أنّ **مالكا** يقول كذا، في مسألة من مسائل العتق، وأنت تخالفه، قال: "إن قاله مالك، فلسنا له بمماليك"[68].

بدأت ظاهرة التعصب المذهبي في القرون المتأخّرة، في أواخر الخلافة العثمانية، التي تبنّت المذهب الحنفي، حيث ألحق به أصحابُه جملة من الأحكام، مثل تحريم الانتقال من المذهب الحنفي إلى غيره، وإقامة التعزير على من يفعل ذلك، وابتداع عدّة محاريب في المسجد الواحد، بقدر عدد المذاهب المنتشرة في تلك المنطقة، تمهيدا لتنظيم أربع جماعات في المسجد الواحد في كلّ صلاة، وانتشرت هذه العادة في بعض البلاد، كالشام والعراق، والمسجد الأموي خير شاهد على ذلك[69].

ومن أشهر ما ذُكر في هذا المجال، ما نُسب إلى **ناصر الدين اللقاني**: "نحن قوم خليليون إن ضلّ ضللنا"[70]، رغم أنّ الكثير من أتباع المالكية يحملون هذا الكلام على محمل حسن، وهو أنّ الفتوى استقرت على ما في (مختصر خليل)، فصار بذلك قوله متبوعا، وأنّ المراد بالضلال الخطأ.

وكذلك ما أثر عن أحد الحنابلة:

أنا حنْبلِي ما حييت وإن أمت
فوصيّتي للنّاس أن يتحنبلوا

والمفروض أنّ الاختلاف المذهبي يكون رحمة للنّاس، "لكن بعض المتعصّبين للمذاهب أبوْا إلا أن يكون محلّا للتشاجر والتشاحن، وألبسوا اختلاف الفقهاء رداء كريها من التحايل والتحزّب، حتّى صار المسلم، إذا وجد في بلد يتعصّب أهله لمذهب غير مذهبه، كالبعير الأجرب بينهم"[71].

وذكر الإمام **محمد رشيد رضا** بعض صور هذا التعصّب، نذكر منها: أنّ بعض الحنفية من الأفغان، سمع رجلا يقرأ الفاتحة، وهو بجانبه في الصفّ، فضربه على صدره حتّى أوقعه، وكاد يقتله، وأنّ بعضهم كسر سبابة مصلّ أمامه، لأنّه رفعها في التشهّد[72].

ومثل هذا موجود عند بعض أتباع المذاهب، والحقيقة هي أنّ هذا الأمر سبيله الوسطية والاعتدال اللذان جاءت بهما الشريعة، فهذه المذاهب عبارة عن وسائل لا غايات، فلا ينبغي أن نتعامل معها بنوع من القداسة، وأن نجنح بها سُبل التطرف والغلو، ما دام المقصد الأسمى منها هو خدمة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، سورة البقرة 143

(62) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، ج 1، ص 62، دار الحديث، القاهرة، ط 2005.
(63) سير أعلام النبلاء، ج 5، ص 82، مرجع سابق.
(64) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، ج 1، ص 103، مرجع سابق.
(65) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، ج 1، ص 94، مرجع سابق.
(66) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، ج 1، ص 96، مرجع سابق.
(67) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، لأحمد تيمور باشا، ص 48-47، دار القادري، بيروت – لبنان.
(68) انظر: نيل الابتهاج لأحمد بابا التمبكتي، ص 442، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس – ليبيا، ط 1، 1989.
(69) انظر: أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية، للشيخ البوطي، من موقع نسيم الشام: (www.naseemalsham.com).
(70) انظر: تحريم نهب أموال المعاهدين للنصارى، لمحمد عبد اللّه البوصادي، ص 192، تحقيق الدكتور حماه اللّه ولد السالم، نواقشط.
(71) الانسلاخ من المذاهب الفقهية، ص 154، مذكرة ماجيستير للطالبة مليكة صوالح، جامعة الحاج لخضر- باتنة، السنة الجامعية 2005-2006، (نقلا عن محمد رشيد رضا، مقدمة كتاب المغني لابن قدامة، ج 1، ص 18).
(72) الانسلاخ من المذاهب الفقهية، مرجع سابق.



استشارات شرعية

هذه مجموعة من التساؤلات الفقهية والإستشارات الشرعية التي وصلت إلى جمعية العلماء أجاب عنها وأعدها فضيلة الشيخ كمال أبوسنة بأسلوب مبسط ومختصر رأت مجلة "التبيان" أن تنشرها لينتفع بها القراء:

السؤال

تقدم لخطبتي شقيق زوجي، وقد توفي زوجي منذ سنة هل يجوز الزواج منه؟

أم صلاح الدين / العاصمة

الجواب

يجوز للرجل أن يتزوج من أرملة أخيه، وليس لأحد أن يعترض على هذا إن كان الزواج عن تراض بين أخ المتوفى وأرملته بعد انتهاء عدتها ولم يكن هناك مانع شرعي على هذا الزواج، لا سيما إن كانت المصلحة واضحة في هذا الزواج لها وللأيتام من حيث الرعاية والكفالة والصلة، وعليه فإن الإسلام شجع الرجال على الزواج من النساء، ومنهن الأرامل والمطلقات، حماية لهن وصيانة لأعراضهن، والأعراف حين تخالف الشريعة فلا يجب الالتفات إليها لأن اللّه الخالق والمشرع ما أحل شيئا إلا لكمال المصلحة فيه، وما حرم شيئا إلا لفساده وضره.

السؤال

شيخنا هل يجوز مطلقا التعامل مع البنوك الربويّة؟

مراد بن أحمد / الجزائر

الجواب

للرّبا أضرار عظيمة ونتائجه توصل المتعاملين به إلى الخسران المبين، فالشريعة الإسلامية لم تأمر بشيء إلا وفيه صلاح البشر، ونهيها لا يكون إلا عن الشيء الذي فيه مضرة لهم، وللربا أضرار أخلاقية وروحية، واجتماعية، واقتصادية، فصاحب القرض الربوي مثلا يقع فريسة سهلة في يد المرابي الذي لا يراعي الأخلاق والمبادئ، وإنما يهمه تحصيل المال وأكله بالباطل على حساب غيره، فلا يكاد الدائن بالربا يتخلص من تكاثر الدين عليه فيجعله يعيش في جحيم اجتماعي ونفسي صعب، ويؤدي هذا إلى إنشاء نظام يسحق البشرية ويشقيها، أفرادا وشعوبا، لمصلحة شرذمة قليلة من المرابين... وإن أكثر المآسي الاقتصادية التي أصابت العالم مصدرها تعامل الدول بالربا...

والمتعامل بالربا ملعون داخل في حرب اللّه له بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: {لعن آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه}، وقال: {هم سواء} [رواه مسلم عن جابر -رضي اللّه عنه-].

والأصل ترك التعامل مع البنوك الربوية حتى لا يكون المسلم سببا في تقويتها أو دعمها حين تكون البنوك الإسلامية موجودة ومتوفرة وتتعامل تعاملا شرعيا في عقودها وقروضها، أما في حالة عدم وجودها فعند قيام الحاجة والضرورة- والضرورة تقدر بقدرها- للتعامل المعاملات المباحة مع البنوك الربوية فإنه يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾. واللّه أعلم.

السؤال

أستاذنا الفاضل ما هي الحِكَمُ من تشريع الحج والعمرة جزاكم اللّه خيرا؟

أم هبة الرحمن / جيجل

الجواب

لقد شرع اللّه -عز وجل- الحج والعمرة لحكمة بليغة، وفوائد عظيمة، يجنيها المسلم من رحلته إلى الأرض التي اختارها اللّه مهبطا للوحي الإلهي، والرسالة الخاتمة، التي بلغها النبي صلى الله عليه وسلم للناس جميعا، كاملة غير منقوصة، ومن يبتغ دينا غير دين الإسلام فلن يتقبل اللّه منه، وكان في الآخرة من الخاسرين، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾. [سورة المائدة الآية:03].

وقال أيضا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [سورة آل عمران:85].

ويمكن تلخيص بعض حكم تشريع مناسك الحج والعمرة فيما يلي:

- إعلان العبودية لله وحده، لا شريك له، في رحلة يتوجه الإنسان فيها بجسده وروحه إلى خالقه الأعظم، ليتحرر من قيود الدنيا الكثيرة التي شغلته عن الذكر، والصلاة، والتضرع لله، وطلب العفو والمغفرة، حتى يعود إلى أهله، كأنه وُلد من جديد، وقد

طلّق كل أنواع الأخلاق الذميمة التي لا تليق بالمسلم، ففي الحج لا رفث ولا فسوق.

• يتعلم الحاج حين يسافر إلى البقاع المقدسة الصبر ومعانيه، ويتقوى على ذلك بالتوكل على اللّه والاستعانة به على متاعب السفر ومشاقه، وألم فراق الأهل والأحباب والديار، طلبا لرضا اللّه وغفرانه، وشوقا لزيارة بيته المحرم والمكان الذي انطلقت منه رسالة التوحيد إلى العالم كله، فيتحسس خطوات النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء الذين مروا من هناك -عليهم السلام- والصحابة الكرام -رضي اللّه عنهم- الذين ملؤوا كل زاوية وشارع، ويتذكر جهادهم الطويل من أجل محاربة الشرك، والتمكين للتوحيد وإعلاء كلمة اللّه، فيزداد الحاج إيمانا وثباتا وعزما أكيدا على الإقتداء بهم والسير في طريقهم. ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾. [سورة الأنعام الآية:90].

• يشاهد الحاج في بيت اللّه الحرام كل المسلمين، أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، من جميع بقاع الأرض، هؤلاء الذين جاؤوا ملبين دعوة الحق -عز وجل- في مؤتمر عالمي فريد، طاعة له وتسليما، حيث يتعارف الناس ويتلاقون على الحب الإلهي، والأخوة الإيمانية، يلبسون لباسا واحدا، ويتوجهون جميعا نحو قبلة واحدة، ويضعون كلهم جباههم في سجودهم، على الأرض الآمنة المطمئنة، لله رب العالمين، في نظام عجيب ومساواة، إذ لا فرق بين الكبير والصغير، والغني والفقير...بل الجميع الذين جاؤوا من كل فج عميق، اجتمعوا ليعلنوها أنهم أمة واحدة مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. [سورة الأنبياء الآية:92].

• إن في الحج للحجاج منافع دنيوية يصيبونها تؤكد بحق أن الإسلام دين لا يغمط الإنسان حقه في الحياة المادية بضوابط الشرع، ولا يمنعه من احتياجاته الضرورية التي تفرضها عليه الطبيعة الإنسانية، ولهذا لم يجعل عليهم حرجا ولا إثما إذا ابتغوا ربحاً بتجارة ونفعا في أيام الحج، إن كان ذلك لا يشغلهم عن أداء المناسك، بالإضافة إلى الانتفاع من الأضحيات التي تقدم للفقراء والمساكين في نهاية موسم الحج، كما أشارت سورة الحج في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾. [سورة الحج الآية: 28].

حقا إن للعبادات أسرارا وأهدافا شُرعت كلها لخدمة البشر ونفعهم وصلاحهم، والمسكين من حرم نفسه منها.

السؤال

ما حكم العمرة فهل هي واجبة على كل مسلم ومسلمة. أرجو التفصيل شيخنا؟

أبو معاذ / قسنطينة

الجواب

الحج ركن من أركان الإسلام، وشعيرة عظيمة من شعاره، وفريضة من فرائضه على المستطيع إليه سبيلا، أوجبه اللّه -عز وجل- في العمر مرة واحدة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. [آل عمران: 97].

ولقوله تعالى أيضا: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. [البقرة: 196].

ولحديث ابن عمر -رضي اللّه عنه- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: {بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان}. [رواه البخاري رقم (8)، ومسلم رقم (16)].

ولحديث أبي هريرة -رضي اللّه عنه- قال: خطبنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: {أيها الناس، قد فرض اللّه عليكم الحج فحجوا}. فقال رجل: أكل عام يا رسول اللّه، فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: {لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم}. ثم قال: {ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه}. [رواه مسلم رقم (1337)].

قال الإمام ابن قدامة -رحمه اللّه-: "وأجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة". [انظر المغني:5/6 -تحقيق التركي والحلو- دار عالم الكتب - الرياض - ط/3 سنة 1417هـ].

وأما العمرة فقد أجمع أهل العلم على أنها مشروعة، وفعلها في العمر مرة كاف، ولكنهم اختلفوا هل هي واجبة أم لا، على رأيين:

أ- الرأي الأول: يرى أنها واجبة في العمر مرة، وتجب العمرة على من يجب عليه الحج، في إحدى الروايتين، روي ذلك عن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي. وبه قال الثوري، وإسحاق، والشافعي في أحد قوليه [انظر المغني:5/13 - تحقيق التركي والحلو - دار عالم الكتب - الرياض - ط/3 سنة 1417هـ]. وهو رأي الإمام البخاري وهذا ما أشار إليه الإمام ابن حجر العسقلاني -رحمه اللّه- حين قال: "وجزم المصنف-أي البخاري- بوجوب العمرة". [انظر فتح الباري 3/597 - دار المعرفة - بيروت - لبنان].

ومن أدلتهم ما يلي:

• قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. [سورة البقرة: 196]. والأمر يفيد الوجوب، ثم عطفها على الحج، والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه.

• وعن عائشة -رضي اللّه عنها- قالت: قلت يا رسول اللّه على النساء جهاد؟ قال: {نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة}. [رواه أحمد رقم (25322) ورواه ابن ماجة رقم (2901) وصححه الألباني].

• عن عبد اللّه بن عمر -رضي اللّه عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه إجابته على سؤال جبريل -عليه السلام- عن الإسلام فقال: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدا رسول اللّه، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وأن تتم الوضوء، وتصوم رمضان، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: نعم. قال: صدقت}. [رواه ابن خزيمة رقم (2829) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (175)]. وإدخال العمرة مع الحج والواجبات الأخرى المذكورة دليل على وجوبها.

وغيرها من الأدلة.

ب- الرأي الثاني: لا يرى وجوبها، "وهي والرواية الثانية -لأحمد-، وروي ذلك عن ابن مسعود وبه قال مالك، وأبو ثور، وأصحاب الرأي". [انظر المغني:5/13 -تحقيق التركي والحلو- دار عالم الكتب - الرياض- ط/3 سنة 1417هـ]. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن أدلتهم:

- قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.[سورة آل عمران:97]. إذ أشارت الآية إلى وجوب الحج ولم تشر إلى وجوب العمرة.
- عن طلحة -رضي اللّه عنه- أنه سمع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول:{الحج جهاد، والعمرة تطوّع}. [رواه ابن ماجة رقم (2980) وضعفه الألباني في الضعيفة رقم (200)].
- عن جابر بن عبد اللّه -رضي اللّه عنهما- أنه قال:"أتى أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه أخْبِرْني عن العمرة أوَاجِبَة هي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: {لا، وأن تَعْتَمِر خير لك}. [رواه الترمذي رقم(853) وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي(931)].
- عن ابن عمر -رضي اللّه عنهما- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان}.[رواه البخاري رقم (8)، ومسلم رقم (16)]، فالحديث لم يجعل العمرة مع الفرائض المذكورة، ومعنى هذا أنها ليست فرضا.

والذي يظهر أن الأخذ برأي الذين قالوا بوجوب العمرة أفضل لقوة دليلهم، وللاحتياط في الدين -خاصة للمستطيع-.

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه اللّه-: "والذي يظهر بمقتضى الصناعة الأصولية ترجيح أدلة الوجوب على أدلة عدم الوجوب وذلك من ثلاثة أوجه:

- **الأول:** أن أكثر أهل الأصول يرجحون الخبر الناقل عن الأصل على الخبر المبقي على البراءة الأصلية...
- **الثاني:** أن جماعة من أهل الأصول رجحوا الخبر الدال على الوجوب على الخبر الدال على عدمه، ووجه ذلك هو الاحتياط في الخروج من عهدة الطلب...
- **الثالث:** أنك إن عملت بقول من أوجبها فأديتها على سبيل الوجوب برئت ذمتك بإجماع أهل العلم من المطالبة بها، ولو مشيت على أنها غير واجبة فلم تؤدها على سبيل الوجوب بقيت مطالباً بواجب على قول جمع كثير من العلماء، والنبي صلى الله عليه وسلم : {دَعْ ما يريبُكَ إلى ما لا يريبُك}". [أضواء البيان 5/232 دار الفكر - نشر سنة 1415هـ].

والأظهر أن العمرة واجبة على المكي وغير المكي، واللّه أعلم.

السؤال

سيدي الفاضل، ما هو المقدار الواجب في زكاة الغنم ؟

عياش بن الصادق / الجلفة

الجواب

في هذا الجدول بيان كيفية زكاة الغنم:

النصاب من الغنم	القدر الواجب فيه
40 - 120	شاة
121 - 200	شاتان
201 - 300	ثلاث شياه

فإذا زادت على 300 ففي كل مائة شاة، وفي 400 أربع شياه، وفي 500 خمس شياه وهكذا.

قال الإمام ابن حجر -رحمه اللّه-:"مقتضاه أنه لا تجب الشاة الرابعة حتى توفّى أربعمائة وهو قول الجمهور". [انظر فتح الباري 3/330-دار المعرفة-لبنان].

وهذا استنادا إلى ما رواه أنس -رضي اللّه عنه- في كتاب أبي بكر -رضي اللّه عنه- : "وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة، فإذا زادت على مائة وعشرين إلى مائتين شاتان، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة). [رواه البخاري رقم (1454)]. واللّه أعلم.

السؤال

شيخنا الفاضل، ما هو حكم زكاة المستغلات كالمصانع والعمارات والشقق المؤجرة والأراضي المؤجرة والسيارات والطائرات ونحو ذلك مما أعد لأخذ ريعه ونتاجه؟

تاجر من وهران

الجواب

المستغلات هي الأموال التي لم تتخذ للتجارة بأعيانها وإنما تتخذ للنماء، فتنتج لأصحابها فوائد ومكاسب من خلال بيع ما تنتجه أو كراء عينها، ويدخل في المستغلات كالمصانع والآلات والعمارات والشقق المؤجرة والأراضي المؤجرة والسيارات والطائرات والسفن ونحو ذلك. ولأهل العلم في زكاة المستغلات رأيان:

الرأي الأول: يرى زكاة عين المستغلات وما نتج عنها من أرباح إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول، فتقدر قيمة المستغلات ويضاف إليها ما نتج عنها من ربح ثم تزكى بنسبة 2.5%.

الرأي الثاني: لا يرى الزكاة في عين المستغلات وإنما يوجب إخراج الزكاة على الربح المستفاد منها إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول.

وأصحاب هذا الرأي قد رأى بعضهم أن نسبة الزكاة المقدرة على الربح المستفاد من عين المستغلات تكون بـ 2.5%، وهذا الذي انتهى إليه الرأي في المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية 1358هـ، واختاره وأقره مجمع الفقه الإسلامي، وهو رأي جمهور الفقهاء.

أما البعض الآخر من العلماء فرأى أن نسبة الزكاة تكون بـ 5% إذا لم تحسم النفقات، و10% بعد حسم النفقات وذلك قياسا على زكاة الزروع والثمار التي يخرج منها العشر أو نصف العشر. واللّه أعلم.

السؤال

إذا قطع المسلم اعتكافه، فهل عليه قضاء؟

أبو هدى / سطيف

الجواب

مذهب الشافعيّة والحنابلة والصاحبين من الحنفيّة أن المعتكف المتطوع لا يلزمه

الإتمام، وهو يملك الخروج متى شاء، وقال الإمام النووي -رحمه اللّه- في المجموع 501/6:
"والاعتكاف سنّة بالإجماع ولا يجب إلاّ بالنذر بالإجماع "
وقال الحنفيّة والمالكيّة: "يلزمه بالشروع فيه فإن قطعه لزمه قضاؤه".
والراجح عدم وجوب القضاء لمن خرج من اعتكافه المستحب بعد الشروع فيه؛ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللّه-.
واللّه أعلم.

السؤال

حياك اللّه شيخنا الفاضل، لدي سؤال سألنيه جيراني وهو هل يجوز ارث المال الحرام مع علم المورث بأن المال من حرام؟

طه / ب

الجواب

اختلف العلماء في هذه المسألة ومذهب جمهور الفقهاء أن الموت لا يُطيِّب المال الحرام فلا يحل للورثة، فإذا علم الورثة أن مصدره محرم شرعا كالمال المسروق من شخص معلوم. فالواجب رده إليه، أما المال الحرام الذي اكتسب من معاملة محرمة أو لم يُعلم أصحاب الحق فيه أو فُقدوا، فعلى الورثة التخلص منه بصرفه في وجوه البر والخير، ويجوز للورثة إذا كانوا فقراء ومحتاجين أن ينفقوه على أنفسهم على سبيل الصدقة لا على سبيل الميراث.
قال الإمام ابن رشد الحفيد -رحمه اللّه-:
"ولا يرثه - أي المال الحرام - عنه ورثته ولا تجوز فيه وصاياه لأن التَّبَاعَاتِ هي أحق بماله من ورثته ومن أهل وصاياه، لأنها ديونٌ عليه، ولا ميراث لأحدٍ إلا بعد أداء الدين لقول اللّه تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فإن جهل أهل التَّبَاعَاتِ ويئس من معرفتهم تصدق بالمال عنهم، فإن كان الورثة فقراء ساغ لهم أن يأخذوه على سبيل الصدقة عن أهل التَّبَاعَاتِ لا على سبيل الميراث عن مورثهم، وهذا هو القول الصحيح من الأقوال". [فتاوى ابن رشد 642-1/643]. واللّه أعلم.

السؤال

هل ترك قصر الصلاة في السفر مباح سيدنا الشيخ؟

أبو أيوب / أدرار

الجواب

قصر الصلاة للمسافر سنة مستحبة وليست واجبة كما ذهب إلى ذلك الجمهور، على أن بعض أهل العلم يرى كراهة إتمام الصلاة في السفر وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللّه- لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يترك قصر الصلاة في جميع أسفاره، وما صح عنه أنه صلى اللّه عليه وسلم أتم الصلاة في سفر، فعن أنس بن مالك -رضي اللّه عنه- قال:"خرجنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يُصَلِّي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة". [رواه البخاري (1081) ومسلم (724)].
وقال ابن عمر -رضي اللّه عنهما- : "صحبتُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكان لا يزيد في السفر على رَكْعَتَيْن، وأبا بكر وعمر وعثمان كذلك -يعني في بداية خلافته-، -رضي اللّه عنهم-". [رواه البخاري (1102) ومسلم (689)].
قال الإمام ابن القيم -رحمه اللّه- [في "زاد المعاد" 464/1]: "وكان صلى اللّه عليه وسلم يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرا إلى أن يرجع إلى المدينة، ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في سفره البتة".
واللّه أعلم.

السؤال

شيخنا ما حكم الماء المتغير بشيء نجس ؟

أم سعيد / ميلة

الجواب

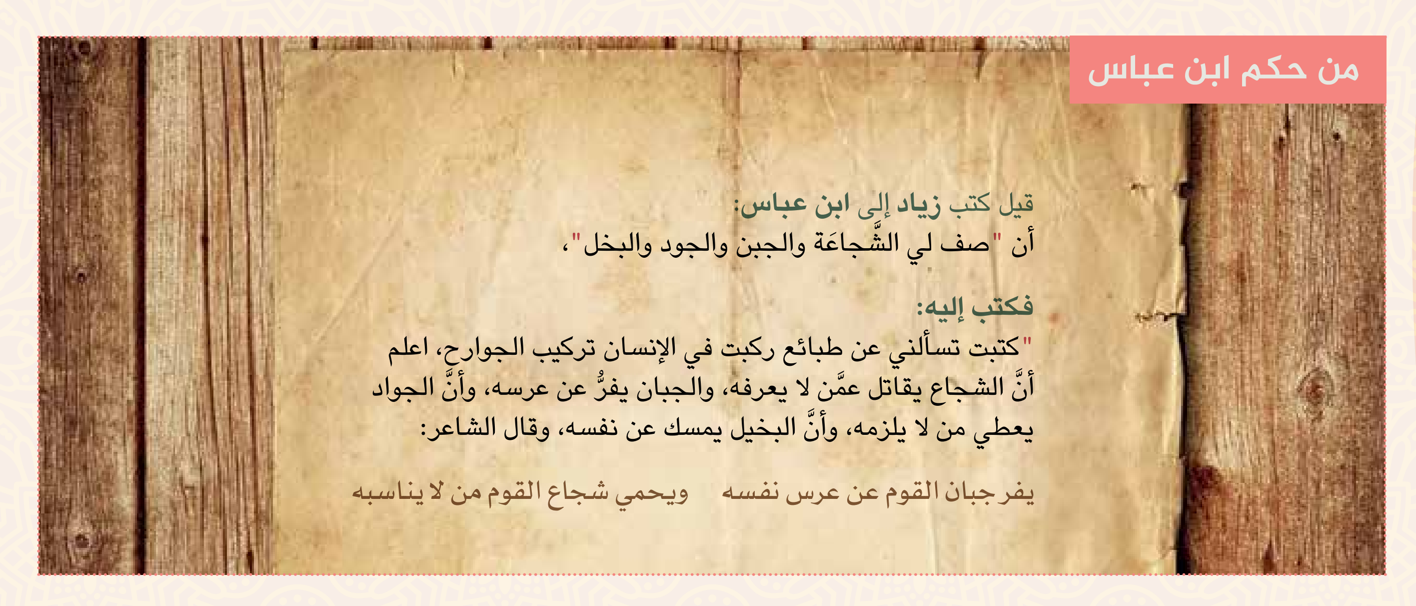
أجمع أهل العلم على أن الماء إذا تغير طعمه، أو لونه، أو رائحته بنجاسة فهو ماء نجس لا يصلح للطهارة اغتسالا ووضوءًا، قال الإمام ابن المنذر -رحمه اللّه- : "وأجمعوا على أن الماء القليل والكثير إذا وقعت فيه نجاسة فغيرت للماء طعما أو لونا أو ريحا أنه نجس ما دام كذلك".[الإجماع ص 1/35].
وقال الإمام ابن عبد البر -رحمه اللّه-:
"والماء لا يخلو تغيره من أن يكون بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر، ولا مطهر".[التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 19/16].
ومن المجمع عليه أيضا أن الماء إذا كان كثيرا مستبحرا لا ينجس إلا إذا تغيّر وصف من أوصافه الثلاثة: طعمه أو لونه أو ريحه، وهذا ما نقله الإمام ابن المنذر -رحمه اللّه- فقال: " أجمعوا على أن الماء الكثير من النيل والبحر ونحو ذلك، إذا وقعت فيه نجاسة، فلم تغير له لونًا ولا طعمًا ولا ريحًا: أنه بحاله يتطهر منه".[الإجماع ص 1/33].
وقال الإمام ابن رشد -رحمه اللّه-: "لا خلاف أن الماء الكثير لا ينجسه ما حل فيه من النجاسة، إلا أن يغير أحد أوصافه".[بداية المجتهد ونهاية المقتصد 1/245].
أما الماء القليل إذا لاقى نجاسة فلم يتغير له لون ولا طعم ولا ريح فلا ينجس وهو مذهب المالكية والظاهرية ومذهب جماعة من السلف ورواية عن الإمام أحمد واختيار شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية والإمام الشوكاني والإمام الصنعاني.
لحديث أبي سعيدٍ الخُدري -رضي اللّه عنه-، أنَّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: {إنَّ الماء طَهور لا يُنجِّسه شيء}.
وإذا كان الماء جاريًا ووقعت فيه نجاسة فلا ينجس إلا بتغيُّر وصف من أوصافه الثلاثة: طعمه وريحه ولونه، وهذا مذهب جمهور الفقهاء من الحنفيَّة، والمالكيَّة، وهو قولٌ قديمٌ للشافعي اختاره بعض الشافعيَّة، وهو إحدى الرِّوايتين عن الإمام أحمد، واختاره الإمام ابن قُدامة، وشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وحُكي الإجماع على ذلك.
وإذا جاور النجاسة الماء وتغيرت رائحته لا عن مخالطة فإن هذا لا يسلبه الطهورية كما نص المالكية والشافعية والحنابلة.
ومتى تحول الماء النجس، سواء كان قليلا أم كثيرا، إلى طهور، بأي وسيلة من الوسائل، فقد طهر وهو مذهب الإمام مالك واختيار الإمام ابن حزم، والإمام الشوكاني وبه صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي. واللّه أعلم

أمنية عُمَرية



روى الحاكم في المستدرك، أن عن **عمر** -رضي اللّه عنه- قال لأصحابه : "تمنوا"
فقال بعضهم : "أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه في سبيل اللّه وأتصدق".
وقال رجل : "أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدا وجوهرا فأنفقة في سبيل اللّه وأتصدق".
ثم قال عمر: "تمنوا"، فقالوا : "ما ندري يا أمير المؤمنين"
فقال عمر : "أتمنى لو أنها مملوءة رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان".

من حكم ابن عباس



قيل كتب **زياد** إلى **ابن عباس**:
أن "صف لي الشَّجاعَة والجبن والجود والبخل"،

فكتب إليه:
"كتبت تسألني عن طبائع ركبت في الإنسان تركيب الجوارح، اعلم أنَّ الشجاع يقاتل عمَّن لا يعرفه، والجبان يفرُّ عن عرسه، وأنَّ الجواد يعطي من لا يلزمه، وأنَّ البخيل يمسك عن نفسه، وقال الشاعر:

يفر جبان القوم عن عرس نفسه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

مضرب الأمثال

استقبالُ الموتِ خير مِنْ استِدبَاره:



كان **النعمان بن المنذر** قد خاف على نفسه من **كسرى** بعد أن امتنع من تزويجه إحدى بناته ففر إلى ديار بني شيبان، وسلَّم أسلحته وحرمه إلى **هانئ بن مسعود** أمانةً لديه، ثم رحل إلى كسرى يستعطفه فبطش به، وأرسل من يحمل ودائعه من هانئ، ولكن البطل العربي أبى وَرَدَّ رُسلَ كسرى مغضبين.
فجهز عاهلُ الفرس جيشاً لغزو العرب، وتأديبهم، فقام هانئ بقيادة الكتائب العربية، وانتصر على الفرس في موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذي قار، وكان قد جمع قومه وألقى فيهم هذه الخطبة قبل المعركة:

" يا مَعْشَرَ بكْرٍ ، هالِكٌ مَعْذورٌ، خير، مِنْ ناجٍ فرور، إنّ الحذَر لا يُنجي من القَدَر، وإنّ الصّبْرَ مِنْ أسْبَابِ الظّفرِ، النيّة ولا الدَّنيَّة، استقبالُ الموتِ خير مِنْ استِدبَاره، الطَّعْنُ في ثُغَرِ النُّحُورِ، أكْرَم منه في الأعْجَازِ والظهورِ، يا آل بكر، قَاتِلُوا فَمَا للمنَايَا مِنْ بُدّ ".

معارك وحروب تاريخية

- حدثت **معركة بدر** في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين والمشركين، وانتهت بنصر المسلمين.
- حدثت **معركة القادسية** بين المسلمين وبين الفرس، وذلك في سنة 635م، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقتل قائد الفرس رستم.
- تعتبر **معركة ذات الصواري** التي وقعت في البحر المتوسط عام 34هـ أول معركة بحرية حدثت في الإسلام، وقد كانت بين البيزنطيين والمسلمين، وذلك في عهد عثمان بن عفان، وقد كان النصر حليفاً للمسلمين فيها.
- وقعت **معركة نهاوند** في العام 642م بين المسلمين والفرس، وذلك في زمن عمر بن الخطاب، وقد حقق المسلمون فيها نصراً كبيراً.
- تعتبر **معركة عين جالوت** التي وقعت في العام 1260م إحدى أهمّ المعارك الحادثة في التاريخ الإسلامي، حيث حقّق فيها المسلمون انتصاراً كبيراً على المغول.
- حدثت **معركة "ديو" البحرية** عام 1509م، قرب السواحل الهندية بين الأسطول البرتغالي من جهة، والأسطول المشترك من العثمانيين والمماليك من جهة ثانية.
- وقعت **الحرب العالمية الأولى** في العام 1914م، وانتهت في العام 1818م نتيجة الهجوم الذي قامت به دول الحلفاء في هذا العام ضد القوات الألمانية، وقد وقعت في هذه الحرب خسائر بشرية كثيرة.
- بدأت **الحرب العالمية الثانية** عام 1939م، وانتهت عام 1945م، وقد انتصر فيها دول الحلفاء على دول المحور، وقد كانت خسائر هذه الحرب كبيرة جدّاً، إذ راح ضحيّتها سبعة عشر مليون عسكريّ، وأضعاف العدد المذكور من المدنيّين.



ذكاء وزير

يُحكى عن **الرشيد** أنه كان في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره **الفضل بن الربيع**: **"ما هذه؟"** فقال: **"عروق الرماح يا أمير المؤمنين"**، ولم يُرِدْ أن يقول الخيزران، لموافقته اسم **أُمِّ الرشيد**.

حقائق علمية غريبة

- عند النظر إلى القمر، فإنّ الصورة التي يراها الإنسان هي صورة لأشعته المنبعثة قبل ثانية وثلث من الوقت، أمّا الأشعة المنبعثة من النجوم فإنّها تكون قبل سنوات، أو مئات، أو آلاف السنين من انبعاثها، وقد تكون النجوم التي تنظر إليها الآن قد اختفت، أو ماتت، أو تحولت إلى هيئة أخرى.
- تزداد احتمالية رؤية الكوابيس في المنام، عند النوم في مكان بارد، كما أنّ الأشخاص الذين ينامون على ظهورهم معرّضين لرؤية الكوابيس بمعدل عشر مرات أكثر من الأشخاص الذين ينامون على أحد جانبيهم.
- تمتلك الإناث حاسة تذوق عالية تفوق حاسة التذوق عند الذكور، وبخاصة في الأطعمة والمشروبات.
- تتسع العين بنسبة حوالي 45% عندما ينظر الإنسان إلى شيء يشعره بالفرح، والسعادة.
- يوجد في جسم الإنسان نسبة من الحديد تكفي لصنع مسمار يبلغ طوله حوالي 7.5 سم.
- قد يتسبب العطس بقوة في كسر ضلع، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يعطس وعيناه مفتوحتان، وإذا حدث ذلك فإنهما ستنفجران، وقد يتسبب العطس في انفجار وعاء دموي في الرأس أو الرقبة، وبالتالي الموت، وذلك إذا حاول الإنسان كتم العطسة.
- تعادل المسافة التي يمشيها الشخص العادي خلال عمره حوالي خمس دورات حول كوكب الأرض، حيث إن الشخص النشيط نسبياً يمشي حوالي 7500 خطوة في اليوم الواحد، وفي حال تم الحفاظ على هذا المعدل حتى بلوغ الثمانين من العمر، سيكون قد مشى حوالي 216 مليون خطوة في حياته، أمّا الشخص العادي يمشي حوالي 110 ألف ميل، وهذه المسافة تعادل المشي خمس لفات حول الأرض.





أ. كمال أبوسنة

إرادة التغيير !

ظهرت في العالم الإسلامي مدارس كثيرة للتغيير تسعى إلى بعث النهضة الحضارية في الأمة بعد تعثرها المؤلم، وسقوطها الشامل، بسبب مشكلات كثيرة ربما من أحسن من شخَّصوا علل هذا التعثر والسقوط المفكر الإسلامي الجزائري الكبير الأستاذ **مالك بن نبي** -رحمه اللّه- في كتبه القيّمة التي عنيت عناية سبَّاقة بمشكلات الحضارة، ووُفق إلى حد كبير في تحديد المعضلات الحضارية وتحليلها تحليلا راقيا كشف به الغطاء عن هذه المعضلات، ووجّه النّخب والطاقات الفاعلة في الأمة إلى ضرورة تتبع ظواهر التخلف من الداخل، ولا تلقي اللوم على الآخر الذي تفاعل مع حقائق الواقع السلبي في البلاد الإسلامية، وسخرها بذكاء ومكر ليبني وجوده ويقويه، ويقود الحضارة، خاصة في شقّها المادي، في "**عصر التقنية والتكنولوجيا**"..!

ولعل السؤال الذي يقلقني شخصيا ويدور في ذهني كثيرا هو أن مدارس التغيير في العالم الإسلامي تنوعت توجهاتها وأغلبها قد وضعت وصفات مختلفة لعلاج دائنا الحضاري من أجل الوصول إلى الشفاء، ولكن إلى يومنا هذا لا نجد تجربة صالحة متكاملة يمكننا القول إنها إحياء ثان للتجربة الإنسانية الإسلامية الرائدة التي وُلدت في مرحلة النبوة، وبدأت بالنمو في عصر الخلفاء، وتأصلت حتى تمكنت في مراحل متعددة من حياة أمتنا إلى حد مشرف رغم بعض الهزات المقلقة في التاريخ التي لم توصلها إلى السقوط الحضاري الشامل الذي نعيش ضنكه اليوم والذي بدأ مع إنهاء الوجود الإسلامي في "**الأندلس**" فأين تكمن المشكلة الحقيقية غير المزيفة.؟!

هناك إجماع في الأمة أن أوضاعنا بائسة وهي أحوج ما تكون إلى التغيير الإيجابي-وإن اختلفت حركات التغيير ومشاريعها ووسائلها وغاياتها- الذي ينقلها إلى أوضاع توافق مكانتها التي وصفها القرآن الكريم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولكن محاولات حركات التغيير التي ظهرت في أكثر من قطر إسلامي قبل بداية القرن الماضي إلى يوم الناس هذا لم تصل إلى مرحلة قطف الثمار رغم نمو بعض الأشجار هنا وهناك التي استقامت وأورقت ولكنها لم تنتج ثمرا.!

من أعوص المشكلات الحضارية التي تواجه أمتنا اليوم في مسألة "**التغيير**" بقاؤها حبيسة مرحلة "**تمني التغيير**" ولم تصل بعد إلى مرحلة "**إرادة التغيير**" والتي عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وإرادة التغيير تستلزم قاعدتين أساسيتين مهمتين هما:

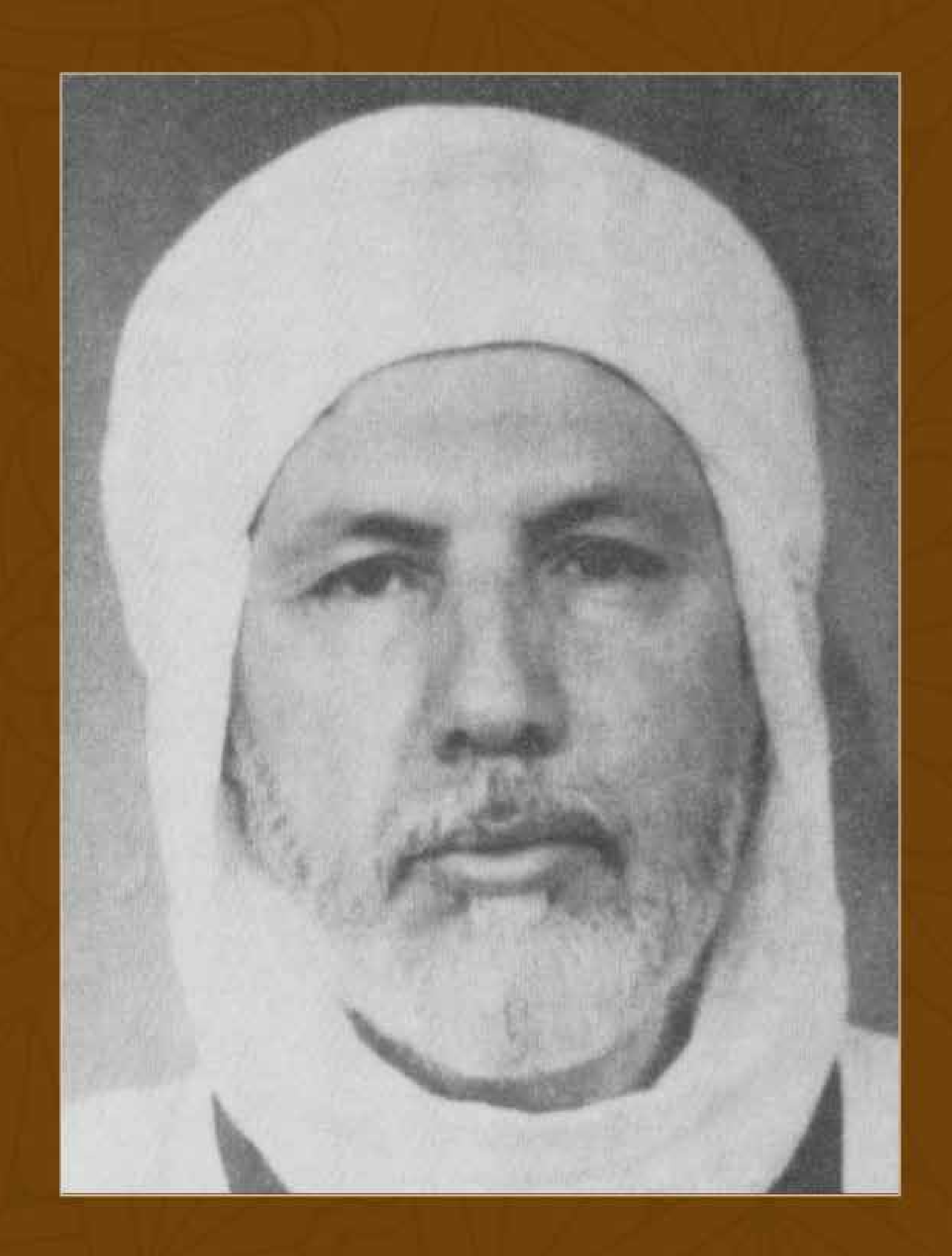
- **الفعل**: أي الحركة التي تنتج عن القناعة الراسخة بضرورة التحول من حال إلى حال بعد التخطيط والبرمجة وتحديد الوسائل والأهداف...
- **والالتزام**: أي تحمل مسؤولية الفعل كاملا من أجل التغيير بتحقيق متطلباته، ورفد أثقاله، وعدم التهرب من تبعاته، والتضحية الصادقة في سبيله...

وقد دلت التجربة الناجحة السابقة في أمتنا أن "**التدين الصحيح**" الممزوج بـ "**الوعي**" هو الـمُولِّد الكهربائي المعنوي لإرادة التغيير، ولَكَمْ تعجبتُ من قدرة هذا الدين في بعث هذه الإرادة في الإنسان وهو مولود جديد في الإسلام بعد انتقاله من الكفر إلى الإيمان، إنه سر من أسراره التي تعمل فيه يد فوقية تقلب الأمور كيف تشاء حين تلقى تجاوبا صادقا وتحركا فاعلا، ومهما تحاول العقول تفسير هذا السر فلن تفلح أبدا، ونماذج ذلك من السيرة النبوية الشريفة ظاهرة معلومة، ومنها ما رواه أهل السير ما ملخصه بتصرف: أن **أسعد بن زرارة** خرج **بمصعب بن عمير** يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر فدخل حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم و**سعد بن معاذ** و**أسيد بن حضير** يومئذ سيدا قومهما وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا بوجود مصعب وأسعد بن زرارة في ديارهما أخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: "هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق اللّه فيه.." فوقف عليهما متشتماً فقال: "ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة". فقال له مصعب: "أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره". قال: "أنصفت..." فكلمه مصعب بالإسلام...فأسلم.ثم قال لهما: "إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن وهو سعد بن معاذ"، فلما علم سعد بإسلام أسيد قام مغضباً فأخذ الحربة من يده وقال: "واللّه ما أراك أغنيت عنا شيئاً" ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً. ثم قال لأسعد بن زرارة: "يا أبا أمامة أما واللّه لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت مني هذا أتغشانا في ديارنا بما نكره؟!"-وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: "أي مصعب جاءك واللّه سيد مَنْ وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان"- فقال مصعب لسعد: "أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره". قال سعد: "أنصفت" ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. فعُرف في وجهه الإسلام فأسلم فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعهم أسيد بن حضير فلما وقف عليهم قال: "يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟" قالوا: "سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة". قال: "فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا باللّه ورسوله". فما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة سوى **عمرو بن ثابت بن وقش** فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد ولم يسجد لله سجدة وأخبر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة.

إن إيماننا بما جاء في النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة قوي لا ريب فيه بأن التغيير في الأمة قادم، ولا بد منه، ولكن حين تتهيأ ظروفه وتتحقق شروطه، **ويأذن اللّه** بذلك، ولهذا وجب إشاعة روح الأمل والتفاؤل، في الأمة حتى تستمر في المدافعة والسير قدما نحو "**الوعد الإلهي**" ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ، إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾

الشاعر محمد العيد آل خليفة

1904 - 1979م





مصرف السلام-الجزائر

خدمات بنكية أصيلة

تمويل للشركات
كفالة



تمويل للشركات و المهنيين
السلام إيجار

المصرف عن بعد
السلام مباشر

صيغ التمويل :

- مشاركة ؛
- مضاربة ؛
- اجارة ؛
- مرابحة ؛
- استصناع ؛
- بيع بالتقسيط ؛
- بيع الآجل ؛...الخ



بطاقة التوفير
أمنيتي

تمويل للأفراد
السلام تيسير

التمويل العقاري

دار السلام



www.alsalamalgeria.com